

الشعر الأمويّ في خراسان والبلاد الايرانيّة

تأليف

الدكتور الهادي حمودة الغزي

رسالة ماجستير من جامعة القاهرة
تحت اشراف
الدكتور شوقي ضيف
- جوان 1955 -



الدار التونسية للنشر
مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع - الكويت



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية

تأليف
الدكتور الهادي حمودة الغزي

رسالة ماجستير من جامعة القاهرة
تحت إشراف
الدكتور شوقي ضيف
- جوان 1955 -



الدار التونسية للنشر
مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع - الكويت

الإهداء

إلى الذين يعملون ويحبون أن يعمل الناس

في هذا الوطن الحبيب ....

إلى المجاهد الأكبر

حتّى بعث هذه الأمة وقائد جهادها المظفر

أهدي هذا الكتاب .

المؤلف

كلمة الناشر

لقد كان لدعوة المرحوم الاستاذ امين الخولى الاثر الكبير فى اوساط الباحثين العرب لدراسة ادب البيئات العربية شرقا وغربا فانكب وفرة منهم لدراسة هذا الادب وضبط اتجاهاته وقضاياه . ومن بين هؤلاء الاستاذ الهادى حمودة الغزى مؤلف هذا الكتاب فقد درس فيه الادب العربى فى العصر الاموى فى بيئة خراسان وما صاقبها ، وكنا قد نشرنا له منذ اربع سنوات اطروحته التى نال بها درجة الدكتوراه عن « الادب التونسى فى العصر الحسينى » ، فالمؤلف بهذا قد صرف اهتمامه الى ادب البيئات وتقصى قضايا هذا الادب الذى كان استجابة لاوضاع معينة وبيئة محددة الملامح فجلاها وجلى الاتجاهات الفنية السائدة .

لقد دأبت الدار التونسية للنشر على العناية بالثقافة العربية فى سائر اقطارها واصدرت من الكتب ما يدل على صدق هذه العناية وهى ما تزال تسلك هذه السبيل ايمانا منها بوحدة الثقافة العربية اذ تسعى فى نطاق ما تنشره الى احكام التعاون بين الناشرين العرب وتنسيق الاعمال حتى لا تتكرر الجهود فيما لا يجدى .

وفقنا الله الى ما فيه خير الثقافة العربية .

تقديم

عندما زارنى الاستاذ الهادى حمودة الغزى لاول مرة فى مكتبى بوزارة التربيـة القوميـة ، وبسـط لـى قضيته وتظلـم من بعض زملائه فى معـاهد التعليم العليا الذين مـانعوا فى التوصية بانتدابه رغم حصوله على الشهائد الجامعية العليا ، لفت نظرى بجده واستقامته ووطنيته ، وقدرت فيه التمسك بالقيم الاخلاقية العليا والاخلاص لها والعزم على النضال الطويل العميق فى سبيل نصرتهـا .

لقد نشأ بحمام الغزاز بالوطن القبلى ، هذه القرية المناضلة التى صمدت فى وجه الاستعمـار الفرنسى الغاشم ، واستشهـد الكثير من ابنائها فى سبيل استقلال تونس تلبية لنداء الحزب وداعى الضمير ، وتلقى تعلمه الثانوى بجامع الزيتونة وامكنـه مواصلة تعليمه العالـى بجامعة بغداد فى بعثة قوميـة ودراساته العليا بالقاهرة بفضل اعانـة الرئيس الحبيب بورقيبة الذى تدخل لفائدته وأذن باسناده منحة خاصة سنة ١٩٦٣ فتحصل على الماجستير بتقديمه اطروحة حول « حياة الشعر الاموى فى خراسان والبلاد الايرانية » تحت اشراف الدكتور شوقى ضيف ، وهذه الدراسة هى التى تنشرها اليوم الدار التونسية للنشر مشكورة وأتشرف بالتقديم الوجيز لهـا .

وهو عمل مفيد من الناحيـة الادبية والاجتماعيـة والتاريخية والسياسية ، اذ يعين على تفهم طبيعة العربى وتـأثيره وتـأثره فى بيئة غريبة كل الغربـة عن بيئة العراق وشبه الجزيـرة حينذاك ، كما يكشف عن هذا التفاعل الممتاز ، على صعيد الفكر والعقيدة ، بين العرب والايرانيين دون النهر ، وبينهـم وبين التورانيين (الهياطلـة) وراء نهر جيحون ، وكذلك على الصعيد السياسى متمثلا فى انضمام الايرانيين الى الشيعة وثورتهم على الحكم الاموى .

وانى اذ ارجو ان يلقى هذا الكتاب ما يستحقه من اهتمام الناقدين ويؤدى للدارسين وهواة الادب ، الخدمات الجليلة التى يقدمها كل بحث من نوعه يطمـــح الى التعريف بأدب تلاشت آثـــاره وضاعت دواوين شعره ٠٠ وتصوير بيئة قديمة من خلال ما يوجد فى بطون الكتب القديمة من شتات اخبارها ونتف الروايات الواردة حولها ، فان الذى احب ان أنبه اليه هو ما يدل عليه هذا العمل ويؤكده من علـــو همة هذا الاستاذ الشاب وصموده وعزمه على شق طريقه نحو العلم والبحث وتذليـــل الصعوبات للقدرة على خدمة بلاده خاصة والثقافة العربية الاسلامية عـــامة ٠

ولو كان قصير النفس ، سريع الانكسار ، ضعيف الثقة بنفسه ، متشككا فى اصالة أمته وانتصارها على نفسها فى آخر الامر لوقع مثل بعضهم فى أحد فخين كثيرا ما يضعهما القدر فى طريق صغار النفوس :

ــ اليأس واللواذ بالمرارة والنقد الهدام والتشاؤم الشامل وهو ما يؤدى الى القعود والاكتفاء من الحياة بالمظهـــر والوهم والانحدار الى منزلة النكرات ٠

ــ اكتشاف نوع من « الواقعية » ، هى بمثابة الوقوع ، تشير بالمحاذاة والحيطة والتملق والانبطاح امام « القوى الحقيقية » والتصالح أى التواطؤ مع المعطيات التى كانت تعتبر فى اول المطاف رواسب يجب ان تقاوم وحواجز يجب ان تتجـــاوز ومنكرا ثقافيا او نفسيا يجب ان تقتلع جذوره اقتلاعا ٠

اما الاستاذ الهادى حمودة الغزى فانه بفضل تكوينه الوطنـــى الصميم وايمانه بشمائل امته الاساسية التى لن تنال منها الاعراض ، تحصن من وسواس اليأس واغراء السير مع الرياح او المعارضة الفوضوية العقيم التى هى نوع من الانفصام فى الحياة وعدم التلاؤم معها ٠

ولم يلذ فقط بالصبر او مواصلة السعى لاقناع بعض زملائه بان قيمة الاستاذ الجامعى لا تتجلى فى مجرد تحصله على شهائد معينـــة

من جامعة بعينها ، بل فى ما ينتجه وما يقدمه من اعمال طريفة متواصلة وكذلك فى مدى اخلاصه لمهنته وتفرغه الى البحث والتنقيب وهو مـا نعتقد ان عددا كبيرا من اساتذتنا الجامعيين اصبحوا يؤمنون به ويعملون على تغيير الواقع الموروث لمسايرة العصر وتنويع مصادر واساليـب التكون والتكوين ، حتى نخلق شيئا فشيئا تقاليد جامعية قومية لها طرافتها وخصائصها ومنزلتها المرموقة بين التقاليد الجامعية فى كافـة البلدان المتقدمة شرقيها وغربيها ٠

بل صرف الدكتور الهادى حمودة الغزى طاقاته واهتمامه الـى البحث والدرس والنشر فصدر له سنة ١٩٧٣ « الادب التونسـى فى العهد الحسينى » (١٧٠٥ ــ ١٨٨١) ولم تثنه الصعـاب لا فى حياته المهنية التى سبق ان أشرت اليها ، ولا فى دروب البحـث عن المصادر المتفرقة الضرورية للتمكن من خدمة الادب التونسى والمساهمـة فى التعريف به وحمل الطلاب على الاقبال عليه ٠ فهو القائـل فى مقدمة « الادب التونسى » الآنف الذكر : « ولست بمشير الى الصعوبـات التى صادفتنى خلال جمعى لمادتها والعراقيل التى وضعت فى طريقى وضعا ، ذلك ان من مستلزمات البحث التعب والارهاق » ٠

وانى اذ انوه بهذه الروح العالية واستبشر باطراد انتاج المؤلف ، ارجو ان يواصل السير على الدرب الذى اختاره وان يفرض وجوده بالعمل والصمود فى العمل والا ينتظر جزاء من « الخـارج » فانما جزاؤه من نوع عمله ، ونخوته من شعوره براحة الضمير والوفاء الى هذه الامة والى أبقى قيمها وأقدس مبادئها٠

محمـد مزالـى

(فيفـرى ١٩٧٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

هذه الدراسة التى تحصلت بها على درجة الماجستير فى الآداب العربية من جامعة القاهرة (*) تعتبر احدى الدراسات التى تخدم الادب العربى فى احدى بيئاته الاسلامية التى لم يعرها الباحثون عناية كافية فى بحوثهم الادبية ، ولست أدعى أن دراستى هذه لم تسبقها دراسات ، فقد تحدث عن هذا الموضوع أكثر من باحث ، منهم كارلو نالينو فى كتابه « تاريخ أداب اللغة العربية » وقد سمى الشعر الخراسانى شعر الجنود ، كما تعرض لهذا الموضوع الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « العصر الاسلامى » .

والرسالة موزعة على فصول أربعة :

تحدثت فى الفصل الاول منها عن بيئة خراسان الجغرافية والتاريخية ، كما تحدثت عن حركات الفتح العربى وما تخلل ذلك من حروب خارجية وفتن داخلية ووقفت عند الحياة الاقتصادية والاجتماعية وما صحبها من تيارات فكرية ومذهبية .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن الشعر فى خراسان ، مبتدئا بنظرة عامة على هذا الشعر ، ثم بحديث عن الاغراض الشعرية التقليدية وهى : المدح ، والرثاء ، والحماسة ، والفخر ، والهجاء ، والخمريات .

وأفردت الفصل الثالث بالحديث عن ستة من مشاهير شعراء خراسان وهم : زياد الاعجم ، والمغيرة بن حبناء ، وثابت قطنة ، وكعب الاشقرى ، وأبو الهندى ، والشمردل بن شريك .

(*) عدل اتحاد الجامعات العربية دكتوراه الحلقة الثالثة الفرنسية فى الفروع المختلفة بالماجستير المتحصل عليها من جامعات مصر العربية ، وذلك بتاريخ ٨ — ٥ — ١٩٧٦

وتحدثت فى الفصل الرابع عن الخصائص الفنية العامة للشعر الخراسانى وما شاع فيه من كثرة المقطوعات ، وكيف اتسم فى كثرته بالصدق والأصالة والروح الخطابية والعفويــة .

وأما مصادر هذا البحث ومراجعــه فكثيرة ، ويمكن تصنيفها فى ثلاثــة أنــواع :

أولا : مصادر ومراجع جغرافية ومن أهمهــا كتاب ابن حوقــل ، وكتاب ابن خرداذبة ، ومؤلف ابن رستــه ، وهى غنية بالمــادة التى تعطينا صــورة واضحة لطبيعة بــلاد خراسان والمناطق التى تتبعهــا فى العصر الامــوى ، اذ نراها تتحدث عن نواحيها المختلفة ومسالكها المهمة ، وجوانبها العمرانية .

ثانيــا : مصادر ومراجع تاريخية مثل الطبرى والبلاذرى وتاريخ الدولة العربيــة ، ولكل منها ميزتــه ، فاذا كان الطبــرى يعتنى فى سرد الحــوادث التاريخية بالاطناب والتفصيل ، فان البلاذرى على عكسه يعمد الى الاختصــار والايجاز وهو مع ذلك يمدنا بمعلومات قيمة عن فتوح خراسان ، واشتــراك الموالى فى فتحهــا ، وتوطــن العرب بهــا ، ونزولهم فى بــلاد الشاش وأرض فرغانة ، أما كتاب تاريخ الدولة العربية فهو يمثل الدراسة العلمية المنهجية التى استوعبت أهم ما جاء فى الكتب القديمة عن خراسان وكان صاحبه كثيرا ما يعنى بمناقشة الأحداث وتصحيح الروايات .

ثالثــا : المصادر الادبية من أهمها كتاب الاغــانى اذ نجده حافلا بأخبــار الشعراء الخراسانيين ، وفيــه مادة شعرية لا تكاد تنقطــع عن هذه البيئــة ، حيث يعد من أهم المصادر الادبية القديمة بالنسبة لدراسة أدب هذه البيئة . ومن أهمها أيضا تاريخ الطبرى ، فعلى الرغم من أننا جعلناه فى عداد المصادر التاريخية ألا أنه يعد أيضا من المصادر الادبية المهمة اذ جعل المؤلف استشهاده بالشعر جزءا من منهجه ، فنراه يتتبع الاحداث التاريخية والمناسبات الهامــة ويدعمها مستشهدا ، ببعض ما لديه من النصوص الشعرية .

وهناك طائفــة أخرى من المصادر الادبيــة يمكن أن نذكر منهــا الشعــر والشعراء ، والمــؤتلف والمختلف ومعجــم الشعراء . وهــذه الكتب وان كــان يسودها الاجمال والاختصار ألا أنها كثيرا ما أمدتنا بترجمات وأخبار مهمــة لشعراء خراسان . وبجــانب ذلك تتنــاثــر فى كتب الادب المختلفــة أشعــار

وأخبار كثيرة على نحو ما نجده فى أمالى القالى وأمالى المرتضى ، وأمالى اليزيدى والعقد الفريد وعيون الاخبار ، وهذه المجموعة لا نجد فيها ترجمات وافية ، ألا أننا نجدها غنية بطرائف الاخبار ، وما أثر عن هؤلاء الشعراء من عيون أشعارهم .

وأيضا هناك مراجع أخرى لم تتوسع فى حديثها عن شعراء ايران ولكننا نراها تتحدث عن بعضهم فى شيء من الاطناب والافاضة ، مثل طبقات الشعراء لابن المعتز وفوات الوفيات ، وتاريخ ابن عساكر ، وأهمية هذه المصادر مأتاها من أنها تتبع حياة من ترجمت لهم . وتستشهد بطائفة من قصائدهم الشعرية مما لا نجده فى غيرها من المصادر الاخرى .

وهناك دراسة تتصل بموضوع رسالتنا هذه لكاتب مشرقى هو الدكتور حسين عطوان . ودراسته هذه متأخرة فى التأليف عن كتابنا وان سبقته فى النشر .

وعيب دراسة الدكتور حسين عطوان (*) أن هذا الرجل لم يكلف نفسه مشقة الاطلاع على رسالتنا الجامعية المودعة نسخة منها بمكتبة جامعة القاهرة منذ جوان 1965 . ولو فعل لتجنب عيبا كبيرا لحق مؤلفه وهو هذا الاستسلام الكامل للجانب التاريخى حتى لكأن الرجل يقوم بمهمة البحث التاريخى لا الادبى مما جعل كافة فصوله باستثناء فصل واحد تغرق فى النواحى التاريخية . وجره هذا الانجذاب التاريخى الى خلط كبير فى الجانب الادبى حتى لا تكاد تعرف ماذا يصنع الرجل ، مؤرخ هو أم دارس أدب ؟ !

وكأن الطبرى بأسلوبه التاريخى فى نظره الى النصوص الادبية قد استعبد الدكتور حسين عطوان وأفقده القدرة على العمق والتحليل والاستنتاج فى كثير من الاحيان .

وبالرغم من صلة كتاب السيد عطوان بموضوع دراستنا الجامعية ، فان الفرق بينهما يبقى قائما ، اذ كانت دراستنا وأشمل باعتبارها تناولت الشعر الاموى لا فى بلاد خراسان وحدها بل والبلاد الايرانية عموما ، بينما اقتصر السيد عطوان على خراسان اقتصارا مقصرا .

(*) كتاب السيد عطوان هو « الشعر العربى بخراسان فى العصر الاموى » نشر مكتبة المحتسب بعمان ودار الجبل ببيروت ط 1974

ولست اجـدنى فى حاجـة الى أن أشير الى الجهـد الذى بذلتـه ولا الى الصعاب والعقبات التى اعترضت طريق هذا البحث ، ذلك أن مثل هذا الجهد وهذه الصعاب ، هو أول ما ينتظر الدارس فى دراسته لأدب بيئة من البيئات الاسلامية ضاعت كل دواوين شعرائها ، ولم يبق مما نظموه غير هذا الشتات المتفرق فى بطون الكتب القديمة . واذا كان من يستحق الشكر والتنويـه فى هذا البحث فانما هو أستاذى الجليل الدكتور شوقى ضيف ، المشرف على هذه الرسالة فلقد غمرنى بعطفه وخصنى برعايته وبذل من وقته وجهـده الشئ الكثير مما جعلنى أستسهل فى هـذا البحث كل صعب وأهون من مجهـودى كلما قارنته بجهده ، فاليه أرفع خالص شكرى وأسمى تقديرى ...

الهـادى حمـودة الغـزى

الاستـاذ بدار المعلمين العليـا

الفصل الاول

العرب في خراسان (*)

البيئة الجغرافية

تقع خراسان في اقصى الشرق من بلاد الخلافة، وقد اختلف الجغرافيون العرب في تحديدها ولعل هذا الخلاف راجع الى الظروف التارخية التي مرت بها، ذلك أننا لا نعرف لها حدودا ثابتة طوال العصر الأموي، وإنما هي حدود متغيرة بتغير احوال العرب هناك. فاذا كان العرب أقوياء متحدي الكلمة اتسعت هذه الحدود واذا اختلفت كلمتهم وتوزعت سيوفهم الاطماع وروح الحقد والعصبية ، انكمشت تلك الحدود، وتوالت عليهم غزوات الترك، ووصلوا في بعض الأحيان الى نيسابور (1).

واضطراب الحدود وتغيرها على هذه الصورة كان من العوامل التي جعلت الجغرافيين العرب تتباين اقوالهم حينما يتحدثون عن حدود خراسان والمناطق التي تشتملها. ففريق يرى أن اقليم المشرق هو في الواقع ثلاثة أقاليم : خراسان، وسجستان، وما وراء النهر. على حين يرى فريق آخر أن تلك الثلاثة هي عبارة عن إقليم واحد يشقه النهر فيجعله ذا جانبين (2) ، وهناك من يخرج بلاد ما وراء النهر عن خراسان وكذلك جرجان وحدودها عند من يرى هذا الرأى هي : سجستان والهند من جهة الشرق ، وفي الغرب مفازة

(*) — Encyclopidia of islam, vol. 2 p. 966 - 967.
— Le strange p. 147.

(1) فتوح البلدان . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد . مكتبة النهضة القسم الثالث . ص 511 .

(2) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ط. ليدن 1877 ص 260 .

الغزية، وجهة جرجان، وفي الجنوب مفازة فارس وقومس. أما في الشمال فهناك بلاد ماوراء النهر وشيء من بلاد الترك (3).

وذكر ياقوت أن بعضهم يعد أعمال خوارزم وبلاد ما وراء النهر من خراسان (4) لأن تلك البلاد كانت تابعة الى والي خراسان وكان اسم خراسان يجمعها (5) .

والواقع أن كلام البلاذري عن حدود خراسان ، والمناطق التي كانت تشملها هذه الولاية كما ذكر ياقوت ، هو أولى بالقبول وأدعى إلى الاطمئنان بالنسبة لدارسي أدب تلك المنطقة أيام الحكم الأموي.

ورأي البلاذري كما حكاه ياقوت أن خرسان كانت مقسمة الى اربعة أرباع : اولها، نيسابور، وقوهستان، والطبسان، وهرات ويوشنج، وباذغيس وطوس. وثاني تلك الارباع مرو الشاهجا ن وسرخس ونسا وأبيورد، ومرو الروذ والطالقان وخوارزم وآمل. والذي يلي هذين الربعين، الربع الواقع غربي النهر ويشمل الفارياب والجوزجان وطخارستان السفلى وخام واضغانيان وسمنجان. أما الربع الاخير فهو ما وراء النهر (6) .

وتحديد البلاذري لمفهوم خراسان على هذا النحو يتفق والفترة التارخية التي عاشتها تلك المنطقة . فلقد كان والي خراسان طوال العصر الاموي يدير هذه المناطق بنفسه وتحت سلطانه الا سجستان فإنها كانت في بعض الاوقات، ولاية قائمة برأسها (7) . وذهب بعض المحدثين مذهب البلاذري فيما كانت تشمله ولاية خراسان فذكر انها في بعض العصور كانت تطلق على كل الأقاليم الواقعة شرقي المفازة الكبرى الى جبال الهند وكانت

---

(3) ابن حوقل ط ليدن 1871 ص 308 ، 309 .
(4) معجم البلدان ط السعادة 1906 المجلد الثالث ص 407 .
(5) نفس المصدر 3/408 .
(6) المصدر نفسه 3/408 .
(7) الطبرى 5/135 . مطبعة الاستقامة القاهرة 1939

تشمل ايضا منطقة ما وراء النهر باستثناء قوهستان وسجستان. اما حدود خراسان الخارجية فهي في ذلك الوقت صحراء الصين والبامير من جهة آسيا الوسطى، ومن ناحية الهند توجد جبال الهندكوش (8).

فالمقصود اذن من الشعر في خراسان هو كل ما قيل في خراسان نفسها او في المناطق التي تتبعها مثل ما وراء النهر وبلاد الختل ومنطقة الغور (9) وغيرها من الاماكن التي كانت ميدانا لعمليات الجيش العربي في تلك المناطق الايرانية.

بقي ان نعرف ولو بصورة مجملة طبيعة هذه الارض التي كان يجوس خلالها الجيش العربي وان نعرف مدى اتساع رقعتها، وما كانت تشتمل عليه من النواحي. ان ارض خراسان منطقة شاسعة مترامية الاطراف تتلخمها وتتخللها المفاوز (10) والسهول والجبال، وتشقها انهار متعددة، وفي بعضها تقع اهم المدن سواء كان ذلك دون النهر او وراءه، فمن مفاوز خراسان التي تتاخمها ويقع جزء منها داخل عملها، المفازة الكبرى، والمفازة الغزية التي ذكرها ابن حوقل وجعلها غربي خراسان، ومفازة فارس (11). وهناك مفازة داخلة في عمل خراسان وتتصل بزم وآمل (12) ولعلها المفازة التي سماها الطبري بمفازة آمل وذكر ان عبد الرحمن بن نعيم هو اول من اتخذ بها الخيام (13) . وتوجد ايضا مفازة اخرى لمرو تسمى مفازة مرو (14).

اما المناطق الجبلية فمن اهمها منطقة الختل وبلاد الغور وذكر بعض المحدثين ان هذه المنطقة الجبلية تمتد من هرات حتى الباميان كما يوجد جبل في شمال هرات يقع منها على بعد فرسخين اجرد ليس به محتطب ولا

---

(8) بلدان الخلافة الشرقية مطبعة الرابطة بغداد 1954 ص 423 .
(9) المسالك والممالك للاصطخرى . تحقيق الدكتور **محمد جابر عبد العال** الحيينى 1961 نشر دار القلم ص 145 .
(10) ابن حوقل ص 287 .
(11) نفس المصدر ص 308 ، 309 .
(12) نفس المصدر ص 329 ، 330 .
(13) الطبرى 5/383 س 15 .
(14) ابن حوقل ص 319 س 5 .

مرعى (15) .. وذكر الاصطخري ان الختل كلها جبال ماعدا الوخش وان بلاد الغور جبال كلها (16). كما ان الطالقان بلاد واقعة في جبال تتصل بجبال الجوزجان.

اما المدن الواقعة على رؤوس الجبال فقد كان منها مدينة الباميان (17). وفي خراسان توجد سهول وارض منبسطة وكثير من مدنها المهمة واقعة في مناطق سهلية مثل مرو الشاهجان فانها مدينة بعيدة عن الجبال وارضها سبخة كثيرة الرمال (18) وكذلك هرات (19) . اما بلخ فانها في مستوى من الارض واقرب جبل اليها هو جبل الكو (20) .

واما انهار خراسان فكثيرة ولكنها متفاوتة في الكبر والأهمية فمن اهمها ، نهر مرغاب وعليه تقع مدينتان احداهما كانت قصبة خراسان في اغلب العصر الأموي وهي «مرو الشاهجان» ، والثانية مرو الروذ (21) ، ثم نهر هرات او «هرى رود» وهو النهر الذي تقع عليه مدينة هرات ويمر ما فضل منه في مدينة «سرخس» الواقعة بين «نيسابور ومرو» غير ان ماءه قليل لايدوم (22) ، اما نهر جيحون فهو النهر الاعظم ، وتسمى البلاد الواقعة بعده ببلاد ما وراء النهر ويذكر المقدسي ان هذا النهر يشق الاقليم ويفيض في بحيرة خوارزم وعليه تقع كور مهمة ، ومدن عديدة ، ومنه تتفرع انهار كثيرة (23) . ويذكر ابن حوقل ان الأنهار تجتمع في حدود الختل فيكون منها هذا النهر الاعظم (24) ،

---

(15) الاصطخرى ص 150 ، 156 ، 157 .
(16) نفس المصدر ص 56 ، 57 .
(17) ابن حوقل 321 .
(18) ابن حوقل ص 319 .
(19) نفس المصدر 319 .
(20) بلدان الخلافة الشرقية ص 462 .
(21) ابن حوقل ص 321 .
(22) نفس المصدر 323 .
(23) المقدسى 284 .
(24) ابن حوقل 384 .

ويقول ان هناك نهرين تقع بينهما منطقة الختل هما نهر وخشاب ونهر باذ خشان (25) .

واذا كانت خراسان في القديم هذا شانها فمما لا شك فيه انها كانت بلادا خصبة، يعيش اهلها او الكثيرمنهم على جانب من النعمة والثراء، وكثيرا ما تشير كتب المسالك الى خصب هذه المنطقة (26). فعلى الرغم من المفاوز التي تتخللها فانك تجد وصفا رائعا للمدن الواقعة على الأنهر ورساتيقها المحيطةبها لما كانت عليه من البساتين والحدائق واما فيها من الفواكه والثمار (27).

اما الطقس هناك ، لاتساع هذه المنطقة واختلاف طبيعتها فانه يختلف باختلاف مناطقها الجغرافية ويتغير بتغير فصول السنة بها ففي بعض النواحي الجوحار شديد الحر صيفا، وفي بعضها الأخر الطقس بارد برودة شديدة حتى ليتجمد الماء معها(28). وكثيرا ما ينزل بها البرد وتغطيها الثلوج (29) على نحو ما يصور الشعراء ذلك عن ترمذ (30).

وكانت خراسان آهلة بالسكان، ومن اشهر مدنها الواقعة فيما دون النهر، مدينة «مرو» وهي المدينة التي اتخذها العرب الفاتحون عاصمة لهم، وقاعدة حربية لفتح ما يليها من النواحي، وقد بنوا فيها ثلاثة مساجد للجمعات (31). وكانت تعرف عندهم باسم «مرو الشاهجان» وهي مدينة قديمة ازلية البناء وبناؤها من طين (32) . ومن المدن المهمة مدينة هرات ولها اهمية خاصة:

---

(25) نفس المصدر ص 326 .
(26) ابن حوقل ص 336 فما بعدها والاصطخرى ص 156 ، 157 .
(27) ابن حوقل ص 315 ، 321 فما بعدها .
(28) معجم البلدان 3/187 ، 188 .
(29) الطبرى فى حديثه عن رسول ابن هبيرة 5/479 وابن حوقل ص 329 .
(30) معجم البلدان 2/382 .
(31) الاصطخرى ص 147 ، 149 .
(32) ابن حوقل ص 314 .

اذ انها تقع جنوبي خراسان في منطقة متصلة بفارس وسجستان وكابل. وكانت مأوى للثائرين (33). ثم مدينة مرو الروذ ونيسابور وبلخ وهي تشبه مرو في موقعها، ومن حيث البناء اذ ان كلامنهما بناؤها من طين (34). اما ما وراء النهر فمن اهمها سمرقند ثم بخارى، ويظهر ان سمرقند كانت اهم من بخارى في بادىء الامر (35).

ومن الملاحظ ان كل المدن المتقدمة، مدن قديمة البناء لم يزد العرب عند افتتاحهم لها على ان استقروا بها دون ان ينشئوا الى جوارها مدنا جديدة ومن المحتمل انهم وسعوا في بعض تلك المدن بعد ان نزلوها . ومثل هذا الاحتمال غير مستبعد، كما لا يستبعد ان يكون العرب قد جددوا بعضها ، لأن أسد بن عبد الله القسري لما جاء خراسان اتخذ «بلخ» قاعدة لفتوحاته بعد ان اعاد بناءها وكان مقام العرب قبل ذلك في «الباروقان». وعلى ذلك كانت كل المدن التي اقام بها العرب موجودة من قبلهم ولم يؤثر عنهم انهم اسسوا في خراسان مدينة جديدة طوال الحكم الأموي.

اما من ناحية المسالك التي تربط مدن خراسان بعضها ببعض فان اهمها الطريق الأعظم الذي كان مدخله الى خراسان من اقليم قومس. والواقع ان هناك طريقين احدهما شمالي وهو الاطول ويسمونه طريق القوافل وثانيهما جنوبي قصير وهو طريق البريد، وكلاهما ينتهي الى نيسابور(36). ومن نيسابور يخرج الطريق لينشطر بعد ذلك الى طريق شمالي، وجنوبي شرقي . فالجنوبي الشرقي ينزل الى هرات (37). اما الشمالي فانه ينعطف من نيسابور نحو اليسار ذاهبا الى مرو الكبرى بعد ان يمر بسرخس ثم يتجه الى ضفة النهر ليقع الى آمل على شط نهر جيحون (38). وهناك طريق يخرج من هرات

---

(33) استيطان العرب فى خراسان للدكتور أحمد صالح العلى ص 50 .
(34) نفس المصدر ص 325 .
(35) الطبرى 5/268 .
(36) ابن حوقل ص 333 وبلدان الخلافة الشرقية ص 433 .
(37) الاعلاق النفيسة لابن رستة ط ليدن 1891 ص 172 .
(38) ابن حوقل ص 331 .

ويتجه نحو الجنوب ليدخل سجستان ويتصل بزرنج (39). اما بالنسبة لمرو الرود فان لها طريقين احدهما يربطها بالشاش وبلاد الترك ، وثانيهما يتجه الى منطقة طخارستان ويربط مرو الروذ ببخارى(40) . ولبخارى وسمرقند طريقان يتصلان ببلخ من جهة كندك (41).

ويجب ان نحتاط لما جاء في كتب المسالك عن بلاد خراسان لأن هؤلاء الجغرافيين الذين وصفوها انما عاشوا في العصر العباسي الذي تغيرت فيه حدود خراسان تغيرا كبيرا. واجلى مظهر لهذا التغير ما نراه من تعارض آرائهم في الجهات التي كانت تشملها والاعمال التي تتبعها.

اما سكان خراسان فمن الشائع عند الجغرافيين العرب ان النازلين منهم فيما وراء النهر كانوا يسمون بالهياطلة نسبة الى هيطل بن عالم بن سام. واما الذين يسكنون فيما دون هذا النهر فهم عندهم اهل خراسان . وخراسان نسبة الى «خراسان» شقيق هيطل (42). وهم بذلك يجعلون بين سكان خراسان وبين الهياطلة صلة قرابة وجوار.

هذا هو راي القدامى من الجغرافيين العرب . اما ما يراه المحدثون فقد ذكروا ان نهر جيحون كان يعتبر حدا فاصلا بين اقوام ينطقون بالفارسية وبين آخرين يتكامون التركية. ومعنى هذا ان ذلك النهر كان الحد الفاصل بين إيران وتوران وكان العرب يطلقون كلمة «الهيطل»، بغير دقة على جميع الشعوب والبلاد التورانية الواقعة فيما وراء النهر (43). و لما جاء العرب الى خراسان كان الترك كما يقول فلهزون هم الشعب الحاكم فيما وراء النهر وفي طخارستان غير ان العرب الفاتحين استطاعوا قهرهم والتغلب عليهم (44).

(39) ابن رسته ص 173 ، 174 .
(40) ابن خرداذبه ص 25 .
(41) ابن حوقل ص 400 .
(42) معجم البلدان 407/3 والمقدسى ص 261 .
(43) بلاد الخلافة الشرقية ص 476 .
(44) تاريخ الدولة العربية ص 413 .

2) الفتـح والاستقـرار

اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الذي فتحت فيه خراسان كما اختلفوا في اسم القائد الذي تزعم هذا الفتح. فياقوت يذكر ان فتحها كان على يد الأحنف ابن قيس، في خلافة عمر بن الخطاب سنة 18 هـ وهو يذكر بمناسبة هذا الفتح، أبياتا لبعض الشعراء. ثم يشير الى ان خراسان انتقضت على الحكم العربي في خلافة عثمان، فبعث اليها ايامئذ عبد الله بن عامر فأخضعها مرّة أخرى. وفي ياقوت شعر يتصل بهذا الانتقاض (45). ويذهب البلاذري الى ان بداية الفتح الحقيقي لخراسان كان في سنة ثمان وعشرين 28 اوسنة تسع وعشرين 29 من الهجرة (46).

واما اليعقوبي فانه يتفق مع البلاذري في ان الفتح انما كان على عهد عثمان لكنه يختلف في تحديد التاريخ (47)، على انه من الممكن التوفيق بين هذه الروايات اذا علمنا ان البلاذري يذكر ان بداية الفتح كانت على عهد عمر ابن الخطاب وذلك حين وجه أبا موسى الاشعري، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فبلغ «الطبسين» وقدم على اثر هذه الحملة قوم من اهل الطبسين، فصالحوا عمر بن الخطاب، وبذلك يمكن القول بان بداية الفتح كانت في خلافة عمر، اما الفتح الحقيقي فانه في عهد عثمان. اذن خرج عبدالله بن عامر والي البصرة الى خراسان بأمر من عثمان وجعل على مقدمة جيشه الاحنف ابن قيس او عبدالله بن خازم فأقر صلح الطبسين ثم وجه ابن عامر، الاحنف ابن قيس او «امير» ابن احمر اليشكري الى قوهستان ففتحت له ابوابها (48).

وتوجه ابن عامر الى نيسابور فكان الصلح بينه وبينهم. اما ابن خازم فانه سار الى سرخس فاستجابت له (49). وجاء عظيم هرات الى ابن عامر بعد ان سمع

---

(45) معجم البلدان 3/409 ، 410 .
(46) فتوح البلدان 3/499 .
(47) اليعقوبي ص 57 .
(48) فتوح البلدان 3/499 .
(49) نفس المصدر 3/501 .

بتوجه اوس بن ثعلبة او خليد بن عبدالله الحنفي نحوها بجيشه فصالحه ابن عامر على هرات كما طالب ايضا مرزبان مرو الشاهجان الصلح فارسل اليه ابن عامر من صالحه (50).

ثم وجه بعد ذلك ابن عامر، الاحنف بن قيس التميمي الى طخارستان فانتهى الى الموضع الذي سمي باسم «قصر احنف» وهو حصن تابع لمرو الروذ فصالحه اهله ثم تقدم بعد ذلك الى مرو نفسها فلقي من اهلها اول امره مقاومة عنيفة ولكن مرزبانها اضطر اخيرا الى المصالحة (51). ويظهر ان من اسلم من الاعاجم في ذلك الوقت كان يساعد جيش العرب في فتح خراسان اذ تذكر الرواية القائلة بان اهل طخارستان استجاشوا من حولهم من الأعاجم لقتال الأحنف ان عدد جيشه كان يبلغ خمسة آلاف ، اربعة آلاف من العرب والخمس الباقي من مسلمي الأعاجم (52). ولما هزم الأحنف الذين اجتمعوا له بمرو الروذ وجه الاقرع بن حابس في بعث يتتبع الفيل الهارب فأدركهم وهزمهم وفتح الجوزجان عنوة. وبعثت هذه الوقعة قريحة ابن الغريزة على نظم قصيدة نونية طويلة يرثي فيها اصحابه الذين استشهدوا في تلك الموقعة ، ثم سار الأحنف متمما فتح بقية المناطق في خراسان فاتى «الطالقان» فصالحه اهلها كما صالحه هو او «امير» بن احمر اليشكري، اهل الفارياب (53). واخيرا ذهب الأحنف الى بلخ فطلب منه اهلها الصلح فاجابهم اليه. وخرج بعدها يريد خوارزم ولكنها اعجزته فتركها وقفل راجعا.

ولم يعبر ابن عامر الى منطقة ما وراء النهر وانما اهلها هم الذين جاؤوه، فصالحوه (54). وبعد ان تم لابن عامر ما اراده من فتح خراسان، احرم من نيسابور عند رجوعه شكرا للهعلى ما فتح على يديه واستخلف على خراسان

(50) المصدر نفسه 3/ 501 .
(51) نفس المصدر 3/ 502 .
(52) نفس المصدر 3/ 503 .
(53) المصدر نفسه 3/ 504 .
(54) نفس المصدر 3/ 504 .

قيس بن الهيثم (55) . وبذلك تدخل خراسان عصر الولاية والتبعية للدولـة العـربيـة.

كان من الطبيعي بعد ان افتتح العرب معظم مناطق خراسان ان ياتي الدور الثاني وهو دور التوطن والاستقرار، واستيطان العرب لخراسان ضرورة لا محيد عنها بالنسبة للخلافة الأموية اولا لبعد هذه الولاية عن قاب الدولة، وثانيا لأن العرب كانوا ينفرون من التجمير في جبهات القتال (56) فهم حتى في خراسان كانوا يغزون فاذا قدم الشتاء تركوا هنالك حاميات وقفلوا الى مواطنهم الأصليـة، وبذلك نجد تلك النواحي الخاضعة للحكم العربي فرصة الانتقاض من جديد . فما الحل بالنسبة للخلافة الأموية إذن ؟

لم يبق لدى الخلافة الا وسيلة واحدة ان تنقل مجموعات كبيرة من العرب الى خراسان ، ويبدو ان هذه الهجرة كانت مبكرة ولعلها بدأت مع بداية الفتح العربي، اما بداية التهجير فقد ظهرت بشكل منظـم على يـد زيـاد ابن ابـيه ففـي سنـة45 تولى زياد البصرة فجعل على خـراسـان ثـلاثــة ولاة كـان مـن بيـن هـؤلاء الثلاثــة « اميــر » بـن احمـر اليشكري ومنطقة عمله مرو وذكر البلاذري ان اميرا هذا، اول من اسكن العرب مدينة مرو (57). ثم تدخل سنة 51 وفيها ولي خراسان الربيع بن زياد الحارث وفي ايامه تلقت خراسان اكبر هجرة جاءتها من الكوفة والبصرة وتقدر بخمسين الفا ومعهم عيالهم فاسكنهم الربيع كما ذكر البلاذري دون النهر (58). ثم تتابعت الهجرات العربية الى هذه المنطقة . ومما لاريب فيه ان هذه الهجرات لم تتوقف طوال العصر الأموي سواء كانت جماعات او افرادا (59). وظلت البعوث مستمرة حتى اواخر الدولة الأموية ولم يكن

(55) الكامل لابن الاثير3/ 61 ط اولى المطبعة الازهرية المصرية سنة 1301 هـ
(56) يظهر هذا من كـلام عبد الله فى حث الجنـد على خلع الحجاج بسجستان انظر الطبرى 5/ 147 .
(57) فتوح البلدان 3/ 506 .
(58) نفس المصدر 3/ 507 .
(59) استيطان العرب فى خراسان ص 38 ، 40 .

مصدر هذه البعوث مقصورا على مصر دون آخر. فقد كانت تاتي من البصرة ومن الكوفة ثم من الشام نفسها ايام ولاية الحجاج (60). في عهد عبد الملك ابن مروان (61)، وكذلك في عهد هشام في ولاية الجنيد (62). ومن يدري فلعل بعض الولاة كقتيبة جعل توطين العرب بخراسان جزءا من سياسته القائمة هناك اذ نراه ينزل العرب في تلك المناطق القاصية فيما وراء النهر حتى اسكنهم الشاش» وارض «فرغانة» (63) وكانت هناك مناطق ومدن يجتمع فيها العرب مثل مرو (64) التى كانت معسكر المسلمين اول امرهم ومنها استقامت لهم فارس (65). وقبلها ايضا مدينة بلخ والبروقان فانهما من المناطق التي كثر فيها العنصر العربي كما تشهد بذلك موقعة البروقان (66). ونزل العرب ايضا منطقة ما وراء النهر ويمكن القول بان اهم مدينة استقر بها العرب في هذه الناحية مدينة سمرقند ويقال ان قتيبة اشترط على اهلها في صلحه لهم ان يخلوا له المدينة فلا يكون بها مقاتل، وان يدخلها ويصلي في مسجد يبنونه له بها ثم يخرج عنهم ولكنه عاد فاخبرهم بانه غير خارج منها (67). وكانت مدينة هرات مركزا لربيعة وهناك بعض الحصون والقرى مثل قلعة «التابوشكان» كانت لبني برزة بن ثعلب (68). وقصر الباهلي كان للباهليين كما يبدو من نسبه (69)، وكانت قرية سفيذنج وقرية فنين لخزاعة (70).

هذه هي المناطق التي استوطنها العرب، وليس معنى ذلك ان بقية الجهات والنواحي ظلت خالية منهم، اذ الراجح انهم كانوا ينتشرون في عامة المدن

---

(60) الطبرى 5/263 .
(61) نفس المصدر 5/132 .
(62) نفس المصدر 5/417، 418 .
(63) استيطان العرب فى خراسان ص 65 وفتوح البلدان 3/529 .
(64) استيطان العرب فى خراسان ص 70 .
(65) ابن حوقل ص 316 .
(66) الطبرى 5/380 .
(67) الطبرى 5/251 .
(68) نفس المصدر 5/440 .
(69) نفس المصدر 5/352 .
(70) نفس المصدر 6/24، 31 س 20ـ21 .

الخراسانية وقراها ولكن تجمعاتهم انما كانت بتلك المدن والمراكز التي سميناها.

ويظهر ان العرب كانوا في اول امرهم مترددين في كيفية ادارة هذه الولاية النائية، فبعد ان فتح ابن عامر خراسان استخلف عليها قيس بن الهيثم (71)، وفي بعض الروايات انه جعل عليها ثلاثة ولاة هم : الاحنف بن قيس وحاتم بن النعمان الباهلي، وقيس بن الهيثم (72) فلم يكن اذن هناك فرد واحد يتصرف في الولاية كيف شاء وانما هم ثلاثة كل له سلطة يصرفها في حدود عمله . وحين ضمت خراسان الى زياد نراه يولي عليها اربعة من الولاة : هم امير بن احمر اليشكري وحدود عمله مرو، وخليد ابن عبد الله الحنفي وسلطانه في ابر شهر ، وقيس بن الهيثم وعمله الطالقان والفارياب، ورابعهم نافع بن خالد الطاحي «من الازد» والمناطق التي تتبع حكمه هرات وباذغيس وبوشنج وقادس من انواران (73). ولم يستمر زياد في توزيع خراسان على هذا النحو، فقد رأى ان يجعلها في يد وال واحد يتصرف كيفما يشاء ووفق ما يرتئيه. ومن المظنون ان النظام الأول الذي اتبعه زياد ومن قبله ابن عامر كان نظاما ساسانيا قديما اخذ به زياد زمنا طويلا، الا انه لم يأخذ به جملة وتفصيلا اذ ان سجستان لم تكن تابعة في عهده لخراسان، على حين نراها في العصر الساساني ربعا من ارباعها (74).

هذا هو نظام الحكم في خراسان وكانت تسير اولا على النظام الساساني ثم جعلت ولاية واحدة. وقد سار تنظيم العرب هناك على غرار التنظيم القائم بين القبائل العربية في ولاية البصرة وهو نظام الاخماس، ويرجع السبب في هذا الاقتفاء الى ان القاعدة الأساسية التي خرج منها العرب لفتح خراسان هي ولاية البصرة. منها خرجت الجيوش الفاتحة والى واليها بعد ذلك ضمت، عملا

(71) البلاذرى 3/504 .
(72) نفس المصدر 3/505 .
(73) نفس المصدر 3/506 .
(74) ابن خرداذبة ص 18 .

بتقاليد الحكم السائد عند العرب في ذلك الوقت، من ان مكافأة القائد الفاتح هي توليته على المنطقة التي تم فتحها على يديه او ضمها الى عمله القديم (75). ولما كان فتح خراسان من جهة البصرة وعلى يد واليها عبد الله بن عامر فقد ضمت اليه وبالتالي اصبحت إمارة تابعة لولاية البصرة واخذت خراسان بنظام الأخماس الذي كان معروفا بها(76)، يشهد لذلك ما قاله الحضين (77) من انه كان بخراسان المجموعات او الكتلات الخمس تميم، والأزد، وبكر، وعبدقيس، واهل العالية (78). ومن الراجح ان هذا التنظيم كان يتبعه وجود وحدات اخرى خارجة عن هذه المجموعات الخمس مثل الموالي واهل الكوفة (79). ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة اهل الشام وعدها الدكتور احمد صالح العلي ثانية اثنتين من الوحدات الخارجة عن المجموعات العربية (80).

3) الحــروب الخارجية فى خراسان

ظلت الحروب الخارجية في خراسان مهاجمة ومدافعة منذ ان فتحها العرب وبدأوا يستقرون فيها، ولم تسكن هذه الحروب، حروب الثغور، ولم يهدأ لها أوار طوال عصر بني امية. ومعروف انه لم يكد يستقر المقام بالوالي الجديد الذي خلفه عبدالله بن عامر هناك حتى جمع «قارن» اه الجموع وحل ابن خازم محل هذا الوالي بحيلة او بأخرى واستطاع ان يهزمه (81). غير ان العدو لم يخضع وظل انتفاض المدن والنواحي سنة جارية لا تكاد تنقطع ، لا سيما حين ينغمس العرب في الحروب الداخلية فترى الترك وهم اعدى اعداء العرب ، يغتنمون فرصة انشغال القبائل المتنازعة ويشنون عليهم

---

(75) العصر الاسلامى تأليف الدكتور شوقى ضيف دار المعارف سنة 1963 ص 262 .
(76) تاريخ الدولة العربية ص 393 واستيطان العرب فى خراسان ص 40 .
(77) الطبرى 5/276 ، 277 .
(78) نفس المصدر 5/277 .
(79) نفس المصدر 5/277 .
(80) استيطان العرب فى خراسان ص 58 .
(81) فتوح البلدان 3/505 .

غارات السلب والنهب حتى وصلوا في بعض غاراتهم الى نيسابور (82).

وبعد ان سيطر العرب على اغلب مناطق خراسان وثبتوا بها سلطانهم اتجهت انظارهم الى ما وراء النهر. فلا تكاد تجد واليا الا عبر النهر وغزا ما وراءه، ولعل الحكم بن عمر الغفاري كان من اوائل الولاة الذين عبروا هذا النهر ولكنه لم يفتح شيئا (83)، على عكس الربيع الذي استطاع ان يفتح بلخ ويخضع قوهستان عنوة ويرجع غانما (84). ولما قدم سعيد بن عثمان واليا على خراسان قطع النهر الى سمرقند فصالحه اهلها بعد قتال عنيف (85). اما أمية بن عبدالله فانه قطع النهر فلم يصنع شيئا وعبر بعد ذلك نهر بلخ فحوصر ثم نجا وهجاه بعضهم (86). ولما جاء المهلب بن ابي صفرة اتبع سنة سابقيه فقطع النهر وحاصر «كس» فلم يقدر على فتحها وصالحوه (87).

وخلفه ابنه يزيد ففتح قلعة نيزك ونوه بانتصاره كعب الاشقري (88). واعقبه اخوه المفضل ففتح «باذغيس» «وشومان» و «واخرون» ونال بذلك ثناء بعض شعراء خراسان (89) ولكن الحجاج عزل المهالبة عن خراسان وجعل عليها قتيبة بن مسلم الباهلي. واذا كان قتيبة لم يحدث على يديه تغيير اساسي في الوضع الذي كانت عليه الولاية (90) فانه استطاع بكفاءته العسكرية وحنكته ان يبسط نفوذ العرب فيما وراء النهر وان يثبت في نواحيه قواعد دائمة تقوم في وجه العدو درعا واقية. ومن المؤكد ان نشاط العرب العسكري بلغ ذروته على عهده، وحين عبر النهر سنة 86هـ استقبله الملوك بالهدايا

(82) نفس المصدر 3/511 .
(83) الطبرى 4/213 س 18 .
(84) نفس المصدر 4/213 .
(85) فتوح البلدان 3/508 .
(86) الطبرى 5/129 ، 133 فما بعدها .
(87) الطبرى 5/160 .
(88) الطبرى 5/186 .
(89) نفس المصدر 5/194 .
(90) تاريخ الدولة العربية ص 413 .

وصالحه «غشلستان» على فدية (91). وفي السنة التالية غزا «بيكند» وفي هذه الغزوة انقطعت اخباره عن العراق وفيها دعا له الناس في المساجد وانتهت هذه الغزوة بفتح «بيكند» عنوة (92) . ورجع الى مرو. وفي الربيع عبر النهر مرة ثانية فاتى «رامثنه» و «نومشكث» فصالحوه ، ثم رجع ولكن الترك لحقوا بأخيه عبد الرحمن وهو منه على ميل فنشب القتال ورجع قتيبة اليه وكان انتصار المسلمين. وابلى «نيزك» في هذه الواقعة بلاء حسنا (93).

وجاء كتاب من الحجاج الى قتيبة وهو بالفارياب يطلب منه ان يرد «وردان» فذهب اليها في سنة 89 هـ وبعد ان قطع النهر قاتله «السغد» واهل «كس ونسف» فظفر بهم. وحاول قتيبة، كما تذكر بعض الروايات «غزو وردان خوذاه» ملك بخارى فلم يظفر به وبلغ ذلك الحجاج فطلب منه تصميمها ثم ارشده الى المكان الذي يهاجم منه المدينة فعاد اليها وظفر باهلها سنة 90 هـ (94) ، ويرجع الفضل في هذا الفتح الى بني تميم وعلى رأسهم وكيع بن بن ابي سود (95)، ولكن قتيبة سلب وكيعا هذا الشرف ونسبه الى اخيه عبد الرحمن. وفي هذه السنة غدر نيزك بقتيبة اذ دخل «شعب خلم» وكاتب الملوك في خلعه فأجابوه وبلغ ذلك قتيبة فقدم اخاه الى البروقان (96). وفي اواخر الشتاء خرج اليهم فأوقع بالطالقان (97) ثم اتى مرو الروذ ففر منها مرزبانها، واسترضاه ملك الفارياب فعفا عنه وهرب منه صاحب الجوزجان وخرج له اهلها سامعين مطيعين (98). واخذ قتيبة يتعقب نيزك حتى لقيه فحاصره واستسلم له صاغرا (99). وسار قتيبة الى ملك شومان وكان قد منع فدية

(91) الطبرى 5/215 .
(92) نفس المصدر 5/219 .
(93) نفس المصدر 5/223 .
(94) نفس المصدر 5/225 ، 227 .
(95) نفس المصدر 5/227 ، 228 .
(96) نفس المصدر 5/229 .
(97) نفس المصدر 5/230 .
(98) نفس المصدر 5/235 فما بعدها .
(99) نفس المصدر 5/238 ، 239 .

الصلح فقتله وفتح قلعته عنوة وتوجه الى فرياب وكانت قد نفضت يدها من طاعته فحرقها (100). وفي سنة 93هـ اغاث قتيبة ملك خوارزم ضد اخيه ودخل مدينة فيل وكان لهذا النصر صداه عند شعراء خراسان لا سيما بعد ان أضاف اليه نصرا آخر على اهل السغد وفتحت سمرقند له ابوابها (101). وتدخل سنة 94 ونرى قتيبة يفرض على اهل بخارى وكس ونسف وخوارزم، عشرين الف مقاتل غزا بهم الشاش وفرغانة وانتصر على «خجنده» انتصارا حاسما وفتح بعد ذلك كاشان ورجع الى مرو (102). وبينما كان يغزو في سنة 95هـ بالشاش او بكشماهن وافاه الخبر بموت الحجاج فقفل راجعا حزينا (103). وفي السنة التي تلتها جاءه النبأ بموت الوليد بن عبد الملك فأخذ عياله وسار الى فرغانة وفيها قتل (104). وخلف قتيبة على خراسان يزيد بن المهلب، وقد اناخ في سنة 98هـ بجيشه على كورصول (بالبحيرة) ففتحها وسار بعدها الى طبرستان، ولكن النصر لم يحالفه واضطر ان يعود للقضاء على الثورة التي اشتعلت وراءه في جرجان (105)، وولي بعده الجراح بن عبدالله الحكمي فغزا الختل (106). ثم عزل وجاء بعده عبد الرحمن ابن نعيم الغامدي، وكان ضعيفا فلم يلبث ان عزل. وفي سنة 102 حدثت وقعة قصر الباهلي التي انتهت بجلاء العرب عن هذا القصر (107). وحدثت مناوشات بين سعيد خذينة والترك (108). وعبر الى ما وراء النهر الا انه لم يتجاوز سمرقند (109).

وخلفه الحرشي ونشط في حرب الترك (110)، ويذكر انه غزا السغد

---

(100) نفس المصدر 5/242 س 4 .
(101) نفس المصدر 5/247 فما بعدها .
(102) نفس المصدر 5/257 ، 258 .
(103) نفس المصدر 5/263 .
(104) نفس المصدر 5/268 ، 281 .
(105) نفس المصدر 5/294 ، 295 .
(106) نفس المصدر 5/314 .
(107) نفس المصدر 5/354 .
(108) نفس المصدر 5/355 .
(109) البلاذرى 3/524 ، 525 .
(110) الطبرى 5/360 ، 361 .

وعصف بهم عصفا سنة 104 (111). وفي هذه السنة غزا مسلم بن سعيد الترك فلم يصنع شيئا (112). وولى خالد بن عبد الله القسري على خراسان اخاه اسدا فعبر في سنة 108هـ النهر غير ان النصر لم يحالفه (113). وجاء بعده اشرس بن عبدالله السلمي القيسي وقد عبر النهر متوجها الى سمرقند افساك الحصار عنها بعد ان اناخ عليها خاقان الترك ومعه اهل السغد، وبعد حروب مريرة قتل فيها ثابت قطنة الشاعر انتصر المسلمون (114). وتوجه الخاقان بعدها الى كمرجه فأعجزته (115). وارتد اهل كردر وارجعوا الى الطاعة (116). وعزل اشرس وتولى بعده الجنيد بن عبد الرحمن المزني وكان متعصبا لا يستعمل الا مضريا (117). وخرج غازيا سنة 112هـ وجاءه استصراخ سورة بن الحر الثقفي واليه على سمرقند، فأسرع الى نجدته وفي الطريق اعترضه خاقان الترك ودارت الحرب بين الفريقين وقتل من خيرة الفرسان العدد الكثير (118)، وكانت هذه الوقعة مثارا للالم والأسى في نفوس الشعراء فنظموا القصائد الطوال نعوا فيها قتلاهم وشهروا فيها بالجنيد وما جره على المسلمين من نكبات (119). ولم يلبث ان بعث الخليفة هشام : عاصم بن عبد الله الهلالي، واليا على خراسان وقد شغل عن الترك بفتنة الحارث بن سريج الذي كان يسعى لتحقيق مبادئه بحد السيف ورفع من اجل ذلك الراية السوداء.

والحق ان عهد قتيبة بخراسان كان يمثل اوج عزة العرب وقوتهم اذ كانوا المهاجمين الفاتحين، ايام حكمه اما بعده فان كفة الترك كثيرا ما رجحت كفة

(111) نفس المصدر 5/364 ، 365 .
(112) نفس المصدر 5/373 .
(113) نفس المصدر 5/390 .
(114) نفس المصدر 5/400 وما بعدها .
(115) نفس المصدر 5/405 .
(116) نفس المصدر 5/407 .
(117) نفس المصدر 5/409 س 14 .
(118) نفس المصدر 5/413 فما بعدها .
(119) نفس المصدر 5/422 فما بعدها .

العرب. وبدأ النذير في ايام الجنيد وكانما اعترى القوة العربية شيء من الوهن وظهر في عهد عاصم بوضوح التفكك الداخلي للولاية وما كان ينطوي فيه من التناقض الاجتماعي لا سيما بعد ان قامت ثورة الحارث بين سريج، ولئن استطاع اسد بن عبد الاله القسري في ولايته الثانية على خراسان ان يفتك بجيوش الترك وعلى راسهم خاقانهم (120). فان هذا الانتصار في الحقيقة كان اشبه باضاءة السراج قبل انطفائه فلم يكد يمضي اسد ويأتي بعده نصر بن سيار حتى تمزقت بين يديه خراسان ولم تجد حنكة نصر بن سيار ولا خبرته الطويلة. وعلى الرغم من انه حاول ان يقتفي سنة سابقيه فعبر النهر وغزا الترك واستطاع ان يقتل كورصول (121) غير ان هذا كله لم يجد شيئا فانفرط العقد وهو ينظر وحان حينه فمات شريدا .

4) الفتـــن الداخليـــة

كان فتح خراسان كما اسلفنا من جهة البصرة وكانت النتيجة ان رأينا اغلب العرب الذين استوطنوها من عرب العراق ، وحين انتقل العرب الى هنالك رحلوا ومعهم كل مقوماتهم القبلية . وبذلك اصبحت خراسان صورة طبق الأصل لما كانت عليه البصرة من عصبية وتناحر واثارة الفتن بل ان العداء الذي ظهرت بوادره بين القبائل في البصرة تجلى هناك في اعنف صورة واقساها ، حتى بعد ان خفت حدة هذا العداء بين عرب البصرة. لذلك لم تعرف خراسان عبر تاريخها الأموي الطويل هدوءا ولا استقرارا. فقد اصبح استعمال السلاح لهم عادة ، واذا لم يجدوا عدوا يقاتلونه قاتل بعضهم بعضا، وكثيرا ما كانوا يثورون على الولاة او يتعصبون من حولهم (122). وقد قتلوا قتيبة وهم يجلونه (123). ونابذوا نصر بن سيار فكانوا كالذين خربوا بيوتهم بايديهم . وعلى الرغم من ان خراسان كانت دار حرب ، والحروب الخارجية والداخلية

---

(120) نفس المصدر 5/455 .
(121) نفس المصدر 5/493 فما بعدها .
(122) نفس المصدر 4/421 .
(123) النقائض ص 358 .

تتعاقب عليها دون انقطاع . فان العرب فيما يبدو الفوا هذا الوطن الجديد واحبوه ولربما نسوا او تناسوا مواطنهم الأولى. وقد اصبحت هذه الحروب وتلك الفتن جزءا لا يتجزا من حياتهم. فالحروب الخارجية يفرضها الجهاد، والفتن الداخلية، والتناحر القبلي سنة متبعة فرضتها عليهم انظامتهم القبلية، وعلى الرغم من بعد خراسان عن قلب الدولة العربية فان اى تغيير يحدث في عاصمة الشام سرعان ما تترامى اصداؤه بها وظلاله. واول فتنة كبيرة بخراسان حدثت بعد موت يزيد بن معاوية، فبمجرد ان توفي واذاع احد الشعراء هذا الخبر المكتوم حتى انتقضت خراسان على سلم بن زياد (124) واضطر سلم الى الخروج منها بعد ان استخلف عليها المهلب وفي طريق رجوعه اعترضه سليمان بن مرثد بسرخس فلامه على تركها للمهلب فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان وجعل على هراة اوس بن ثعلبة وعند نيسابور اعترضه عبد الله بن خازم وتلومه هو الاخر، فولاه على خراسان (125).

غير ان قبيلة بكر وقفت في وجهه فقاتلهما، ونراه يعلن طاعته لابن الزبير حين دعا لنفسه بالخلافة (126)، وانتقض عليه كثيرون فحاربهم وكان النصر دائما حليفه وصفا له الجو غير انه لم يلبث ان تعكر بسبب تنكره لبني تميم ومنعهم من دخول هراة. وفي اثناء ذلك قتلوا ابنه محمدا فكان ذلك بمثابة اعلان الحرب بين الطرفين (127) ولم تلبث تميم ان تفرقت فرقا اتاحت لابن خازم ان يقضي عليها غير انها ظلت لا تدين لسلطانه (128). وتطورت الأمور فقضى عبد الملك على ابن الزبير، وحاول ان يضم ابن خازم الى صفوفه فكتب اليه ان يدخل في طاعته ويكفل له خراسان خالصة بخراجها سبع سنين وركب ابن خازم راسه ورفض هذا العرض(129). غير ان بكير بن وشاح واليه على مرو

---

(124) الطبرى 4/421 .
(125) نفس المصدر 4/421 .
(126) فتوح البلدان 3/511 .
(127) نفس المصدر 4/545 .
(128) نفس المصدر 4/547 .
(129) نفس المصدر 5/21 .

اعلن الثورة عليه وانضمت اليه تميم ، ونشبت الحرب بين الفريقين ودارت على ابن خازم الدوائر، وخر صريعا (130). ولم تهدأ الأمور بخراسان بمقتل ابن خازم فقد عادت القبائل الى التناحر حتى عشائر تميم كادت تتقاتل فيما بينها ولم يرض اهل الرأي في خراسان ان تدوم هذه الحال فبعثوا الى الخليفة يطلبون منه ان يعين عليهم واليا من قريش فبعث لهم أمية بن عبد الله (131). ولكن بكيرا ثار عليه وسفكت الدماء بسبب هذه الثورة وانتهت أخيرا بالصلح (132) غير ان بكيرا عاد الى التآمر من جديد وانتهى الأمر بمقتله (133).

ودب الخلاف من جديد بين عشائر تميم وتولى خراسان المهلب وابناؤه فهدأت الا مشاغبات قليلة ولكن المهالبة كانوا لها بالمرصاد (134). واصبحت خراسان خلال حكم المهالبة إمارة خالصة للازد ولكن الحجاج لم يلبث ان حولها من هذا الجانب إلى الجانب الاخر وهو جانب قيس وذلك حين عزل المفضل بن المهلب وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وعلى يد قتيبة جاء عهد جديد لم تعرف مثله خراسان من قبل، وهو بحق يمثل ذروة القوة والاستقرار بالنسبة للعرب، اذ نراهم يتركون احقادهم جانبا ويصبحون جيشا منضويا تحت راية الفتح التي لا تغلب. والذي لا ريب فيه ان اليد التي قبضت على عنان السلطة في خراسان كانت صارمة وصلبة وهي الى جانب ذلك امينة ومخلصة لولي أمرها تشبه الى حد كبير يد الحجاج، اذ استطاع قتيبة ان يثبت هيبته في نفوس اهل خراسان حتى اصبحت تفوق هيبة الحجاج (135). وبهذه الصرامة والكفاءة الشخصية بلغ بالعرب الفاتحين حدود الصين (136). ومكن للسيادة العربية ووسع رقعتها فيما وراء النهر واصبح ذكر اسمه كافيا ليثير الرعب في نفوس الترك وملوكهم ، غير ان رياح الفتنة عادت الى الهبوب

---

(130) نفس المصدر 5/22 .
(131) نفس المصدر 5/39 .
(132) الطبرى 5/131 .
(133) نفس المصدر 5/133 .
(134) نفس المصدر 5/175 فما بعدها .
(135) النقائض ص 358 .
(136) الطبرى 5/268 .

بعد وفاة الوليد بن عبد الملك فان قتيبة لم يكن مواليا للخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك اذ كان قد مالأ الوليد على خلعه من ولاية العهد (137) فلما ولي ظن انه لابد منتقم منه وحاول الثورة عليه ، غير ان تميما ثارت ضده وانتقضت عليه اليمن وقاد الجند ضده وكيع بن ابي سود التميمي وانتهى الأمر بمقتله (138). ومما لا ريب فيه ان قتل قتيبة ألحق ضررا جسيما بالسيادة العربية في خراسان اذ سرعان ماتحول العرب من دور المهاجمين الى دور المدافعين ولم يستطيعوا ان يحافظوا على كثير من المواقع التي تركها لهم قتيبة . ولعل ذلك مرجعه الى انعدام الكفاءة في بعض الولاة الذين اشرفوا بعد قتيبة على ادارة خراسان، ثم الى التردد الذي اتسمت به سياسة بني امية هنالك بين اللين الذي تجلّى على يد سعيد خذينة وبين الشدة التي ظهرت عند غيره ممن خلفوه، وكذلك العصبية التي التهبت نيرانها هناك، كما ان بعض القبائل اخذت تبطىء عن داعي الجهاد على نحو ما حدث في عهد مسلم بن سعيد سنة 106هـ حين قطع النهر غازيا فتباطأ الناس عنه فبعث لهم نصر بن سيار ولكن عمرو بن مسلم حال بينه وبين بلخ فذهب الى البروقان وارسل الى اهل بلخ يطلب منهم اللحاق بأميرهم ولكن ربيعة والأزد بدلامن ان يستجيبوا لدعوة نصر لحقوا بعمرو بن مسلم لقتال نصر ومن معه من تميم ومضر.

وهكذا انصرف العرب بدافع العصبية عن غزو العدو الى مقاتلة بعضهم بعضا ونال المتمردون جزاءهم على يد نصر بن سيار وسجل انتصاره في قصيدة له (139). وعلى هذا النحو اخذت الحروب والفتن الداخلية تضعف من شوكة العرب في خراسان وقوتهم وكلما تقدمنا في القرن الثاني للهجرة تفاقم الموقف وازداد سوءا وخاصة ان بعض الفتن اصطبغ بصبغة مذهبية على نحو ما هو معروف في فتنة ابن سريج ، وتداخلت في ذلك اسباب اقتصادية بسبب سوء معاملة العرب للموالي وما ضربوا عليهم من جزية على الرغم من إسلامهم.

---

(137) النقائض ص 354 .
(138) الطبرى 5/278 فما بعدها .
(139) الطبرى 5/379 و 381 .

ومنذ اوائل القرن الثاني نجد هذا التذمر من قبل الموالي وانضم اليهم كثيرون من عرب خراسان وخصوصا المرجئة من امثال الشاعر ثابت قطنة(140) . غير ان المسألة لم تتخذ شكل ثورة عنيفة إلا على يد الحارث بن سريج، اذ كانت ثورته ثورة عقيدية اقتصادية فهي من جهة تتصل بالارجاء، ومن جهة اخرى تتصل باضطهاد الموالي . ولقد تحالف الحارث مع الشيطان في سبيل اسقاط الحكم الأموي، ولسنا نبعد كثيرا عن الحقيقة اذا قلنا ان الحارث هو الممهد الحقيقي الى ابي مسلم .

بدأ الحارث حركته في ولاية عاصم سنة 116هـ حين خرج من النخذ (141). واستطاع بسرعة ان يسيطر على كثير من مدن خراسان ونواحيها المهمة وهدد مرو نفسها ، مما دعا عاصما الى التفكير في الانسحاب منها الى قومه بأبرشهر الاّ انّ الحارث انهزم ازاء مرو(142). ثم فشل بعد ذلك في حصار ترمذ، واخذت حاله تضعف لما قدم اسد بن عبد الله واخذ يفتك بجموعه وانصاره. ولم ينج حتى أصهاره من القتل والسبي (143)، غير ان الحارث فرّ الى الترك وحارب في صفوفهم ضدّ أسد بن عبد الله. (144).

وحين جاء نصر بن سيار الى خراسان وثارت الأزد عليه بزعامة الكرماني (145)، خاف نصر على نفسه من ان يجتمع عليه الترك والحارث من ناحية، والكرماني من ناحية اخرى، فبدأ يفكر في استقدامه وكان من قبل قد أجبر الشاش على اخراجه عنهم (146)، واستوثق الحارث لنفسه بأمان من الخليفة فأعطى له وقدم على نصر في مرو (147). وعلى الرغم من الحفاوة التي قابله

---

(140) نفس المصدر 5/398 ، 399 .
(141) نفس المصدر 5/428 .
(142) نفس المصدر 5/428 وما بعدها ص 431 س 7 .
(143) نفس المصدر 5/440 .
(144) نفس المصدر 5/452 .
(145) نفس المصدر 5/587 .
(146) نفس المصدر 5/494 .
(147) نفس المصدر 5/591 .

بها نصر ومن بعده زوجه ام تميم (148) فانه لم يرع له هذه اليد، اذ سرعان ما انضم الى الكرماني ضده ونشبت بينهما الحرب غير ان نصرا انتصرعليهما وقتل في ساحة المعركة رأس المرجئة في جيش الحارث وهو جهم بن صفوان (149).

اما الكرماني فيبدو أن لثورته اسبابا مختلفة، فهو زعيم الأزد ولا بد ان يثأر لبني المهلب ولا سيما اذا عرفنا انه خال ليزيد بن المهلب الذي قتله بنو امية (150). وظلت الحرب بينه وبين نصر سجالا (151). وتنبه العرب في غمار هذه الفتنة الى الخطر الذي جاء مع تجمع الشيعة العباسية تحت راية ابي مسلم الخراساني وكان اغلبهم من الأعاجم ، وبدأ العرب يسعون الى المصالحة ولكنها لم تتم بسبب ابن الحارث الذي اغتنم الفرصة واغتال الكرماني (152) فحل محله في النزاع شيبان بن سلمة الحروري وتوادع الفريقان (153)، وخشي ابو مسلم مغبة هذه الموادعة وأوعز الى ابن الكرماني بان نصرا هو الذي قتل اباه، فأوغر صدره وعادت الحرب بين الفريقين(154) وخلا الجو لأبي مسلم كي يستعد لضرب نصر ابن سيار الضربة القاضية(155).

وحركة الشيعة «شيعة بني العباس» في خراسان لم تكن بالحركة المرتجلة وانما كانت حركة سرية نظمت على اساس محكم، ونظرا الى انها سرية فان النصوص التارخية التي انتهت الينا يمكن القول بانها قليلة لا تجلو حقيقتها الكاملة الا ان الذي لاشك فيه هو انها كانت حركة محكمة التنظيم استفادت من الحركات الشيعية السابقة، وعملت على الأخذ بمزاياها، ان كانت لها

(148) نفس المصدر 5/605 .
(149) نفس المصدر 6/6 .
(150) نفس المصدر 5/175 س 8 وانظر 5/586 س 2 .
(151) نفس المصدر 6/36 .
(152) تاريخ الدولة العربية ص 464 ، 465 .
(153) نفس المصدر 6/33 ، 34 .
(154) نفس المصدر 6/44 .
(155) نفس المصدر 6/45 .

مزايا. وهي لم تعلن عن نفسها ولم ترفع راية الثورة الا بعد ان بلغت اشدها، ووثقت من احراز النصر. ولقد لبثت تعمل في الخفاء قرابة ثلاثين سنة. وفي الطبري ان بني العباس شرعوا في بث دعاتهم بخراسان سنة 100 للهجرة (156) وان بعض هؤلاء الدعاة كانوا يؤخذون المرة بعد الاخرى (157) ولكنهم مضوا في طريقهم وحتى النكسة التي جاءتهم على يد خداش فانها لم تقض عليهم وان اضعفتهم الا ان حركتهم لم تلبث ان استعادت نشاطها وقوتها. ومما ساعد على انتشارها خطأ بعض ولاة خراسان وسوء سياسة بعض الخلفاء ازاء التناحر القبلي (158). وكانت حركة بني العباس شبيهة بحركة الحارث بن سريج من حيث انها حاولت استيعاب كل الطوائف والفئات الناقمة على الحكم الأموي لا فرق في ذلك بين العجم والعرب وبين المعتدلين والمتطرفين (159). ولأمر ما اختار العباسيون ابا مسلم وهو مولى ليكون الرئيس المنفذ للثورة. ومن العوامل التي ساعدت على انجاحها ، بالاضافة الى ما سبق ان اشرنا اليه، الظرف الذي نشبت فيه فقد كانت الخلافة في ذلك الوقت ممزقة الاطراف تتجاذبها ايدي الطامعين ولم تكن تلك الفتن مقصورة على اطراف الدولة بل انها اشتعلت في الشام نفسها حتى عز على الدولة ان تتلافى تفاقم الامر في خراسان، وعبثا استصرخ نصر والي العراق والخليفة جميعا ان ينجداه بالجيوش فقد كانا مشغولين عنه بالفتن الكثيرة التي نشبت في الشام وشمالي العراق وبذلك ظلت ثورة الكرماني وابنه متقدة وامدّها ابو مسلم بكل ما استطاع من وقود الدسّ حتى اذا وجد الفرصة سانحة لاعلان الثورة اعلنها وسرعان ما اشتبك الجنود الموالون له وللدعوة العباسية بجيوش نصر وتغلب عليها وفتحت امام ابي مسلم مدن خراسان ، وولى نصر منهزما من

(156) الطبرى 5/316 .

(157) نفس المصدر 5/387 ، 389 ، 425 ، 440 .

(158) كان هذا لما باع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، خالد بن عبد الله القسرى ، الطبرى 5/541 .

(159) تاريخ الدولة العربية ص 489 .

مدينة الى مدينة حتى مات كمدا بصحراء همذان (160) . اما جيش ابي مسلم فقد استمر في زحفه بقيادة قحطبة وابنه الحسن حتى طهر خراسان كلها من الحكم الأموي واتجه الى العراق وما ان دخلت قواته الكوفة حتى ظهرت حكومة سرية لبني العباس (161). وسرعان ما هزم مروان وولى مدحورا الى مصر وتبعته الجنود العباسية وقتلته بأبو صير وبذلك انتهى عصر بني امية وطلع على العرب عصر جديد.

5) الحيــاة الاجتماعية والاقتصادية

سبق ان اشرنا الى ان العرب انتقلوا الى خراسان بشكل منظم وغير منظم فاستوطنوها ونسوا بها مواطنهم الأولى او قل تناسوها. ومن الواضح ان العرب لما نزحوا لم يعيشوا منعزلين عن الحياة الخارجية وسكان البلد الأصليين ولئن جاءوا الى خراسان، ونزلوا بها نزول الفاتحين المتغلبين الذين يعتزون شأن كل متغلب، بتقاليدهم وعاداتهم، فان هذا الاعتزاز لم يمنعهم من الاتصال بمن كانوا يجاورونهم نظرا لما تفرضه طبيعة الحياة هناك وما يستتبع ذلك من سبي الجواري والاماء كما حصل على يد قتيبة حين اصاب جارية من بنات يزدجرد فبعث بها الى الحجاج (162). على ان الموالي وهم الأعاجم بوجه عام كانوا قد شاركوا في فتح خراسان في وقت مبكر (163)، وحاربوا مع العرب جنبا الى جنب وقد ظهر هذا بصورة واضحة في ايام قتيبة، اذ ذكر انه كان يفرض على اهل المدن من الاعاجم الفروض فيخرجون معه غازين (164)، وهناك اشارات تفيد ان العرب تطبعوا الى حد ما بطباع اهل خراسان وقلدوهم في اكثر من جانب من جوانب حياتهم فتزوجوا الأعجميات وحاكوا المرازبة في اسلوب حياتهم (165). من ذلك لبسهم السراويل كما

---

(160) الطبري 6/64 .
(161) نفس المصدر 6/81 ، 82
(162) نفس المصدر 5/252 .
(163) فتوح البلدان 3/503 .
(164) الطبري 5/249 ، 250 س 10 .
(165) تاريخ الدولة العربية ص 468 .

يلبسها اهل خراسان (166)، واحتفالهم مع الاعاجم بعيد المهرجان وعيد النيروز وكانت تقدم فيهما للولاة الهدايا النفيسة على اختلاف انواعها واشكالها. وكانت اللغتان : الفارسية والتركية شائعتين في المجتمع الخراساني ويظهر ان بعض العرب كانوا يتكلمونها (167) يدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من ان صبيان العرب تغنوا بهزيمة اسد بن عبد الله القسري في شعر فارسي اللغة (168). ويقال ان الكرماني كان يتكلم الفارسية (169). ويتصل بذلك ان زوجة نصر بن سيار كانت تسمى المرزبانة (170). وولد لمسلم بن زياد ايام ولايته بخراسان ابن فسماه السغدي (171). كل ذلك معناه الاتصال الوثيق بين العرب وسكان خراسان ، وقد مربنا ان من العرب من كانوا يثورون على ولاة الدولة الأموية انتصارا لهم ودفعا لأذى الضرائب الثقيلة عنهم (172). ومن الراجح انه ماكاد ينقرض الجيل الأول الفاتح حتى نشأ من بين ابنائه جيل جديد يجري في عروقه دم امهاته الخراسانيات، ويظهر انه مع مضي الزمن اخذ عرب خراسان يسمون بالخراسانيين (173). ولا نبالغ اذا قلنا ان اللغة الخراسانية او الفارسية كانت شائعة بين الأجيال المتأخرة في هذا العصر الاموي وكل شيء يؤكد ان خراسان كانت هي الولاية الشرقية التي استحوذت من العرب على قلوبهم فقد كانت لها المنزلة الاولى عندهم بالقياس الى سجستان جارتها. ويبدو ان خراسان بدات تحوز هذه المكانة منذ عهد الحجاج اذ نرى المهلب بن ابي صفرة يؤثرها على سجستان (174) لانها كانت أوفر منها خيرات ، وكانت تعد دار الجهاد فقد ذلت لهم سجستان ورضخ رتبيل

---

(166) الطبرى 5/381 س 21 ، 409 س 18 .
(167) نفس المصدر 5/403 س 13 .
(168) نفس المصدر 5/389 .
(169) الاخبار الطوال للدينورى ص 352 .
(170) الطبرى 5/605 .
(171) فتوح البلدان 3/510 .
(172) نفس المصدر 3/526 .
(173) الطبرى 6/67 .
(174) الطبرى 5/135 .

لدفع الجزية (175). وكانوا يجمعون منها أموالا طائلة من ذلك ما يقال عن واليها عبد الرحمن بن زياد الذي عاد من ولايتها وفي حجره عشرون الف الف درهم (176). ويذكر ان العرب لما فتحوا بيكند وجدوا فيها من آنية الذهب والفضة مالم يصيبوا مثله من قبل مما جعلهم يتنافسون في حسن الهيئة والمغالاة بالسلاح (177). اما يزيد بن المهلب فان ما غنمه من البحيرة، وما قبضه من الأصبهبذ، صاحبها حين صالحه كان قدرا اعجز المحصين عن احصائه كما ذكر الطبري (178). ولا ينبغي ان نشك في كلام الطبري لأن خراسان كانت غنية حقا، ويظهر من عتاب نصر بن سيار ليونس بن عبد ربه انه اجاز له، اذا كان عازما على التوجه الى الشام، ان يحمل هو وآل بيته ما بدا لهم فحمل بعضهم الف الف واكثر من هذا القدر (179). اما ابو مسلم الخرساني فحين قدم الى خراسان كان ما اجتمع له من شيعة العباسيين وما وجهه الى الامام يزيد على ثلاثمائة الف كما ذكر الطبري (180). ومما لا شك فيه ان هذه الأموال المتدفقة في خراسان كان لها اثرها في حياة العرب واسلوب عيشهم، ويمكن للدارس ان يستشف ذلك من خلال الهدايا التي كانت تقدم للولاة في الأعياد القومية والمناسبات المختلفة، فالجنيد بن عبد الرحمن لما فرغ من معركة الطواويس دخل بخارى فصادف ذلك اليوم، عيد المهرجان فتلقاه اهلها بالدنانير البخارية واعطوا كل واحد من جيشه عشرة عشرة (181). واسد ابن عبد الله القسري حضر عيد المهرجان في بلخ فقدموا عليه بالهدايا. ومن بين الذين وفدوا والي هراة ودهقانها وكانت هديتهما تقدر بالف ألف. قصران من ذهب وفضة. ومثلهما صحاف واباريق، ومن بين اصناف تلك الهدايا الديباج

---

(175) فتوح البلدان 3/490، 491، 492، 493.
(176) الطبرى 4/234.
(177) المصدر نفسه 5/220.
(178) نفس المصدر 5/295، 298 س 6.
(179) نفس المصدر 6/4.
(180) نفس المصدر 6/30.
(181) نفس المصدر 5/421.

الهروي والمروي والديباج القوهي، وكرة من ذهب قدمها له الدهقان (182). ومن الراجح ان خراسان استمرت في ازدهارها لا سيما في ايام نصر بن سيار قبل اختلاف كلمة العرب بها، ومما يجعلنا نميل الى ذلك ما كتب به الوليد ابن يزيد الى نصر حين استهداه اباريق من ذهب وفضة، وبرابطة وطنابير وكل صناجة، وان يصطحب معه البزاة والبراذين الفارهة. ويستفاد من الطبري ان نصرا اعد ايضا ضروبا اخرى من التحف النفيسة والهدايا الثمينة، فاشترى المماليك ولم يدع بخراسان جارية ولا عبدا او برذونا فارها الا اشتراه كما امر بصنع تماثيل الظباء ورؤوس السباع والايايل (183).

يلاحظ مما تقدم ان العرب في العصر الأموي كانوا يسمحون لأنفسهم بصناعة التماثيل الحيوانية، ومما لاشك فيه انها كانت شائعة وان اهل الفقه لم يكونوا ينكرونها. وكانت هذه الولاية تجمع بين ارجائها اجناسا متعددة وقوميات متباينة، من عرب وفرس واتراك، مما كانت له انعكاسات على المجتمع الخراساني. وتدل دلائل مختلفة على انه كان بها ادوات لهو وملاه كثيرة، وكان بها ايضا معاصر للخمر، مما جعل كثيرا من الجند يتورطون فيها تورطا حتى اضطر قتيبة الى ان يجعل حدها القتل حفاظا على جنده واستتبع الخمر والملاهي انتشار القيان بها. ويروي انه لما نزل عبد الرحمن ابن مسلم بجيشه في احدى غزواته قريبا من السغد، انتبذ الناس وشربوا حتى عربدوا فأمر ابا مرضية مولاه بتعقب الذين يشربون فضربهم وكسر اوانيهم حتى سال النبيذ بالوادي وسمي المرج بعد ذلك بمرج النبيذ (184). كما يروى ان وكيع ابن ابي سود اعترضه في ولايته سكران فأمر به فقتل (185) ويقال ان فتح جرجان في عهد يزيد بن المهلب يرجع الفضل فيه الى أن احد الجنود خرج للصيد

---

(182) نفس المصدر 5/465 .
(183) نفس المصدر 5/533 .
(184) نفس المصدر 5/242 .
(185) نفس المصدر 5/283 .

فعثر علي طريق سري يصل الى المدينة المحاصرة (186). مما يدلنا على ان العرب كانوا مولعين في خراسان بالقنص.

6) **الحيـاة الدينيـة والمذهبيـة**

ظهرت في خراسان اديان عدة ومذاهب مختلفة وعندما نستعرض ما قاله نصر بن سيار في احدى خطبه نجد ان سكان خراسان كانوا على عهده أربع طوائف : المجوس، والنصارى، واليهود، ثم العرب (187). ومن الطبيعي لذلك ان توجد بخراسان بيوت النار والبيع واديرة الرهبان (188) ومساجد المسلمين (189) وهذه الطوائف الدينية المختلفة تؤذن بنشوء صراع فكري سيما اذا عرفنا ان المسلمين انفسهم اخذوا يتوزعون فرقا في اواخر هذا العصر وكان منهم خوارج وشيعة ومرجئة. واذا كانت الشيعة هي التي قوضت الحكم الأموي، فان المرجئة هي التي مهدت لها الطريق وسهلت لها الوثوب باضعاف الحكم القائم.

والارجاء مذهب كلامي كانت تدعو له احدى الفرق الاسلامية ؛ وكان رأس هذا المذهب في خراسان جهم بن صفوان كاتب الحارث بن سريج ؛ واصحابه هم الذين يدعون بالجهمية ، وهي فرقة قائمة برأسها لها آراؤها الخاصة في بعض المسائل كمسألة الايمان ومسألة الخلافة ، ولهم آراؤهم ايضا في عثمان وعلي. ومن المرجح ان هذا المذهب نشأ بترمذ. كما يظهر من خلال متابعة احداثه عند الذهبي (190). ومن الصعب على الدارس ان يفهم الشعر الذي قيل في هذا المذهب الفهم الصحيح اذا لم يكن قد الم بآرائهم المهمة التي عرفوا بها من مثل الايمان الذي عرف عندهم بأنه عقد بالقلب فالمؤمن الذي يظهر الكفر بلسانه تقية وخوفا، ولو عبد الصليب والاوثان، لا يضر ذلك بايمانه (191). ولعل هذا هو الذي سوغ للحارث بن

(186) نفس المصدر 5/301 .
(187) نفس المصدر 5/492 .
(188) نفس المصدر 5/430 س 3 ، 431 س 4 .
(189) المسالك والممالك لابن حوقل ص 314 .
(190) تاريخ الاسلام للذهبى 5/56 ، 57 ، 58 .
(191) الملل والنحل للشهرستانى 137 .

سريج ان يقاتل في صف المشركين مستنصرا بهم على المسلمين. وهناك مسألة اخرى شغلت اصحاب هذا المذهب وهي مسألة الخلافة ومسألة علي وعثمان. ورأي هذه الفرقة الكلامية في مسألة علي وعثمان القول بالتوقف، وارجاء ذلك نظرا الى ان مثل هذه المسألة من الأمور المشبهة التي يتعذر الحكم فيها بالنسبة للبشر ولا يتيسر فيها معرفة الصواب والخطا (192). والى هذا الرأى أشار ثابت قطنة حين قال : (193).

ترجى الامور اذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيمن جار او عندا

وهو من الشعراء الذين مالوا الى هذا المذهب وخالف فيه نصر بن سيار فاذا عرفنا الارجاء وادركنا انه يوجد الى جانبه مذهب الشيعة والخوارج فهل يمكن للدارس ان يطمئن الى ان تلك المذاهب عاشت فيما بينها في سلام دون ان يشتد بين انصارها النقاش، ويتفشى فيما بينها الجدال تدعيما للرأى ودفاعا عن المعتقد ثم هل يمكن للانسان ان يطمئن الى ان تلك المذاهب الاسلامية في خراسان، عاشت طوال العهد الأموي مع بقية الديانات والمذاهب الأخرى، حياة مهادنة ؟ ان قبول مثل هذا الافتراض من الصعوبة بحيث يجعلنا نشك اقوى الشك فيه.

ويبدو ايضا ان حياة التنسك ظهرت بخراسان في زمن مبكر اذ اشتهر فيها عدد من الزهاد المتنسكين. فقد ذكروا ان يزيد بن المهلب اصاب تاجا بجرجان فيه جوهر فقال : اترون احدا يزهد في هذا التاج قالوا : لا، فدعا محمد ابن واسع الأزدي فقال : خذ هذا التاج فهو لك قال : لا حاجة لي فيه فعزم عليه يزيد ان يأخذه ، فاستلمه منه وتصدق به (194). وهذا دليل على ان في جيش يزيد بعض المتزهدين.

كما يذكر الطبري ان ابا مسلم الخراساني لما ظهر وسمع الناس به انطاق

(192) فجر الاسلام ط السابعة نشر وطبع مكتبة النهضة ص 280 .
(193) الاغانى 270/14 دار الكتب .
(194) الطبرى 298/5 .

اليه فتية من اهل مرو، نساك كانوا يطلبون الفقه (195) وقد كان ايضا من المتزهدين النساك رجل يدعى ابا الوليد (196). ومما يذكر ان المرجئة وعلى راسهم جهم بن صفوان، كانوا يدخلون في نقاش مع اصحاب المذاهب الأخرى كالسمنية (197) . وطعن على هذا المذهب حتى في الشعر. ويقال ان قوما من الدهريين جادلوا جهما فظل اربعين يوما على الأقل بدون صلاة (198)، وكان الى جانبه مقاتل بن سليمان المفسر ولأمر ما وصفوه بالمفسر، وهو مع جهم على طرفي نقيض فجهم يبالغ في النفي والتعطيل ومقاتل يسرف على نفسه في الاثبات والتجسيم (199).

لكل ما قدمت فاني لا استطيع ان اطمئن كثيرا الى ما يذكره بعضهم من ان اهل خراسان كانوا يعيشون في عافية وسلامة فطرة حتى نبغ بين ظهرانيهم جهم ابن صفوان (200) فقد كان من قبله فيها الخوارج ونفر من المرجئة على راسهم ثابت قطنة. وتدل الأخبار والروايات على انه كان لعرب خراسان ضرب من الاهتمام بالحساب والتنجيم، ففي ولاية سعيد بن مسلم نرى ابا الضحاك الرواحي ممن ينظر في الحساب ويخبر الناس بان ليس على متخلف في هذا العام معصية (201). كما نرى المنجمين يخبرون نصر بن سيار بان فتنة ستظهر بخراسان فصدق نصر اقاويلهم ورفع حاصل بيت المال (202).

وهكذا كانت خراسان من البلاد التي شاركت فيما ظهر بعد ذلك في العصر العباسي من نشاط فكري، اذ منها كان انطلاق العباسيين وعلى صعيدها ازدهر مذهب الارجاء.

---

(195) نفس المصدر 6/32 .
(196) العقد الفريد 6/343 . مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1949
(197) تاريخ الاسلام للذهبى 5/57 .
(198) تاريخ الاسلام للذهبى 5/57 .
(199) نفس المصدر 5/56 .
(200) نفس المصدر 5/58 .
(201) الطبرى 5/382 .
(202) نفس المصدر 5/584 .



الفصـــل الثانـــى

الشعر فى خراسان والبلاد الايرانية

1) نظـــرة عامـــة

ليس القصد من هذا الفصل اخراج ما سوى الشعر العربي من هـذه الدراسـة فان الفترة التي عاشها العرب هناك لعهد بني امية لم يعرف فيها غير الشعر العربي. وكل المصادر التي انتهت الينا لم تذكر ان للفرس شعرا يعيش في خراسان الى جنبه عدا ما جاء في الطبري الذي ذكر بيتا او بيتين (1) نسبهما في بعض المواضع (2) الى الصبيان حين تغنوا بهزيمة اسد بن عبد الله القسري في احدى غزواته، وغير البيت الذي ورد في نوادر المخطوطات عند الحديث على سعيد بن عثمان (3). وليس معنى هذا ان اهل خراسان الأصليين لم يعرفوا في ذلك الوقت شعراء ينظمون بالفارسية ولكن الذي اريد ان اقوله هو ان المصادر العربية القديمة لم تشر الى ان هنالك شعرا فارسيا او شعراء من الفرس وهذا مرجعه الى ان القومية الفارسية لم تتشكل بعد.

فالشعر الذي وجد في خراسان لعهد بني امية، اذن، هو شعر عربي لا يكاد يختلف عن غيره من الاشعار العربية. واول شيء يلاحظه دارس الادب بالنسبة لشعراء تلك الفترة هو انهم، على الرغم من كونهم يعدون خراسانيين، كانوا شعراء وافدين على هذه البيئة الجديدة. وحين قدموا الى خراسان كانوا

---

(1) الطبرى 5/390 ، 448 .
(2) نفس المصدر 5/389 .
(3) نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هـارون . ط أولى . نشر مكتبـة الخانجى 6/167 .

شعراء كبارا يقولون الشعر فيجيدون فيه. ولاينبغي ان ننسى ان كثيرا من هؤلاء الشعراء جاءوا على الأرجح مهاجرين مع قبائلهم بحكم الظروف التي احاطت بالعرب خلال فتحهم لبلاد خراسان.

وشعراء خراسان بهذا الوضع يعدون جزءا من شعراء البصرة اذ كانت هي التي تغذي خراسان بالجند المحاربين، وقد رحلوا اليها يحملون عصبياتهم القبلية، وتحول شعراؤها ألسنة تعبر عن هذه العصبية في اشعارهم. وساعد الصراع القبلي في خراسان ، اختلاف الأطماع والأهواء بها، على ان يصبح الشاعر الخراساني اكثر التصاقا بمجتمعه القبلي واكثر التزاما لما تفرضه عليه عصبيته القبلية، وكان لكل قبيلة شاعرها، فللازد ثابت قطنة وكعب الأشقري، ولبكر نهار بن توسعة ، وهو اشعر شعرائها (4) ، ولعبد القيس زياد الأعجم، اما تميم فلها المغيرة بن حبناء، وهؤلاء هم زعماء الشعراء وكان لهذه الزعامات الشعرية حواش اخرى من الشعراء تمشي على هديها وتدور في فلكها، ولا تكاد تظهر هذه الحواشي ويعرف لها شعر الا في المناسبات ذات الأحداث الخطيرة كالذي حدث عند مقتل عبد الله بن خازم (5) وفي وثوب وكيع بن ابي سود على قتيبة (6)، وانتصار اليمينة على المضرية واخراجها من مرو لعهد نصر بن سيار (7).

واولئك الشعراء بحكم زعامتهم كانوا يشعرون بالواجب الملح في القيام بما توجبه حياتهم الجديدة بكل ما في هذه الحياة من معاني الحرب والجهاد وبكل ما فيها من ويلات الفتن والأحقاد الدفينة والصراع من اجل العصبية. وكان من نتيجة هذا الشعور، ان اصبح الشعراء في يقظة مستديمة فلا تكاد تمر بهم حادثة مهما كانت قليلة الشأن. الا وضعوا عليها بصماتهم الشعرية: ولقد

---

(4) الشعر والشعراء . تحقيق احمد محمد شاكر ط دار الكتب المصرية 1364 ، 521/1 .

(5) ابن عساكر 377/7 والطبرى 63/5 .

(6) النقائض ص 362 ، 363 ، 364 ، 365 ، 366 ، 370 . الطبرى 281/5 فما بعدها .

(7) الأخبار الطوال ص 355 ، 363 ، الطبرى 13/6 ، 14 .

ارتبط شعرهم، لذلك، ارتباطا وثيقا بواقعهم السياسي والحربي والقبلي، واصبح الشاعر منهم همه ان يجاهد بشعره في سبيل ما يرتئيه من مصالح قبلية واعتبارات عصبية، شأنه في هذا شأن الرئيس الذي يشعر انه الممثل لقبيلته الناطق بلسانها. ولذلك ترى الحادثة الواحدة يعالجها كل شاعر منهم من زاويته الخاصة التي لا تتنافى ومصلحة قبيلته. وقد يتجاوز صدى هذه الحادثة، او تلك البيئة الخراسانية الشعرية الى غيرها من البيئات الاسلامية لتسير على نفس المنهج ولتقوم بنفس الدور وهذا ما شاهدناه في مقتل قتيبة (8). فالفرزدق مثلا يجعل الفضل كل الفضل الى قبيلته تميم وفي مقدمتها راسها وكيع (9). وكذلك حاول شعراء الاحلاف من قبيلة الأزد ومن كانوا يشايعونها ان يجعلوا الفضل الأكبر في القضاء على قتيبة لهم وحدهم ولولا هم لعجزت تميم ولما ادرك بنو منقر وترهم كقول الحضين (10) يفخر بجهم بن زحر قاتل قتيبة بن مسلم الباهلي ايام خراسان (11) :

وما ادركت فى قيس عيلان وترها
بنو منقر الا بأسياف مذحج

ولولا مذحج وقبيلة الازد لما بقيت للاسلام راية مرفوعة: كما يقول الطرماح (12). :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج
والازد ، زحزح واستبيح العسكر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى
أمر الخليفة واستحل المنكر

---

(8) الخزانة 3/303 ، الطبرى 5/283 وما بعدها .
(9) شرح ديوان الفرزدق . تحقيق عبد الله الصاوى. مطبعة الصاوى 2/855، 856 .
(10) النقائض ص 362 .
(11) جمهرة الأنساب لابن الكلبى مخطوطة مصورة بدار الكتب تحت رقم 9959 ح ص 50 س 4 فما بعدها .
(12) ديوان الطرماح طبعة ليدن 1927 ص 147 ، الطبرى 5/284 .

فبعـزنـــا نصـــر النبـــى محـمـــد
وبنـــا تثبـــت فـــى دمشـــق المنبـــر

وهذا التمثيل لأوضاعهم القبلية، جعل شعرهم في خراسان اصدق مرآة تنعكس عليها كل اوضاعهم السياسية المختلفة. وادى هذا كله الى الإجادة والاحسان بالنسبة للشاعر من جهة، اذ جعله صادق الشعر والشعور، معبرا بايمان عن حقيقة في اعماق روحه يناضل من اجلها، ومن جهة اخرى نلاحظ ان الشاعر الخراساني لم يستطع ان يوفق كثيرا، او قل انه فشل في ان يوفق بين تلك الحياة الصاخبة النشيطة وهذا الشعور الجماعي؛ وبين نوازعه وتغنيه بجمال الطبيعة والحب. ولسنا نعلم باستثناء قلة منهم ان احدا قد احب وتغنى بهذا الحب في شعره، كما لا نعلم ان احدا منهم اهتز لبهجة الربيع او انطقته الرياض الغناء والعيون الجارية ولو حتى بالمقطوعة والبيت الواحد، ولعلنا لا نبعد كثيرا عن الحقيقة اذا قلنا ان من بين العوامل التي ساعدت على هذا اللون من الحياة الشعرية في خراسان ظروف الحياة الخراسانية نفسها التي كان يحياها العرب بما فيها من تناحر وصراع، مما جعل الشاعر ضعيف الاحساس بالجمال، وينبغي ان لا ننسى قصر المدة التي قضاها العرب هناك. ومن يدري فلعله لو اتيح لشعراء خراسان شيء من الهدوء والاستقرار لما كنا وجدنا مثل هذا الجفاف.

وقد ذكر استاذنا الدكتور شوقي ضيف ان شعراء العراق لم يصفوا ما تحت اعينهم من الطبيعة، فاذا لاحظنا ان اغلب الشعراء الخراسانيين هم من العراق فاننا نصل الى نتيجة هي ان الشاعر الخراساني لم يعن في شعره بوصف ما يلحظه من مشاهد الطبيعة تماما كما كان اخوه في العراق. والشاعر الخراساني - على الرغم من افتقاره في هذا الجانب - فاننا لا بد ان نلاحظ انه كان - باستثناء زياد الأعجم - يشارك في حروب قبيلته، وبعبارة اخرى كان فارسا. وبذلك كان شعره شعر فروسية وفتوة وقوة في المديح، ولكن لا من اجل التكسب وانما اشادة بالابطال والبطولة، اذ كان الممدوحون ولاة، وبعبارة اخرى كانوا قوادا يقتحمون اهوال المعارك والحروب فلا غرابة اذن ان نرى

شعراء خراسان يتغنون طويلا بمآثر قبائلهم ويشاركون في حروبها ولا يكادون يلتفتون الى انفسهم وعواطفهم الذاتية، من حب ونحوه. وهذا الاتجاه في شعرهم افادنا كثيرا اذ جعل شعرهم مصدرا تارخيا مهما ازاء الاحداث التي لم تسجلها كتب التاريخ (13)، وكان الشاعر لا يكتفي بمجرد القول فيتجاوزه الى ميدان العمل كما حدث بالنسبة لأعشى همذان الذي انضم الى ثورة ابن الأشعث واخذ يذكي حماس الثائرين بشعره بمثل قوله (14) :

من عاشق أمسى بزبلستان ... ان ثقيفا منهم الكذابان

كذابها الماضى وكذاب ثان ... أمكن ربى من ثقيف همذان

يوما الى الليل يسلى ما كان ... ان سمونا للكفور الفتان

حين طغى فى الكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن

فقل للحجاج ولى الشيطان ... يثبت لجمع مذحج وهمذان

وشارك بعض الشعراء بشعرهم في الصراع الفكري بين النحل والمذاهب على نحو ما هو معروف عن ثابت قطنة وحديثه عن مذهب المرجئة في شعره (15)، ورد نصر بن سيار على اصحاب هذا المذهب من الجهمية فيما بعد وصور الشعراء كثيرا من احداث الحياة القومية ومن صور المجتمع ، اذ نراهم يحملون على بعض الفقهاء على نحو ما نرى عند زياد الأعجم في سخريته بعراك بن محمد الواعظ الزاهد اذ يقول (16) :

---

(13) النقائض ص 369 ، الطبرى 407/5 ، الاغانى 274/14 . ط دار الكتب

(14) الطبرى 147/5 .

(15) الاغانى 269/14 . ط دار الكتب

(16) نفس المصدر 385/15 .

يحــدثنـــا ان القيـــامــة قـــد اتـــت
وجـــاء عـــراك يبتغــى المـــال من مصــر
فكــم بين بـــاب النــوب ان كنــت صـــادقـــا
وايـــوان كســـرى من فـــلاة ومـــن قصـــر

وقد القى الشعر العربي في خراسان اضواء على الصراع احيانا بين الأقارب وبين الأسرة الواحدة من اجل السلطة والحكم كالذي نسمعه من بعضهم حين قال للمفضل ابن المهلب وعبد الملك وهو اخوه لأمه ينعى عليهما سعايتهما باخيهما عند الحجاج (17) :

يـــا ابنـــى بهلـــة انمـــا اخـــزاكمـــا
ربـــى غـــداة غـــدا الهمـــام الازهـــر
احفـــرتـــم لاخيكـــم فـــوقعتـــم
فـــى قعـــر مظلمـــة اخـــوهـــا المعـــور
جـــودوا بتـــوبـــة مخلصيـــن فـــانمـــا
يـــأبـــى ويانـــف ان يتـــوب الاخســـر

وفطن القدامى من المؤرخين الى أهمية هذا الجانب حين انشدوا في حديثهم عن احداث بلاد خراسان بعض ما نظم فيها من اشعار وأثبتوا ما جمعوه من النصوص وهو جمع يفيد الشعر نفسه، لانه يقرنه بالأحداث التارخية التي توضحه. ويحسن ان نشير الى ان بعض القصائد الخراسانية اختلف الرواة في صاحبها مثل الحائية التي قيلت في رثاء المغيرة بن المهلب فقد نسبت الى زياد الأعجم (18) وفي بعض المصادر انها للصلتان العبدي (19) ولكن ذلك لا ينفي أنها من الشعر الخراساني، وحقا هناك قصائد مثل قصيدة مالك بن الريب يغلب عليها ان تكون قد طولت واضاف اليها الرواة ابياتا كثيرة فقد ورد في الأغاني عن ابي عبيدة ان مالك بن الريب لم يقل من هذه القصيدة سوى ثلاثة عشر بيتا

---

(17) الطبرى 193/5 .
(18) ذيل الأمالى دار الكتب ص 8 ، وفيات الأعيان 437/4 .
(19) امالى المرتضى 107/4 ، ط . اولى 1907 .

اما الباقي منها فانه منحول ولده الناس عليه (20). فالانتحال في الشعر الخراساني واقع اذن ولابد من الحيطة والحذر عند دراسة هذا الشعر الا انه يجب ان لا نبالغ في شكنا حتى لاتسلمنا هذه المبالغة الى تجاوز الصواب.

ومما يلاحظ على هذا الشعر انه استطاع في خراسان ان يعيش مع حركات الفتح العربي كما عاش مع تلك الانتفاضات التي قام بها اهلها ضد سلطان بني امية وما تبع ذلك من اخضاع وقهر (21) :

الا أبلـــغـــا عثمـــان عنـــى رســالـــة
لقـــد لقيـــت منـــا خـــرســـان نـــاطحـــا
رمينـــاهـــم بالخيـــل مـــن كـــل جـــانـــب
فـــولـــوا سراعـــا واستقـــادوا النوائحـــا
غـــداة رأوا خيـــل العـــراب مغيـــرة
تقـــرب منهـــم أســـدهـــن الكـــوالحـــا
تنـــادوا الينـــا واستجـــاروا بعهدنـــا
وعـــادوا كـــلابـــا فـــى الديـــار نوابحـــا

ولما استقر الحكم العربي وشعر العرب بعض الشعور بثمرة مجهوداتهم، راينـــا احقادهم القبلية تظهر من جديد، ويعود اليهم صراعهم الدامي من اجل العصبية، كما راينا الشعـر يعيش هذه الأجواء وينطبع بها على نحو ما نجد عند عبـــاد اللقوة اذ يقول (22) :

ان الحـــواضـــن تلقـــاهـــا مجفـــفـــة
غلـــب الرقـــاب (٢٣) على المنسوبـــة النجـــب
تـــركـــت أمـــرك من جبـــن ومن خـــور
وجئتنـــا جمعـــا يـــا ألام الـــعـــرب

---

(20) الاغانى 169/19 . ساسى
(21) معجم البلدان 410/3 .
(22) معجم الشعراء ص 107 .
(23) غلب الرقاب : غلاظ الرقاب أعزة

لمـا رايـــت جبـــال السفـد معـرضـــة
وليــت موســى ونوحـــا عكـــوة الذنــب
وجئــت ذيخــا (٢٤) مفــذا مــا تكلمنـــا
وطـــرت من سعــف البحريـــن كالخـــرب
اوعـــد وعيــدك انـــى ســوف تعــرفنـــى
تحــت الخــوافــق دون العــارض اللجـــب
اقـــود مستشـــرفـــا عـــار نـــواهقـــه
يغشـــى الكتيبـــة بيـــن العــدو والخبـــب

ومن شاكلة ذلك قول الحرشي في فتنة عبدالله بن خازم (25) :

أزال عظـــم يمينـــى عـــن مـــركبـــه
حمـــل الودينـــى فـــى الادلاج والسحـــر
حـــوليـــن مـــا اغتمضـــت عينـــى بمنزلـــة
الا وكفـــى وســـاد لـــى علـــى حجـــر
بـــزى الحـــديـــد وســـربالـــى اذا هجعـــت
عنـــى العيـــون مجـــال القـــارح الـــذكـــر

وتتغير احوال خراسان بعد القضاء على ابن خازم فنرى الشعر يختلف باختلاف الظروف فيكثر فيه وصف المعارك وفتح القلاع والحصون والانتصارات التي يحققها العرب بين الحين والحين، كما يكثر المدح والفخر، وتحدث ثورة قتيبة بن ابي مسلم وقد تركت على الشعر مسحة من الأسى وخلفت جدلا كثيرا (26). ويعود الشعر الى صورته قبل ثورة قتيبة من المديح والفخر ووصف المعارك، وقد تحسر الشعراء طويلا وتفجعوا على الفرسان الذين تساقطوا في

(24) الذيخ : من الذئاب الجريىء
(25) الطبرى 4/486 فما بعدها .
(26) النقائض ص 369 ، 370 .

وقعة الشعب، ومن خير ما يصور ذلك قول ابن السجف مخاطبا هشام بن عبد الملك (27) :

اذكر يتامى بأرض الترك ضائعة
هزلى كأنهم فى الحائط الحجل
وارحم والا فهبها أمة دمرت
لا أنفس بقيت فيها ولا نفل
لاقوا كتائب من خاقان مطنة
عنها يضيق فضاء السهل والجبل

ويندب ابن عرس من استشهدوا في تلك الموقعة ندبا حارا بمثل قوله (28)

أين حماة الحرب من معشر
كانوا جمال المنسر الحارد (٢٩)
بادوا بآجال توافوا لها
والعائر (٣٠) المهمل كالبائد
فالعين تجرى دمعها مسبلا
ما لدموع العين من زائد

ونراه يسترسل متحدثا عما كان للعرب من قوة ومن رهبة في نفوس الاعداء ويذكر ما آل امر المسلمين اليه من الهوان يقول :

كنا قديما يتقى باسنا
وندرأ الصادر بالوارد
حتى منينا بالذى شامنا (٣١)
من بعد عز ناصر آيد

---

(27) الطبرى 5/419 .
(28) نفس المصدر 5/423 فما بعدها .
(29) جمال المنسر الحارد : أى جمال قطعة الجيش الكبير المتقدمة العاتية
(30) العائر : من السهام ما لا يعرف الرامية
(31) شامنا : نالنا وأذلنا من البلاء

وينعى على الجنيد الوالي ضعفه وما جره على قومه بسوء رأيه ، يقول :

يبكي لها ان كشفت ساقها

جدعا وعقرا لك من قائد

تركتنا أجزاء معبوطة

يقسمها الجازر (٣٢) للناهد

اذ أنت كالطفلة فى خدرها

لم تدر ما كيدة الكائد

ويذكر مصاب سمرقند وينصح الجنيد ان لا تحدثه نفسه بالعودة الى الحرب لأنه ضعيف التجربة، وحسبه ان يفرغ للكأس والطاس لا للقتل والقتال، يقول:

اضحت (سمرقند) وأشياعها

أحدوثة الغائب والشاهد

لا تحسبن الحرب يوم الضحى

كشربك المزاء بالبارد

خمسون ألفا قتلوا ضيعة

وأنت منهم دعوة الناشد

لا تمرين الحرب من قادم

ما أنت فى العدوة بالحامد (٣٣)

اما الشرعبي الطائي فانه يحدثنا عن بطولته وبلائه في هذه المعركة اذ يقول (34) :

تذكرت هندا فى بلاد بعيدة

فيا لك شوقا ما لشملك مجمع

تذكرتها والشاش بيني وبينها

وشعب عصام والمنايا تطلع

---

(32) الجازر : الناحر ، والناهد : الأسد

(33) العدوة : جانب النهر ويطلق على المكان المرتفع

(34) الطبرى 5/422 .

ويعرض لتفوق الأعداء عددا، وسبيهم النساء وما ترك ذلك من اسى عميق في نفسه :

بـــلاد بهـا خـاقـــان جـــم زحوفـــه
« ونيــلان » فـــى سبعيــن ألفــا مقنـــع
اذا دب خــــاقـــــان وســــــارت جنـــوده
أتتنـــا المنـــايـــا عنـــد ذلـــك شـــرع
هنـــالـــك هنـــد مـــا لنـــا النصـــف منهـــم
ومـــا ان لنـــا يـــا هنـــد فـــى القـــوم مطمـــع

ويجسم حزنه على سبايا العرب في تصويره لامرأة من المسلمين يضع احد العلوج عليها يده فيأخذها اخذا وهي تصرخ وتنادى قومها بأعلى صوتها ولكن صوتها يتلاشى ولا من ناصر او معين اللهم الا الشاعر الذي لن يستطيع ان يغير من الواقع المؤلم شيئا :

الا رب خـــود خـــذلـــة (٣٥) قد رأيتهـــا
يســـوق بها جهـــم من السفـــد أصمـــع (٣٦)
احــــامى عليهـــــا حيـــن ولـــــى خليلهـــــا
تنـــــادى عليهـــــا المسلميـــــن فتسمـــــع
تنـــــادى بـــأعلى صوتهـــا صـــف قومهـــا
الا رجــــــل منكـــم يغـــــار فيرجـــــع
فمـــا جـــاوبـــوهـــا غيـــر ان نصيفهـــا
بكـــف الفتـــى بين البرازيـــق (٣٧) أشنـــع

وعادت الى الشعر بسمته وفرحته حين هزم اسد بن عبد الله القسري خاقان الترك وساقه الى حتفه (38) ويستمر الشعر على هذه الحال حتى اوائل

---

(35) الخذلة : المرأة الممتلئة الساق ، والممتلئة لحما فى دقة عظام
(36) الأصمع : الصغير الأذن
(37) البرازيق فارسى معرب ومعناه بين جماعات الخيل
(38) نفس المصدر 5/453 .

ولاية نصر بن سيار. وما ان توافي سنة 126 وهي السنة التي قتل فيها الوليد حتى تضطرب خراسان وتندلع فيها العصبيات القبلية (39) ويصدر الشعراء عن هذه العصبيات على نحوما يلقانا عند المفضل السامي اذ يقول (40) :

يا معشر الأزد اني نصحت لكم
فلا تطيعوا جديعا ايما صنعا
فما تناهوا ولا زادتهم عظة
الا لجاجا وقالوا الهجر والقذعا
يا معشر الأزد مهلا قد أضلكم
ما لا يطاق له دفعا اذا وقعا

ويقول الحارث بن عبد الله بن الحشرج (41) :

أبيت أرعى النجوم مرتقبا
اذا استقلت تجرى اوائلها
من فتنة اصبحت مجللة
قد عم اهل الصلاة شاملها
من بخرسان والعراق ومن
بالشام كل شجاه شاغلها
يمسى السفيه الذى يعنف
بالجهل سواء فيها وعاقلها

وعبثا حذر نصر بن سيار الثائرين من مغبة هذه العصبيات وما اذكوا من فتن (42). ونفس نصر نراه يتورط آخر الأمر في العصبية كما تصور ذلك اشعاره التي قالها بعد موت خصمه الحارث بن سريج (43) :

---

(39) نفس المصدر 5/584 .
(40) معجم الشعراء للمرزبانى ص 297 .
(41) الطبرى 5/585 .
(42) نفس المصدر 5/584 .
(43) نفس المصدر 6/13 ، الكامل لابن الأثير 4/294 .

يا مدخل الذل على قومه
بعدا وسحقا لك من هالك
شؤمك أردى مضرا كلها
وعض من قومك بالحارك
ما كانت الأزد وأشياعها
تطمع فى عمرو ولا مالك

ويكثر حينئذ الدعاء بالويل والثبور ، لاعند الرجال فقط بل عند النساء من امثال ام كثير الظابية التي لم تفتأ تدعو على رهطها من مضر، بالهلاك والبوار ان لم يمزقوا الأزد شر ممزق (44) :

لا بارك الله فى أنثى وعذبها
تزوجت مضريا آخر الدهر
ان انتم لم تكروا بعد جولتكم
حتى تعيدوا رجال الأزد فى الظهر

ويصرخ عباد بن الحارث مستثيرا نصر بن سيار وناعيا على مضر الاستكانة والخنوع (45) :

ألا يا نصر قد برح الخفاء
وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو
تقضى فى الحكومة ما تشاء
فان مضر بذا رضيت وذلت
فطال بها المذلة والشقاء

ولا يلبث نصر ان شارك في هذا الصراخ مستغيثا (46) :

---

(44) الكامل لابن الأثير 294/4 ، الطبرى 13/6 .
(45) الطبرى 13/6 .
(46) نفس المصدر 37/6 .

أبلـــغ يــزيـــدا وخيـــر القـــول اصدقـــه
وقـــد تبينــــت ان لا خيـــر فـــى الكـــذب
ان خـــراســـان أرض قد رأيــــت بهــــا
بيضــا لو أفــرخ قــد حدثـــت بالعجـــب
فـــراخ عـــامين الا انهـــا كبـــرت
لمــا يطـــرن وقـــد ســربلــن بالـــزغـــب
فان يطـــرق ولـــم يحتـــل لهـــن بهـــا
يلهبــن نيـــران حـــرب أيهـــا لهـــب

ويمد صوته مستغيثا بمروان بن محمد مصورا ما ينتظر الدولة من ويـــل مستطير (47) :

أرى تحـــت الـــرمـــاد وميض جمـــر
ويـــوشـــك ان يكـــون لـــه ضــــرام
فـــان النـــار بالـــزنديـــن تـــورى
وان الحــــرب اولـــهـــا كـــلام
لئـــن لم يطفهـــا عـــقـــلاء قـــوم
يكـــون وقـــودهـــا جثـــث وهـــام
أقـــول مـــن التعجـــب ليـــت شعـــرى
أأيـــقـــاظ أمـــيـــة أم نيـــام
فـــان كـــانـــوا لحينهـــم نيـــامـــا
فقـــل قـــومـــوا فقـــد حـــان القيـــام

ولكن ذلك لم يغن شيئا كما لم يغنه نداؤه لربيعة واخوتها قائلا (48) :

أبلـــغ ربيعـــة فـــى مـــرو واخوتهـــم
فليغضبـــوا قبـــل ان لا ينفـــع الغضـــب

(47) وفيات الأعيان 2/327 .
(48) العقد الفريد 4/478 . والكامل لابن الأثير 4/304 .

ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا
حربا يحرق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلحقون الحرب بينكم
كان أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم
بما تأشب (٤٩) لا دين ولا حسب
توما يدينون دينا ما سمعت به
عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم
فان دينهم ان تقتل العرب

ولم ينس الشعراء تصوير ما سرى في هذا المجتمع من عقيدة الارجاء وكان بينهم الداعي والناقم عليها. ومن اشهر دعاتها ثابت قطنة وفيها يقول من قصيدته المشهورة (50) :

المسلمون على الاسلام كلهم
والمشركون أشتوا دينهم قددا
ولا أرى ان ذنبا بالغ أحدا
م الناس شركا اذا ما وحد الصمدا

وكانه يقول لا تضر مع الايمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة، وكان هذا المذهب يعد مسالة الخلافة بالنسبة لعلي وعثمان من الامور المشبهة التي يرجأ الحكم فيها الى الله (51). وابان ثابت قطنة عن هذا الرأى حين قال :

نرجى الامور اذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيمن جار او عندا

---

(49) تأشب القوم خلط بعضهم بعضا
(50) الخزانة 186/4 ، 187 والاغانى 270/14 دار الكتب .
(51) فجر الاسلام ص 272 .

أمـــــا علـــــى وعثمـــــان فـــانهمــــــا
عبـــدان لـــم يشركـــا باللــــه مـذ عبـــدا
يجـــزى علـــى وعثمـــان بسعيهمــــــا
ولســـــت أدرى بحــــق أيـــــة وردا

والمرجئة يقفون في هذا الرأى مع الخوارج على طرفي نقيض اذ كان الخوارج يكفرون عليا وعثمان جميعا (52)، ولذلك رد ثابت قطنة عليهم بقوله :

كـــل الخـــوارج مخـــط فـــى مقـــالتـــه
ولـــو تعبـــد فيمــــا قـــال واجتهـــدا

ونرى نصر بن سيار يهاجم الحارث بن سريج هجوما عنيفا مصورا ما في إرجائه من زيغ، اذ يقول (53) :

دع عنـــك دنيـــا وأهـــلا أنـــت تاركهـــم
مـــا خيـــر دنيـــا وأهـــل لا يدومونـــا
الا بقيــــة أيــــام الــــى أجــــل
فاطلـــب من اللـــه أهـــلا ، لا يموتونـــا
واعلـــم بـــأنـــك بالايـــام مـــرتهـــن
فكـــن لذلـــك كثيـــرا الهـــم محزونـــا
فامنـــح جهـــادك من لم يـــرج آخـــرة
وكـــن عـــدوا لقـــوم لا يصلـــونـــا
والصـــائبيـــن علينـــا ديننـــا وهـــم
شـــر العبـــاد اذا خـــابرتهـــم دينـــا
ارجـــاؤكـــم لزكـــم والشـــرك فـــى قـــرن
فانتـــم أهـــل اشـــراك ومـــرجـــونـــا

---

(52) الملل والنحل للشهرستانى 198 ، 205 ، 206 .
(53) الطبرى 5/433 .

وهـــل يعيبـــون منـــا كـــاذبيـــن بـــه
غـــال ومهتضـــم حســـب الـــذى فينـــا

ونصر يشير الى ما كان من وضع الحارث يده في يد خاقان الترك عدو الاسلام . ولا شك ان المرجئة اخطأت خطأ كبيرا حين قاتل بعض اصحابها في صفوف المشركين ، تأليبا على المسلمين بدعوى المطالبة باحقاق الحق واصلاح الحكم.

وهناك طائفة قليلة من شعر الغزل نراها عند ابي جلدة كما نراها عند الصمة القشيري الذي احب ابنة عمه وحين اخفق في خطبتها خرج في غزى مع المسلمين الى بلد الديلم فمات بطبرستان (54)، كما نجد بعض المقطوعات في الحنين الى مواطنهم الأولى، وخير ما يصور هذا الحنين ما قاله مالك بن الريب يذكر اهله الذين خلفهم وراءه، وهو شعر لا يحسن مثله الا من قاسى وحشة الفرقة واكتوى بنارها في الأوقات الحرجة العصيبة. ومن خير ما يصور حنينه قوله حين ابصر قباب الترك وسمع صوت الحمام «بجبال كس» فتذكر بذلك اهله، يقول (55) :

تـــذكـــرنـــي قبـــاب التـــرك أهلـــي
ومبـــدأهـــم اذا نـــزلـــوا سنـــامـــا
وصـــوت حمـــامـــة بجبـــال كـــس
دعـــت مـــع مطلـــع الشمـــس الحمـــامـــا
فبـــت لصـــوتهـــا أرقـــا وبـــاتـــت
بمنطقهـــا تـــراجعنـــي الكـــلامـــا

انه لشعر عذب يبعث على لاعج الشوق ويثير ما يكمن في الصدر من صادق الحب ولهيب الذكريات. ولمالك ابيات اخرى تمثل تعطش البنوة لساعة الملتقى ورجاء الابوة في سعادة اللقاء بينما القدر يحول دون هذا كله (56) :

---

(54) الاغانى 3/6 دار الكتب .
(55) معجم البلدان 141/5 .
(56) الطبرى 122/5

تسـائـل شهلـــة قفـالهـــا   وتســأل عن مــالــك ما فعــل
ثـــوى مــالك ببــلاد العــدو   تسفـــى عليـــه ريـــاح الشمـــل
لــذلـــك شهلـــة جهزتنـــى   وقد حال دون الايــاب الاجــل

وهذه حال واقعية يصورها مالك بصدق احساسه العميق، وهي لا تمثل واقع مالك فحسب بل هي صورة انسانية عامة يمكن ان تحصل لكل انسان منا فارق اهله ظاعنا مغتربا الى بلاد نائية يحدوه الأمل، تاركا وراءه بنيه واهليه يترقبونه ويرجونه . وليس من المستبعد ان يكون مالك قد بلغه تساؤل ابنته شهلة عنه، وعما فعله بعد هذه الهجرة، وحتى اذا لم يبلغه ذلك عنها فانه احس به ورسمه في شعره. وانظر الى الشاعر بعد ان وضع هذه الصورة لابنته التي جهزته لسفره كيف يفاجئها بهذه الخيبة المرة :

ثـــوى مــالك ببــلاد العــدو   تسفـــى عليـــه ريـــاح الشمـــل

ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان مالك بن الريب كان وفيا لموطنه القديم. وكان بحق يعتبر في خراسان شاعر الحنين، اما ما عداه من الشعراء فلست احسب ان لهم قصائد طويلة انما هي ابيات متفرقات عارضة يقولها الشاعر وقد هفا به الحنين الى اهله ، كقول زياد الأعجم (57) :

فـــانـــك كلمـــا غنيـــت صـــوتـــا
ذكـــرت احبتـــى وذكـــرت جـــارى

وكقول الأشقري مثلا (58) :

طـــربـــت وهـــاج لـــى ذاك ادكـــارا
بكـــس وقـــد أطلـــت بـــه الحصـــارا

---

(57) الاغانى 15/383 دار الكتب .
(58) نفس المصدر 14/282 .

وكذلك ما يقوله الصمة القشيري وهو يحتضر (59) :

تعــز بصبــر لا وجــدك لا تــرى
بشــام الحمى أخـرى الليـالـى الغوابـر
كـان فـؤدى من تـذكـره الحمـى
وأهـل الحمـى يهفـو بـه ريـش طـائـر

ولعل من الطريف ان نجد كعبا الأشقري حين عاد الى موطنه عمان يتشوق الى خراسان والى مرو ومن فيها (60) :

بئـس التبـدل من مـرو وسـاكنهـا
ارض عمـان وسكـنى تحـت اطـواد
يضحـى السحـاب مطيـرا دون منصفهـا
كـان أجبـالهـا علـت بفـرصـاد

2) المـديـح

لاحظنا ان الشاعر الخراساني لا يبالي كثيرا بالنظام التقليدي لبناء القصيدة الشعرية ولذلك قلّ ان يقدم بين يدي مديحه تمهيدا يذكر فيه ناقته اويصف فيه الديار والاطلال. ولو احصينا القصائد التي جرى فيها الشاعر الخراساني على النهج القديم لما تجاوز على اكثر تقدير اصابع اليد، من ذلك قصيدتان للمغيرة ابن حبناء مدح بأولاهما المهلب بن ابي صفرة وثانيتهما قتيبة بن مسلم وهو يستهل الأولى بقوله (61) :

أمـن رسـوم ديـار هـاجـك القـدم
أقـوت (٦٢) وأقفـر منهـا الطـف والعلـم
ومـا يهيجـك مـن اطـلال منـزلـة
عفـى معـالمهـا الارواح والـديـم

(59) الاغانى 4/6 دار الكتب .
(60) نفس المصدر 292/14 .
(61) نفس المصدر 87/13 .
(62) أقوت : خلت .

دار التـــي كـــاد قلبـــي ان يجـــن بهـــا
اذا ألـــم بـــه مـــن ذكـــرهـــا لـــمـــم
اذا تـــذكـــرهـــا قلبـــي تضيفـــه
هـــم يضيـــق بـــه الاحشـــاء والكظـــم (٦٣)

اما قصيدته الثانية فافتتحها بقوله (64) :

لمـــن الديـــار عفـــت بسفـــح سنـــام
الا بقيـــة ايصـــر وثـــمـــام (٦٥)
عصـــف الريـــاح ذيولهـــا فمحونهـــا
وجـــريـــن فـــوق عـــراصهـــا بنمـــام
دار لجـــاريـــة كـــأن رضـــابهـــا
مســـك يشـــاب مـــزاجـــه بمـــدام

ونراه يتخلص بعد ذلك الى مدح قتيبة دون ان يبذل كبير جهد لحسن التخلص ، اذ نراه يشرع في المديح شروعا بعد الأبيات المتقدمة فيقول :

ابلـــغ أبـــا حفـــص قتيبـــة مـــدحتـــي
واقـــرا عليـــه تحيتـــي وســـلامـــي

ومثل المغيرة بن حبناء في قلة مبالاته بهذا النمط التقليدي كعب الأشقري فاننا لا نجد من بين مدائحه التي انتهت الينا سوى قصيدتين رائتيـن، والاثنتان قالهما في المهلب بعد انتصاره على الخوارج ونجده في الأولى يخاطب صاحبته متظاما من شيبه ثم ياخذ في وصفها ، واخيرا يذكر انه ترك الديار التي يسعد بها البدو والحضر واختار عليهـا دارا اخرى احب الى قلبه لأنها محط مأمله وتخلص الي ممدوحه تخلصا جميلا حين قال (66) :

(63) الكظم : محل الحلق والفم أو مخرج النفس
(64) الطبري 240/5 .
(65) الثمام : نبت له خوص تسد به خصاص انبيوت
(66) الطبري 122/5 .

يا حفص انى عدانى عنكم السفر
وقد أرقت فآذى عينى السهر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية
والشيب فيه عن الاهواء مزدجر
علقت خودا باعلى الطف منزلها
فى غرفة دونها الابواب والحجر
درما مناكبها ريا مآكمها (٦٧)
تكاد ان نهضت للمشى تنبتر
وقد تركت بشط الزابيين لها
دارا بها يسعد البادون والحضر
واخترت دارا بها حى أسر بهم
ما زال فيهم لمن يختارهم خير
لما نبت بى بلادى سرت منتجعا
أرجو نوالك لما مسنى الضرر

أما رائيته الثانية فانا نراه يقدم لها بين يدي مديحه، حديثا عن لوعته وشوقه يوم كان نازلا بكش اوكيج(68) ويذكر ما يلاقيه من الصدود والنفرة بعد ان اشتعل راسه ووهن عظمه ثم يدخل بعد ذلك في موضوعه فيفخر بقومه ويصل الى مدح المهلب يقول (69) :

طربت وهاج لى ذاك ادكارا
بكش وقد أطلت به الحصارا
وكنت ألذ بعض العيش حتى
كبرت وصار لى همى شعارا

(67) المآكم : لحمتان فى رأس الورك
(68) معجم البلدان 7/219 .
(69) الاغانى 14/282،295 دار الكتب .

رأيـــت الفـــانيـــات كـــرهـــن وصلـــى
وأبـــديـــن الصـــريمـــة لـــى جهـــارا
عـــرضن بمجلســـى وكـــرهـــن وصلـــى
أوان كسيـــت مـــن شمـــط عـــذارا
زريـــن علـــى حيـــن بـــدا مشيبـــى
وصـــارت ساحتـــى للهـــم دارا

ورووا قصيدة لثابت قطنة في مدح نصر بن سيار ليد كانت له استهلها على النهج القديم، بالحديث عن الديار وأطلال صاحبته ليلى، يقول (70) :

ديـــار ليلـــى قفـــار لا أنيـــس بهـــا
دون الحجـــون وأيـــن الحجـــن مـــن دار

وهناك قصيدتان في مدح مسمع بن مالك، احداهما لنهار بن توسعة وقد خاطب في بدايتها ناقته حاثا لها على مغادرة مدينة هراة (71) :

اضعنـــى مـــن هـــراة قد مـــر فيهـــا
حجـــج مـــذ سكنتهـــا وشهـــور
اضعنـــى نحـــو مسمـــع تجـديـــه
نعـــم ذا المنتـــأى ونعـــم المـــزور
ســـوف يكفيـــك ان نـــأت بـــك دار
فـــى خرســـان أو جفـــاك أميـــر

اما القصيدة الثانية فانها لأبي جلدة وقد بدأها بالحديث عن صاحبته وكيف شطت بها الغربة فطارت نفسه من اجلها شعاعا (72) :

باتـــت سعـــاد وأمســـى حبلهـــا انقطعـــا
وليـــت وصـــلا لهـــا مـــن حبلهـــا رجعـــا

(70) الطبرى 5/399 .
(71) الخزانة 2/485 ، 486 .
(72) الاغانى 11/313 دار الكتب .

شطـــت بهـا غـربيـــة زوراء نــازحـــة
فطــارت النفــس من وجــد بهـا قطعــا

وأحسب ان هذه القصائد التي سبقت الاشارة اليها هي كل ما قالوه من قصائد ساروا فيها على نهج الأقدمين او على اصح تعبير هي كل ما وصل اليه اطلاعي ومن يدري فلعل هناك قصائد اخرى نسج فيها شعراء خراسان على مثال هذه القصائد المتقدمة ولم يحالفني التوفيق في العثور عليها او التنبه الى مواضعها. ومهما يكن من امر فاني احسب ان الطابع العام لدى شعراء خراسان حين يمدحون ان يشرعوا في المديح شروعا. نجد هذه الظاهرة عند المغيرة ابن حبناء (73)، كما نجدها عند سحبان وائل (74)، وعند ثابت قطنة (75)، وكذلك عند حمزة بن بيض في مديحه لمخلد ابن يزيد بن المهلب في ولايته على خراسان (76) وعند ابي الهندي في مديحه لأسد بن عبد الله القسري حين انتصر على خاقان الترك (77) وكذلك عند ابي بكر بن ابراهيم في مديحه لابني الكرماني علي وعثمان (78). وعلى هذا النحو كان الشعراء في كثير من الأحيان يضربون عن بكاء الأطلال ووصف الديار متناولين موضوعاتهم بلا تمهيد من وصف او نسيب. وأكبر الظن ان السبب في ذلك يرجع الى سرعة الحياة هناك وانشغال القوم بالحروب فلم يكن الشعراء يجدون الفرصة الواسعة لاطالة اشعارهم وقصائدهم، اذ كانوا ينشدون مدائحهم عقب الانتصارات مباشرة ، ولذلك لم يعنوا فيها بالمقدمات وكأنها بنت ساعتها. ولهذه السرعة وضيق الزمن الذي ينشىء فيه الشاعر قصيدته نراه لا يتكلف، وكأن كثيرا من اشعاره جاءت عفو الساعة. وعادة يسوق الشاعر في مديحه نفس المثالية الخلقية التي تعود الشاعر العربي ان يسوقها في مدائحه، ملاحظا

---

(73) نفس المصدر 13/86 .
(74) الطبرى 5/257 ، 258 .
(75) نفس المصدر 5/388 .
(76) الاغانى 15/19 ، 23 ساسى .
(77) الطبرى 5/455 .
(78) نفس المصدر 6/13 ، 14 .

انه يمدح قوادا يخوضون الوقائع والحروب ، ولذلك يكثر من مديحهم بالشجاعة والبأس والثبات في وجه العدو كما يقول الأشقري (79) :

والتــــرك تعلــم اذ لاقـــى جموعهـــــم
ان قــد لقـــوه شهــابــا يفـــرج الظلمـــا
بقيـــة كـــأسـود الغـــاب لـــم يجـــدوا
غيـــر التـــأســى وغيــــر الصبــر معتصمـــا

وهو يضيف الى ذلك كرم المنبت جامعا الى الممدوح عشيرته، مصورا انتصاراته على الأعداء وما يدك من قلاعهم الحصينة (80) :

نفـــى نيزكـــا عـــن بـــاذغيـــس ونيـــــزك
بمنـــزلـــــة أعيـــا الملـــــوك اغتصـــابهـــا

ولا ينسى ان يشيد الشاعر بحلم ممدوحه وكرمه واقتحامه لأهوال الحروب ومخاوفها، يقول ابو الجويرية (81) :

بيـــت بنـــاه سنـــان ثـــم شيـــده
بحيـــث طنـــب فـــى أرجـائـــه الكـــرم
الصـــافحـــون بـــأحــــلام اذا قـــــدروا
والضـــاربـــون اذا مـــا اعصوصـــب القتـــم
القتـــل ميتتهـــم والجـــود عـــادتهـــم
والحلـــم والعـــزم من أخلاقهـــم شيـــم

ويقف طويلا بازاء عشيرة الشاعر وآبائه ، ويرتفع الى قبيلته الكبرى مضر او قحطان كقول سحبان وائل في قتيبة بن مسلم (82) :

---

(79) الطبرى 5/159 .
(80) نفس المصدر 5/186 ، 187 .
(81) معجم الشعراء ص 95 .
(82) الطبرى 5/258 .

هذا وانت قريع قيس كلهم ضخم النوال
تمت مروءتكم وناغى عزكم غلب الجبال

وطبيعي ان يكون مثل هذا الممدوح قهارا للملوك ولرؤوسهم ضرابا(83) :

لأغر منتجب لكل عظيمة
نحر (٨٤) يباح به العدو لهام
يمضي اذا هاب الجبان وأحمشت
حرب تسعر نارها بضرام
وترى الجياد مع الجياد ضوامرا
بفنائه لحوادث الايام
وبهن أنزل نيزكا من شاهق
والكرز حيث يروم كل مرام
واخاه شقرانا سقيت بكأسه
وسقيت كاسهما أخا باذام

وليس هذا بكثير على امثاله ممن لبسوا التاج حتى شابت مفارقهم وقادوا الجيوش فدوخوا الأعداء وحووا النهاب (85) :

كل يوم يحوى قتيبه نهبا
ويزيد الاموال مالا جديدا
باهلى قد البس التاج حتى
شاب منه مفارق كن سودا
دوخ السغد بالكتائب حتى
ترك السغد بالعراء قعودا

(83) الطبرى 5/240 .
(84) النحر : الحاذق البصير
(85) الطبرى 5/255 .

ولربما امتزج المديح بالتقوى والصلاح والجد في قمع الفتن وانقاذ المسلمين من شرور المنافقين كما قال الأشقري في المهلب (86) :

واستسلم الناس اذ حل العدو بهم
فما لامرهم ورد ولا صدر
لولا المهلب للجيش الذى وردوا
أنهار كرمان بعد الله ما صبروا
انا اعتصمنا بحمد الله اذ جحدوا
بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا

ومن هذا النحو مديح المُغيرة بن حبناء للمهلب (87) :

أمسى العباد بشر لا غيات لهم
الا المهلب بعد الله والمطر
واستسلم الناس اذ حل العدو بهم
فلا ربيعتهم ترجى ولا مضر
كهف يلوذون من ذل الحياة به
اذا تكنفهم من هولها ضرر

وجمع عبد الله بن الحشرج هذه الأوصاف كلها في قصيدته التي مدح بها احد بني مروان ، فوصفه بالشجاعة والبأس وجعله بمثابة السيف الذي يمحو نفاق المنافقين وتجلى به صفحة الدين الحنيف(88) :

الى ملك من آل مروان ماجد
كريم المحيا سيد متفضل
يجود اذا ضنت قريش برفدها
ويسبقها فى كل يوم تفضل

---

(86) نفس المصدر 5/123 ، 124 .
(87) الاغانى 13/86 ، 87 دار الكتب .
(88) الاغانى 12/30 ، 31 دار الكتب .

أبــوه أبــو العــاصى اذا الحـــرب شمــرت
مــراهـــا بمسنــون الفــراريـــن منجـــل
وقــور اذا هــاجــت بــه الحــرب مرجــم
صبـــور عليهـــا غيــر نكـــس مهـلـــل
أقــــام لاهـــل الارض ديـــن محمـــد
وقــد ادبـــروا وارتــــاب كـل مضلـــل
فمــا زال حتـــى قـــوم الـــديـــن سيفـــه
وعــز بحـــزم كـل قـرم محجـــل (٨٩)
وغــــادر اهـــل الشــك شتـــى فمنهـــم
قتيــل ونــــاج فـــوق أجـــرد هيكـــل
نجــا من رمــاح القــوم قدمــا وقــد بـــدا
تبــاشيـــــره فـــى العــارض المتهلـــل

وحبذا بعد ذلك عندهم ان يكون قائدهم مجاهدا يأبى عليه اسلامه وجهاده الآ ان يدمر القلاع والحصون، اذا كانت ممتنعة او تستجيب له ويكبر فيها تكبيرة التوحيد (90) :

تلــك الفتـــوح التـــى تــدلـــى بحجتهـــا
علـــى الخليفـــة أنـــا معشـــر حشـــد
لم تثـــن وجهـــك عـــن قـــوم غـــزوتهـــم
حتـــى يقـــال لهـــم : بعـــدا وقـــد بعـــدوا
لـــم تــرض من حصنهـــم ان كـــان ممتنعـــا
حتـــى يكبـــر فيـــه الـــواحـــد الصمـــد

وانتصار القائد او الأمير انما هو في الواقع انتصار للمسلمين وكل حكم يصدره فانما هو قصاص وعدل (91) :

(89) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس
(90) الطبرى 5/272 .
(91) نفس المصدر 5/240 .

اراك اللـــه فـــى الاتـــراك حكمـــا
كحكـــم فـــى قـــريضـــة والنضيـــر
قضـــاء مـــن قتيبـــة غيـــر جـــور
بـــه يشفـــى الغليـــل مـــن الصـــدور

ونرى الشاعر يجمع بين رفعة نسب ممدوحه وحسن بلائه في تعزيز الدين ورتق فتوقه كقول الشاعر في يزيد بن المهلب (92) :

شديد القوى (٩٣) من اهـل بيـت اذا وهـى
مـن الـديـن فتـق حمـلوا فأطاقـوا

والى جانب هذا اللون من المديح، لون آخر يكاد يكون بعيدا عن ان يوصف به القواد وابطال الحروب اذ يوصف الممدوح بالوفاء واليسر واستعمال المسك وكثرة التطيب به، كقول الشمردل (94) :

اذا غـدا المسـك يجـرى فى مفـارقهـم
راحـوا تخالهـم مـرضى مـن الكـرم

وأخرج ابو جلدة الشاعر هذا المعنى اخراجا دقيقا وبديعا حين قال (95) :

انـى لامـدح اقـوامـا ذوى حسـب
لـم يجعـل اللـه فـى أقـوالهـم قذعـا
الطيبيـن علـى العـلات معجمـة
لـو يعصـر المسـك من أطـرافهـم نبعـا

على اننا قد نجد ضربا من المديح يختلف عن الضروب السابقة قليلا او كثيرا وذلك لأن اصحابه الذين ينظمونه في الأغلب ممن يعدون الشعر بضاعة،

(92) الاغانى 100/13 دار الكتب .
(93) شديد القوى : شديد الخلق
(94) سمط اللآلى 43/1 .
(95) الاغانى 314/11 دار الكتب .

وفي مثل هذا الحال لا يخرج المديح عن ان يكون استجداء وطلبا لمعونة كقول القشيري لعبد الله بن الحشرج (96) :

أخ وابـــن عـــم جـاءكـــم متحـــرمـــا
بكـــم فاربـــأوا (٩٧) خـــلاتـــه يا بن حشـــرج
فأنـــت ابـــن ورد ســـدت غيـــر مـــدافـــع
معـــدا علـــى رغـــم المنـــوط (٩٨) المعبهـــج
فبـــرزت عفـــوا اذ جريـــت ابـــن حشـــرج
وجـــاء سكيتـــا كـــل أعقـــد أفحـــج(٩٩)
بـــورد بـــن عمـــرو فتهـــم ان مثلهـــم
قليـــل ومن يشـــر المحـــامد يفلـــج (١٠٠)
هو الـــواهب الامـــوال والمشترى اللهـــا (١٠١)
وضـــراب رأس المستميـــت المـــدجـــج

ومثل هذا اللون من المديح ظاهر التكلف واضح التعمل. ونجد في بعض الأحيان شعرا، وان كان يقصد من ورائه التكسب، الا انه خفيف الجرس يستسيغه السمع كقول زياد الأعجم في عبدالله بن الحشرج (102) :

ســـألنـــاه الجـــزيـــل فمـــا تلكـــا
فـــأعطـــى فـــوق منيتـــنـــا وزادا
وأحســـن ثـــم أحســـن ثـــم عـــدنـــا
فـــأحســـن ثـــم عـــدت لـــه فعـــادا

---

(96) نفس المصدر 12/24 ، 25 .
(97) فاربأوا حاجاته : أصلحوها
(98) المنوط : الدخيل والمعبهج : الأحمق
(99) السكيت : آخر خيل الحلبة ، والأعقد الملتصق الذنب ، والأفحج : المتفرق الرجلين
(100) يفلج : يظفر
(101) اللها : لحمة الحق كناية عن المدح والثناء .
(102) معجم الادباء 4/222 .

مــــرارا لا اعـــــود الــيـــــه الا
تبســـم ضـــاحكـــا وثنـــى الوســـادا

فالمعنى كما ترى مألوف وهو ان صاحبه جواد كريم يعطي ويبتسم، ويقول انه تردد عليه أكثر من مرة يسأله فيجيبه الى مسألته، ولا يتأبى عليه. غير ان الأسلوب الذي عرض به الشاعر هذا المعنى ثم سهولة اللفظ والبحر الذي اختاره كل ذلك اكسب هذه المقطوعة خفة على الأذن يستسيغها السمع وتطرب لها النفس.

ولعلنا نلاحظ انه كان بخراسان، من الولاة من كان ينفس على من سبقه من الولاة لما قاله فيه الشعراء من مديح. وليس هذا بغريب ما دمنا نعلم ان بين بعض الولاة في خراسان مايمكن ان نسميه صراعا من اجل السلطة وهو في كثير من الأحيان يكاد يكون مظهرا من مظاهر الصراع القبلي. ومن هنا جاء التحاسد والتنافس، وشاهدنا قتيبة بن مسلم الباهلي لما فتح الله على يديه مدينة سمرقند يدعو نهار بن توسعة ليسأله في شيء من العتاب عما قاله في المهلب (103). ونرى بعض الشعراء يضيفون الى مدائحهم ضربا من التعريض والطعن في الخصوم كما فعل كعب الأشقري حينما مدح المهالبة وعرض بغيرهم أكثر من مرة ، من ذلك قوله (104) :

فـدى لكـم آل المهلـب أسـرتـي
ومـا كنـت أحـوى من سـوام وأجمـع
فليـس امـرؤ يبنـي العلـى بسنانـه
كـآخـر يبنـى بـالسـواد ويـزرع

ومثل قوله ايضا من قصيدته التي مدح بها المهلب (105) :

صنـائعنـا السـوابـغ والمـذاكـى
ومـن بـالمصـر يحتلـب العشـارا

(103) كتاب الامالى 2/198 فما بعدها ، الكامل لابن الاثير 4/128 .
(104) معجم البلدان 3/91 .
(105) الاغانى 14/296 دار الكتب .

وما ان شالت كفة بني المهلب وجاء بعدهم قتيبة بن مسلم حتى راينا كعبا يسلك معه نفس الطريقة اعجابا ببطولته على نحو ما تصور ذلك قصيدته الفائية التي يمدحه بها حين فتح مدينة فيل. وكان تعريضه فيها ببني المهلب تعريضا واضحا يقول (106) :

أنتـــم بشـــاش وهبـــوذان مختبـــر
وبسخـــرة وبنـــوس حشـــوهـــا القلـــف
لم يـــركبـــوا الخيـــل الا بعـــد ما كبـــروا
فهـــم ثقـــال علـــى اكتـــافهـــا عنـــف

وهو يقصد بتعريضه هذا ابن المهلب لان يزيد قبل عزله حاول فتح مدينة خوارزم فاستعصت عليه (107). ونرى ابا جلدة لادمانه الخمر يمدح بعض الولاة بأنه يشرب الخمر ويكثر الادمان عليها (108) :

كريمـــا علـــى عـــلاتـــه يبـــذل النـــدى
ويشـــربهـــا صهبـــاء طيبـــة النشـــر
معتقـــة كالمســـك يذهـــب ريحهـــا الـــز
كـــام ويـــدعـــو المـــرء للجـــود بالوفـــر
وان سليمـــان بـــن عمـــرو بـــن مـــرثـــد
تألـــى يمينـــا ان يـــريش ولا يبـــرى (١٠٩)
فهمتـــه بـــذل النـــدى وابتنـــا العلـــى
وضرب طلى الابطال فى الحرب بالبتـــر (١١٠)
وفـــى الامـــن لا ينفـــك يحســـو مدامـــة
اذا مـــا دجـــا ليـــل الـــى وضـــح الفجـــر

---

(106) معجم البلدان 3/387 .
(107) الاغانى 14/299 دار الكتب
(108) نفس المصدر 11/322 .
(109) أن يريش ولا يبرى : أى يصلح الحال ولا يضر أحدا
(110) الطلى : الاعناق :

وأظهر الشاعر انه لا يعبر دائما في مديحه عن مبدإ ورأي وانما هو في الغالب شعور الساعة واحساس عارض يذهب بذهاب وقته، فمثلا نهار ابن توسعة نراه يحث قتيبة على الفتك بمن بلغه عنهم انهم يسعون للثورة عليه، ومنهم وكيع بن أبي سود فيقول له (111) :

تنمر وشمر يا قتيب بن مسلم
فان تميما ظالم وابن ظالم
ولا تأمنن الثائرين ولا تنم
فان أخا الهيجاء ليس بنائم
ولا تثقن بالازد فالغدر منهم
وبكر فمنهم مستحل المحارم
وانى لاخشى يا قتيب عليكم
معرة يوم مثل يوم ابن خازم

ولكننا نجده بعد ان قتل قتيبة يشمت به ويصفه بالتجبر (112) :

ولما رأينا الباهلى ابن مسلم
تجبر عممناه عضبا مهندا

ورأيناه بعد ذلك يمدح من كان يحرض عليه بالأمس (113) :

أراد بنو عمرو لنهلك ضيعة
فقد تركت اجسادهم بمضيع
ستبلغ اهل الشام عنا وقيعة
صفا ذكرها للحنظلى وكيع

(111) النقائض 359 .
(112) نفس المصدر ص 364 ، والطبرى 5/283 .
(113) النقائض ص 364 .

وقـد اسنـــدت اهـل العـراق أمـورهـــا
الـــى حـــامـل مـا حملـــوه منيـــع
له رايـــة بالثغـــر ســـوداء لـم تـــزل
تقـــض بهـــا للمشـــركيـــن جمـــوع
مبـــاركـــة تهـــدى الجنـــود كانهـــا
عقـــاب نحـــت مـن ريشهـــا لوقـــوع
على طـــاعة المهـــدى لم يبـــق غيـرهـــا
فـــأبنـــا وأمـــر المسلميـــن جميـــع
على خيـــر ما كـــانـــت تكـــون جمـاعـــة
على الـــديـــن ذدنـــا ليـــس فيه صـــدوع

ومثل نهار في هذا التقلب، كعب الأشقري الذي كان يعتبر نفسه شاعر الأزد ولسان آل المهلب، ومع ذلك فانه لم يلبث بعد ان خرج المهالبة من خراسان، ان انقلب عليهم واخذ يسلقهم بلسانه. وما اسهل على الشاعر إذا ما أحس بانه وقع فيما لا يسره ان يتنصل مما اوقعه فيه لسانه كالذي حصل للحضين مع قتيبة (114) وثابت قطنة مع سعيد خذينة (115) وهكذا نرى الشاعر في كثير من الأحيان يعرف كيف يخرج نفسه ويقيها زلات لسانه. على اننا لا نعدم من بين الشعراء من اعطى الوفاء حقه ولم يجد النكران الى قلبه سبيلا. فهذا ثابت قطنة كان شاعرا من شعراء المهالبة وسيفا من سيوفهم فلما دالت دولتهم وتخطفتهم سيوف بني امية، رأيناه يثبت على عهده ويرثيهم رثاء حارا (116). الا أن الذي ينبغي الا ننساه ونحن ندرس أدب هذه الفترة التي حكم فيها الأمويون بلاد خراسان أن أغلب شعرائها كانوا صادقين في مديحهم إذ كان الشاعر يتجاوب في مديحه مع أحداث عصره ويتفاعل معها شعوريا وبالتالي فان مدحه انما هو، في الواقع، وصف لتجربة

(114) الطبرى 193/5 .
(115) الاغانى 271/14 .
(116) أمالى المرتضى 68/2 ، خزانة الادب 184/4 .

عاشها فجاء مديحه نتيجة لذلك مدحا ينبع من اعماق روحه مختلفا اختلافا بينا عن المدح التقليدي الذي نشاهده عند عامة الشعراء المحترفين ممن يتكسبون بشعرهم اذ يمدحون دون ان يكونوا قد رأوا الأحداث او عاشوا ظروفها. وكان الشاعر الخراساني اذا ما تكلم انما يتكلم بلسان قبيلته مشاركا لها في المسؤولية ومتحملا الكثير من اعبائها (117) :

كريمـــة قـــوم حملـونـــي مجـدهـــم
وانـــي علـــى أمثـــال تلـك لحـــامـــل

ويقول آخر (118) :

لعمـرك ما استخلفـــت بكـــرا ليشغبـــوا
علـى ومـا فـــى خلفكـــم مـــن معلـــق
ضممتكـــم ضمـــا الـــى وأنـــتـــم
شتـــات كفقـــع القـــاعـــة المتفـــرق

نقول هذا ونحن نعلم ان في شعراء خراسان من كان محترفا غير أن مديحه على الرغم من ذلك، يتساوق فيه حسن اللفظ وجودة المعنى كقول زياد الأعجم في مدح عمر بن عبيد الله بن معمر (119) :

أخ لـــك ليـــس خلتـــه بمـــذخ (١٢٠)
اذا مـــا عـــاد فقـــر أخيـــه عـــادا
أخ لـــك لا تـــراه الـــدهـــر الا
علـــى العـــلات بســامـــا جـــوادا

وكان كثير من هؤلاء المادحين فرسانا يشتركون مع الممدوحين في

(117) النقائض ص 369 .
(118) الاغانى 14/280 دار الكتب .
(119) شرح ديوان الحماسة 4/298 .
(120) المذخ : عسل فى زهر الرمان البرى .

حروبهم ولذلك نجد في مديحهم حيوية قوية، من مثل قول كعب الأشقري يمدح المهلب بعد انتصاره على الخوارج (121) :

نسقى ونسقيهم سما على حنق
مستأنفى الليل (١٢٢) حتى أسفر السحر
قتلى هنالك لا عقل ولا قود
منا ومنهم دماء سفكها هدر
باتت كتائبنا تردى مسومة
حول المهلب حتى نور القمر
صلت الجبين طويل الباع ذو قرح (١٢٣)
ضخم الدسيعة لا وان ولا غمر
مجرب الحرب ميمون نقيبته
لا يستخف ولا من رأيه البطر
وشيخنا حوله منا ململمة
حى من الازد فيما نابهم صبر
فى معرك تحسب القتلى بساحته
اعجاز نخل زفته الريح ينقعر

ففي مثل هذا المديح تشعر أن الشاعر يعيش مع صاحبه تجربته القاسية . ويقاسمه حلوها وكأنه في حقيقة الأمر يفخر بنفسه ويشيد بذكره. ولقد استطاع المغيرة ابن حبناء أن يجاري كعب الأشقري في مثل هذا اللون من المديح بالرغم من ان المغيرة تميمي يختلف مع المهلب وكعب الأشقري في العصبية ، غير أن البطولة التي جمعت بين المغيرة وبين المهلب وما كان يشاهده معه في حروبه ومغازيه، كل ذلك جعله يعيش نفس الاحساس والشعور من مثل قوله في المهلب (124) :

(121) الطبرى 5/124 ، 125 .
(122) مستأنفى الليل : مبتدئى الليل
(123) ذو قرح : من معانيه : صاحب الجروح المتقادمة بسبب كثرة الحروب
(124) الاغانى 13/86 ، 87 دار الكتب .

امسى العباد بشر لاغياث لهم
الا المهلب ، بعد الله ، والمطر
هذا يذود ويحمى عن ذمارهم
وذا يعيش به الانعام والشجر
واستسلم الناس اذ حل العدو بهم
فلا ربيعتهم ترجى ولا مضر
وأنت رأس لاهل الدين منتخب
والرأس فيه يكون السمع والبصر
شهاب حرب اذا حلت بساحته
يجزى به الله اقواما اذا غدروا
سهل اليهم حليم عن مجاهلهم
كأنما بينهم عثمان أو عمر
كهف يلوذون من ذل الحياة به
اذا تكنفهم من هولها ضرر

والمغيرة في هذا النظام يسترسل مع سجيته وطبعه دون تفكر أو اعمال نظاره ومن هذا القبيل ما نقرأه لسحبان وائل في قتيبة بعد وقعة خجندة (125) :

هذا وانت قريع قيس كلهم ضخم النوال
وفضلت قيسا فى الندى وأبوك فى الحجج الخوالى
ولقد تبين عدل حكمك فيهم فى كل حال
تمت مروءتكم وناغى عزكم غلب الجبال

وهو شعر يمتاز بعاطفة صادقة تجري على سجيتها ولذلك جاء وعليه مسحة خطابية. وكان لهذا الصدق في التعبير أثره في بعض الأمراء الذين راحوا يتخذون من الشعر الخراساني مثالا للجودة ويطالبون بعض شعرائهم بأن ينظموا على شاكلته كما حصل للحسن بن مطير حين مدح معن بن زائدة إذ

(125) الطبرى 5/257 ، 258 .

ذكروا أن معنا قال له ليس هذا بمدح إنما المدح ما يقول نهار بن توسعة في مسمع بن مالك (126) :

قلدتـــه عـــرى الامـــور نـــزار
قبـــل ان تهلـــك الســـراة البحـــور

وكذلك ذكروا أن الخليفة أبا جعفر المنصور قال لابن هرمة حين زعم أنه مدحه بشعر لم يمدح بمثله أحد من قبله فقال له المنصور وما عسى أن تقول في بعد قول كعب الأشقري في المهلب وأنشد له بيتين من رائيته (127). أما عبد الملك بن مروان فانه نعى على الشعراء الذين يمدحونه أنهم يشبهونه مرة بالأسد والبازي وأخرى بالجبل الوعر والبحر الأجاج وقال : ألا قلتم كما قال الأشقري في المهلب ووالده، وأنشد (128) :

بـــراك اللـــه حيـن بـــراك بحـــرا
وفجـــر منـــك انهـــار غـــزارا
بنـــوك السـابقـــون الـــى المعـــالى
اذا مـــا أعظـــم النـــاس الخطـــارا
كـــأنهـــم نجـــوم حـــول بـــدر
دراري تكـــمـــل فـــاستـــدارا
ملـــوك ينـــزلـــون بكـــل ثغـــر
اذا مـــا الهـــام يـــوم الـــروع طـــارا
رزان فـــى الامـــور تـــرى عليهـــم
مـــن الشيـــخ الشمـــائـــل والنجـــارا
نجـــوم يهتـــدى بهـــم اذا مـــا
أخـــو الظلمـــاء فـــى الغمـــرات حـــارا

---

(126) الخزانة 480/2 ، الاغانى 111/14 ساسى .
(127) معجم الشعراء ص 236 ، 237 .
(128) الاغانى 286/14ـ287 ، دار الكتب وشرح المقامات 287/2 وفيه « دجوجى » بدل درارى .

وعندي ان عبد الملك بن مروان كان واهما حين طلب من الشعراء أن ينهجوا نهج الأشقرى في المهلب، ذلك أن مثل هذا الطلب من العسير تحقيقه لان فيه كلفة ومشقة، ومتى كان عبد الملك شبيها بالمهلب في بلائه حين تصدى لحرب الخوارج وخاض معهم تلك الحروب الهائلة واستطاع أن يدحرهم وينتصر عليهم بعد ما كادت تزيغ قلوب فريق من المسلمين. وقل مثل ذلك بالنسبة للشعراء الذين مدحوا عبد الملك فلم يكونوا كالاشقرى نجدة وفروسية وبأسا ولا كانوا مثله مع المهلب حين تدنو الصفوف من الصفوف وإنما هم على وجه العموم، شعراء محترفون يتخذون من الشعر بضاعة يتقوتون منها. ومن هنا جاء البون الشاسع بين عبد الملك وبين المهلب من جهة، وبين شعراء الخلافة وكعب الأشقري من جهة أخرى.

وقبل ان أترك هذا الموضوع ألاحظ أن صفات المدح الخراساني بالنسبة للشعراء كانت صفات حقيقية في الممدوحين لأن معظمهم من الأمراء والقواد الذين يمثلون القدوة الصالحة في المجتمع الخراساني. ومن هنا يمكن أن نلاحظ هذا التلاقي الحقيقي بين الصدق الواقعي والصدق الفني وما ينتج عنهما عادة، من الجودة والابداع. ولذلك ما أحسب أن أحدا ينكر على الشاعر الخراساني مدحه لولاته وقواده ووصفهم بأنهم يجمعون بين الكرم والشجاعة وتوفير النفل واكثار الغنائم، لأننا نعلم أن في خراسان من الولاة من كان الجود له عادة فوهب وأعطى حتى أعطى منشفته وطلق من أجل ذلك زوجه على صنيعه كما فعل عبدالله بن الحشرج (129)، وإذا كنا نرى الشاعر الخراساني يمدح الأمير بكثرة المغازي والإثخان في العدوّ من أجل رفع كلمة الاسلام وتوفير الغنيمة للمسلمين، فلا ينبغي لنا أن نشك في صحة هذا الشعر. وأي وال أو أمير من الأمراء الذين عرفتهم بلاد خراسان لم يجاهد العدو ولم يبلغ فيه مبلغا ؟. ولذلك أكاد أذهب الى أن الشعر العربي في خراسان لم يعرف

(129) الاغاني 29/12 دار الكتب .

في بعض الوقائع الحاسمة حق هؤلاء القواد ولم يوفهم نصيبهم من المديح مثل الوقعة التي كانت بين أسد بن عبد الله القسري وبين خاقان الترك فان هذا الانتصار لم ينل في رأينا حظه الواجب في الشعر العربي بالبلاد الأرانية.

3) الـرثــاء

سبق أن قلنا ان المجتمع العربي في خراسان كان مجتمعا يقوم على العصبية القبلية، وكان لأطماع القبائل في أموال هذه الولاية وطموح بعض الأمراء والقواد أكبر الأثر في اشتداد الصراع فتفرقت بذلك كلمتهم وغدوا مجموعات متكالبة على السلطة، واتخذ هذا اللون من الصراع صورة الدس أحيانا والسعاية أحيانا أخرى كالذي حصل ليزيد بن المهلب حين أفسد إخوته عليه صدر الحجاج وكالذي حدث أيضا لبني الأهتم على يد قتيبة نتيجة لسعاية أحدهم به عند الحجاج. واذا كانت روح الحقد والأنانية قد وجدت طريقها بين أبناء الأسرة الواحدة فما بالك بالنسبة للمجموعات القبلية الكبيرة التي يقف بعضها في وجه بعض ويعلو الثأر عندها على كل اعتبار، لذلك كثرت الفتن الداخلية والحروب الأهلية وتفشى القتل بين الوجوه والروساء واستتبع وجود أمثال هذه المآسي، ازدهار شعر الرثاء وكان أغلب ما قيل من الرثاء إنما جاء نتيجة لهذا السفك والتقتيل. ومن أبرز الأمراء القواد في خراسان عبدالله ابن خازم، ثم قتيبة بن مسلم، وكلاهما قتل بحد السيف وعلى مذبح العصبية (130)، وقتل يزيد بن المهلب بنفس الطريقة ولم يكن قتله بخراسان غير أن صدى قتله تردد في هذه الولاية حيث قبيلته الأزد وشاعرها ثابت قطنة. ولا شك أن تقتيل هؤلاء القواد على هذا النحو أضعف السلطان العربي هنالك وفي نفس الوقت أغنى الشعر الأيراني بفرائد من قصائد الرثاء. كما أن حركات الفتح العربي واستشهاد بعض الذين اشتركوا في هذه الحروب بعث قرائح الشعراء على أن يدبجوا القصائد الطوال كما رأينا ذلك عند طائفة منهم مثل ابن الغريزة والشمردل بن شريك، ونحن حينما ندرس هذا اللون

---

(130) الطبرى 22/5 ، 281 .

من الشعر، نلاحظ أن المعاني التي اشتمل عليها مألوفة يستقيها الشاعر من واقعه، ومن حياة من يرثيه، فهذا ابن الغريزة، وهو أحد الجنود الفاتحين لبلاد خراسان، يرثي زمرة من اصحابه الذين ماتوا في موقعة الجوزجان فيذكر على الرغم من نجدته وبأسه أنه وجد نفسه في موقف من لا يستطيع دفع أمر قضى به القدر، ولا راد لحكمه واذا كان له من شيء يستطيع ان يفعله فانما هو التأسي والعزاء وانه لن يطول به الأجل حتى يلحق بمن افتقدهم من صحابته، وما الانسان في هذه الحياة الا عابر سبيل كل ما يملكه من زاد دمعة يذرفها ودعوة يرسلها. وقد استهل قصيدته بالدعاء لأصحابه واستنزال الغيث لسقي مصارعهم، يقول : (131)

سقى مزن السحاب اذا استهلت
مصارع فتية بالجوزجان
الى القصرين من رستاق خوط
أقادهم هناك الاقرعان

وابن الغريزة في هذه القصيدة يذكر البرق اليماني فتستثار في نفسه ذكريات أيامه الماضيات فيعلل نفسه بأمل الرجوع الى مواطن الأهل ومرابع الأحباب ويجزع لفقدان رفقته فيعزيه عنهم شعوره بأنه على أثرهم تابع :

وما بى ان اكون جزعت الا
حنين القلب للبرق اليمانى
ومحبور برؤيتنا يرجى اللقاء
ولا أراه ولا يرانى
فلا تستبعدا يومى فانى
سأوشك مرة ان تفقدانى

وهو لا يبالي عذل العاذلات ما دام الموت آتيا لا ريب فيه (132) :

---

(131) الاغانى 278/11 دار الكتب .
(132) الاغانى 280/11 دار الكتب .

أعـــاذلتـــى صـــوتكمـــا قـــريـــب
ونفعكمـــا بعيـــد الخيـــر وانـــى

نـــردا المـــوت عنـــى ان اتـــانـــى
ولا وأبيكـــمـــا لا تفـــعـــلان

وانظر بعد ذلك الى ما رثى به الشمردل أخويه اللذين قتلا في بعض حروب الفتح فانك تجده يلتقي مع ابن الغريزة من حيث الطابع العام وهو الاستسلام الى الأسى والحزن، والشعور بالضيق الذي يكشف عن روح جريحة، ويظهر الأسى والالتياع واضحا جليا في مثل قوله (133) :

أقـــول اذا عـــزيـــت نفســـى باخـــوة
مضـــوا لا ضعـــاف فـــى الحيـــاة ولا عـــزل

أبـــى المـــوت الا فجـــع كـــل بنـــى أب
سيمســـون شتـــى غيـــر مجتمعـــى الشمـــل

سبيـــل حبيبـــى اللـــذيـــن تبـــرضـــا
دمـــوعـــى حتـــى أســـرع الحـــزن فى عقلـــى

فعينـــى ان أخضلتمـــا بعـــد وائـــل
وصـــاحبـــه دمعـــا فعـــودا علـــى الفضـــل

وهو شعر صادر عن قلب مملوء بالأسى والألم يشعر صاحبه انه افتقد من كان له سندا وركنا يأوي اليه في الملمات. ورثى الشمردل أخاه وائلا بقصيدة لا أجدني مبالغا إذا قلت إنها من عيون الشعر العربي وليس لها ما يضاهيها غير قصيدة زياد الأعجم التي رثى بها المغيرة بن المهلب مع وجود فارق بينهما وهو ما يحدث عادة بين من يرثي أخاه ويبكي حظه من حياته التعسة وبين من يرثي فقيدا بعيدا عنه لا يجتمع وإياه في عصبية أو نسب وكل ما كان يرجوه منه أن يجد فيه ملاذه الذي يلوذ به وقت الحاجة، وهو مهما اجتهد

---

(133) المصدر نفسه 352/13 .

في رثائه وبلغ من الجودة ما بلغ فلن يستطيع أن يصف النوازع النفسية ودواخل الروح بما فيها من الحزن الكامن المرير، وهو حزن لا يجد معه صاحبه الا الاستسلام لقضاء الله والاصطبار على ما ابتلاه به، من مثل قول الشمردل (134):

لعمرى لئن غالت أخى دار فرقة
وآب الينا سيفه وحمائله
وحلت به اثقالها الارض وانتهى
بمثواه منها وهو عف مآكله
لقد ضمنت جلد القوى(١٣٥) كان يتقى
به جانب الثغر المخوف زلازله
أقول وقد رجمت عنه فأسرعت
الى باخبار اليقين محاصله
الى الله أشكو لا الى الناس فقده
ولوعة حزن أوجع القلب داخله
وتحقيق رؤيا فى المنام رأيتها
فكان أخى رمحا ترفض عامله (١٣٦)
سقى جدثا اعراف غمرة دونه
ببيشة ديمات الربيع ووابله

وهي قصيدة جيدة اللفظ والمعنى جميعا تدل على صدق الشمردل في وصف مصابه ومدى ما يكنه لاخوته من حب ووفاء ويلتقي في هذا الشعور بنهار بن توسعة في رثائه لأخيه عتبان، إذ يقول (137) :

عتبان قد كنت امرءا لى جانب
حتى رزئتك والجدود تضعضع

(134) أمالى اليزيدى ص 32 .
(135) جلد القوى : قوى الخلق .
(136) ترفض عامله : تكسر سنانه
(137) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ط حجازى 8/3 .

قـد كنـت اشـوس فـى المقـامـة سـادرا
فنظـرت قصـدى واستقام الاخـدع (١٣٨)
وفقـدت اخـوانى الـذيـن يعيشهـم
قـد كنـت أعطـى مـا أشـاء وأمنـع
فلمـن أقـول اذا تلـم ملـمـة
أرنـى بـرأيـك أم الـى مـن أفـزع
وليـأتيـن عليـك يـوم مـرة
يبكـى عليـك مقنعـا لا تسمـع

ونهار في هذا الشعر ، مثل الشمردل، يذكر المصاب الفادح الذي رزىء به فصيره عاجزا كالكسيح لا حول له ولا قوة وكان من قبل أشوس سادرا كالليث لا تروعه الأيام ولا ترهبه الأحداث أما الان، وبعد أن فقد أخاه، فان دموعه لن تجف اذ عدم الحامي وعز النصير، واذا كان له من عزاء فذلك أنه سائر على نفس السبيل :

فلمـن أقـول اذا تلـم ملـمـة
أرنـى بـرأيـك أم الـى مـن أفـزع
وليـأتيـن عليـك يـوم مـرة
يبكـى عليـك مقنعـا لا تسمـع

وانظر بعد ذلك الى الرثاء الذي قيل في بعض القواد والرجال المشهورين في بلاد ايران ممن تخطفهم الموت في أيام السلم فانك تجد هذا الرثاء يتناول حياة هذا الفقيد أو ذاك بذكر فضله وجهاده ونكايته في العدو، وانه كان جوادا كريما يكثر الغنائم ويوفر الفيء وما ان خلت منه البلاد حتى اضمحل كل شيء وتلاشى ، من ذلك ما يقوله نهار بن توسعة في رثاء المهلب بن أبي صفرة (139) :

(138) الأخدع : عرق بصفحة العنق ، والمعنى أنه لان واستقام بعد الكبر والشدة
(139) الطبرى 162/5 .

الا ذهــب الغــزو المقــرب للغنــى
ومــات النــدى والجــود بعــد المهلــب
أقامــا بمــرو الــروذ رهنــى ضــريحــة
وقــد غيبــا عــن كل شــرق ومغــرب
اذا قيــل اى النــاس اولــى بنعمــة
علــى النــاس قلنــاهــا ولــم نتهيــب
أبــاح لنــا سهــل البــلاد وحــزنهــا
بخيــل كــأرســال القطــا المتســرب

فالغزو والجهاد وتوفير الغنائم وشيوع الجود والكرم كل ذلك يراه الشاعر قد ذهب وولى بذهاب صاحبه، وقريب من قول نهار ما يقوله زياد الأعجم في رثائه للمغيرة بن المهلب فقد عدد زياد فضائل المغيرة في الحروب و حسن قيادته للجيوش كما تعرض بالوصف لما كان له من عظيم الصولة ونداوة اليد وكأنه كان شهابا مسلطا على الكافرين والمنافقين فلما ذهب رجفت لمصرعه البلاد وبكته الجياد الصافنات. وما جدوى عتاق الخيل بعده، إنه لحري أن تعقر على قبره ويعقر الى جانبها كل ناقة من الكوم الهجان (140) :

قــل للقــوافــل والغــزاة اذا غــزوا
للبــاكــريــن وللمجــد الــرائــح
ان السمــاحــة والمــروؤة ضمنــا
قبــرا بمــرو علــى الطــريــق الواضــح
فاذا مــررت بقبــره فاعقــر بــه
كــوم الهجــان وكــل طــرف سابــح
الأن لمــا كنــت أكمــل مــن مشــى
وافتــر نــابــك عــن شبــاة القــارح
وتكــاملــت فيــك المــروؤة كلهــا
وأعنــت ذلــك بالفعــال الصالــح

(140) ذيل الامالى ص 8 فما بعدها ، وفيات الاعيان 4/435 فما بعدها .

فكفـــى لنـــا حـــزنـــا ببيـــت حلـــه
احـــدى المنـــون فليـس عنـــه ببـــارح

فعفـــت منـــابـــره وحـــط ســروجـــه
عـــن كـــل طـــامحـــة وطـــرف طـــامح

أما سوادة بن عبدالله السلولي فانه حين رثى هبيرة بن مشمرج، وقد مات في طريقه من ايران الى دار الخلافة بدمشق لم نجده يخرج عن مألوف الرثاء في وصفه بالربيع إذا السنون تتابعت و بالليث اذا تكعكعت الأبطال في ساحة القتال وقد أشار في رثائه بأنه كان صاحب بديهة حاضرة في المحافل العظام. يقول (141) :

للـــه قبـــر هبيـــرة بـــن مشمـــرج
مـــاذا ـ تضمـــن ـ مـــن نـــدى وجمـــال

وبـــديهـــة يعيـــا بهـــا ابنـــاؤهـــا
عنـــد احتفـــال مشـــاهـــد الاقـــوال

كـــان الـــربيـــع اذا السنـــون تتـــابعـــت
والليـــث عنـــد تكعكـــع الابطـــال (١٤٢)

فسقـــت بقـــريـــة حيـــث أمســـى قبـــره
غـــر يـــرحـــن بمسبـــل هطـــال

بكـــت الجيـــاد الصـــافنـــات لفقـــده
وبكـــاه كـــل مثـــقـــف عســـال

ويبدو أن سوادة لم يغال حين قال هذا الشعر إذ لا شك أن هبيرة كان من رجالات العرب وفرسانهم لعهد قتيبة. وهكذا نرى أن هذا النحو من الرثاء لا يخرج عن أن يكون ثناء على الميت وذكرا لفضله وخطره. أما إذا كان موت المرثى نتيجة لفتنة داخلية وصراع من أجل العصبية فان الشاعر في مثل هذه الحال يختلف باختلاف الموقف الذي يحف به. فالحرشي بن هلال

---

(141) الطبرى 5/271 ، الكامل لابن الاثير 4/136 .
(142) تكعكع الأبطال : احتبسوا عن وجوههم وجبنوا

لما سمع بمصرع أصحابه من بني تميم في فتنة عبدالله بن خازم، رأيناه في رثائه لهم لم ينس ما بذله من جهد حربيّ للقضاء على ابن خازم إذ قاتله حتى تبددت عنه الرجال وماذا يصنع رجل بقي وحده في ميدان القتال، وقد عض سيفه كبش القوم ولكن القدر حال بينه وبين الفتك به فأفلت من بين يديه ليراه بعد ذلك يقتل أصحابه الواحد تلو الاخر وهو لا يستطيع إزاءه أن يفعل شيئا سوى أن يستنزف دمعه حسرة ولوعة، يقول (143) :

أعاذل انى لم ألم فى قتالهم
وقد عض سيفى كبشهم ثم صمما
أعاذل ما وليت حتى تبددت
رجال وحتى لم أجد متقدما
أعاذل افنانى السلاح ومن يطل
مقارعة الابطال يرجع مكلما
أعينى ان انزفتما الدمع فاسكبا
دما لازما لى دون ان تسكبا الدماء
أبعد زهير وابن بشر تتابعا
وورد أرجى فى خراسان مغنما
أعاذل كم من يوم حرب شهدته
أكر اذا ما فارس السوء احجما

ولا شك أنك لاحظت أن في هذا الشعر روحا خطابية تبدو جلية في تكرار بعض كلمات هذه المقطوعة أكثر من مرة وهو رثاء يصدر عن أمثال الحرشي في قوته وصلابة شكيمته. وفي مثل هذه المواقف بالنسبة للشعراء تراهم كثيرا ما يعللون أنفسهم بالثأر والتشفي كقول عبد الله بن خازم في رثاء ابنه محمد(144) :

أعزى عليه والعزاء سجيتى
وما انا بالآسى على حدث الدهر

(143) الطبرى : 548/4
(144) ابن عساكر 377/7 .

فــلا صلـــح بينـــى مـــا حييـــت وبينكـــم
تميـــم بـــن مر او أفـــى بكـــم وتـــــرى

ولعل هذا النحو من القتل في أيام الفتن والحروب الداخلية، من أشد المصائب على النفوس لأنه لم يحدث نتيجة جهاد للأعداء، وانما حدث نتيجة خلاف بين العرب ما كان ينبغي أن يحدث (145):

ذكـــرت أخـــى والخلـــو ممـــا اصابنـــى
يغـــط (١٤٦) ولا يـــدرى بما فـــى الجوانـــح
دعتـــه المنـــايـــا فاستجـــاب دعـــاءهـــا
وارغـــم أنفـــى للعـــدو المكـــاشـــح
فلـــو نالـــه المقـــدار فى يـــوم غـــارة
صبـــرت ولـــم أجـــزع لنـــوح النـــوائـــح
بكـــف امـــرىء كـــز (١٤٧) قصيـــرنجـــاده
خبيـــث نثـــاه (١٤٨) عـــرضـــة للفضـــائـــح

وكم يطول الليل عند هؤلاء وكم يشتد بهم السهد والسهر تلهفا على القتيل وأسفا عليه لأن قومه لم يحضروا مصرعه، ولو أنهم كانوا شهودا لدافعوا عنه ولردوا عنه كيد الكائدين ولكنهم كانوا غائبين فعقر الأسد ولم يبق بعده إلا الكلاب النابحة (149) :

أليلتـــنـــا بنيســـابـــور ردى
علـــى الصبـــح ويحـــك او أنـــيـــرى
كـــواكبهـــا زواحـــف لاغـــبـــات (١٥٠)
كـــأن سمـــاءهـــا بيـــدى مـــديـــر

---

(145) معجم الشعراء ص 278 .
(146) يغط : الشيء غمسه فى الماء وغوصه فيه . والمعنى ان قلبه اعتصر .
(147) الكز : المنقبض
(148) النثا : الخبر
(149) الطبرى 5/23 .
(150) لاغبات : بطئيات

تلوم على الحوادث أم عمرو
وهل لك في الحوادث من نكير
جهلن كرامتي وصددن عني
الى أجل من الدنيا قصير
فلو شهد الفوارس من سليم
غداة يطاف بالاسد العقير
كنازل حوله قوم كرام
فعز الوتر في طلب الوتور
فقد بقيت كلاب نابحات
وما في الارض بعدك من زئير

وترى الشاعر يعنف أحيانا بقومه وينعي على عشيرته تهاونها في الأخذ بثأر قتيلها ويصل به غضبه وتعنيفه، أحيانا، الى أن ينفي عن قومه صراحة أنسابهم، ويصفهم بأنهم أصحاب أقوال وليسوا بأصحاب فعال، كقول عثمان بن رجاء (151):

لعمري لقد أغضيت عينا على القذى
وبت بطينا من رحيق (١٥٢) مروق
وخليت ثأرا ظل واخترت نومة
ومن يشرب الصهباء بالوتر يسبق
فلو كنت من عوف بن سعد ذؤابة
تركت بحيرا في دم مترقرق
فقل لبحير نم ولا تخش ثائرا
بعوف فعوف آل شاة حبلق (١٥٣)

(151) معجم الشعراء ص 91 ، الطبري 5/143 .
(152) رحيق مروق : خمرة مصفاة
(153) الحبلق : الغنم الصغار التى لا تكبر

فهبـــوا فلـــو أمسى بكيـــر كعهـــدكـــم
صحيحـــا لفاداهـــم بجـــاواء فيلـــق (١٥٤)

ونلاحظ أن الشاعر في هذا الموقف لايسكب الدمع ولا يستبقي على قبر القتيل الديم وانما ينصرف بكل إحساسه الى غاية واحدة هي إدراك ثأره، ولا يتوانى من أجل ذلك في أن يشتد على قومه بلدمانه فيصبّ عليهم جام غضبه. وهذا مرجعه الى أن مثل هذا القتل جاء نتيجة لصراع قبلي فرضته الأطماع المتضاربة. أما اذا كان القتل متمخضا عن محاولة بعض الولاة الوقوف في وجه السلطة القائمة، وشق عصا الطاعة فان موقف الشاعر في مثل هذه الحال يختلف من حيث الحث على الأخذ بالثأر اذ ينصرف في مراثيه الى بيان فضل هذا القتيل متحدثا عن حياته وما حفلت به من أعمال ذاكرا مقدار الرزية التي حلت بالدين وبأهله لأنه كان حاملا رايته وناشرا سلطانه، كقول عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثي قتيبة بن مسلم (155) :

كـــأن أبـــا حفـــص قتيبـــة لـــم يســـر
بجيـــش الـــى جيـــش ولـــم يعـــل منبـــرا
ولـــم تخفـــق الـــرايـــات والقـــوم حولـــه
وقـــوف ولم يشهـــد لـــه النـــاس عسكـــرا
دعتـــه المنـــايـــا فاستجـــاب لـــربـــه
وراح الـــى الجنـــات عفـــا مطهـــرا
ومـــا رزىء الاقـــوام بعـــد محـمـــد
بمثـــل أبـــى حفـــص فبكيـــه عبهـــرا

وهذه الرزية في حقيقة أمرها إنما حلت بالاسلام والمسلمين جميعا، إذ لو قدر للموت أن يمهل قتيبة لحقق ما كان يراوده من فتح الصين (156) :

---

(154) الجاوى : الخيل الخيل او الضاربة فى حمرتها الى السواد :
(155) النقائض ص 363 .
(156) الطبرى 5/285 .

نقـــود تميمـــا والمـــوالـــى ومـــذحجـــا
وأزد وعبـــد القيـــس والحـــى من بكـــر
مـــرن على الفـــزو الجـــرور ووقـــرت
علـــى النفـــر حتـــى مـــا تهـــال من النفـــر
ولـــو لـــم تعجلنـــا المنـــايـــا لجـــاوزت
بنـــا ردم ذى القرنيـــن ذى الصخـــر والقطـــر
ولكـــن آجـــالا قضيـــن ومـــدة
تنـــاهـــى اليهـــا الطيبـــون بنـــو عمـــرو

ولم يستطع الشاعر أن يدعو الى الأخذ بثأر قتيبة من الذين ثاروا عليه لأن قتل قتيبة جاء نتيجة لتجمع القبائل العربية في خراسان ضده ولانه متهم بشق عصا الطاعة على الخلافة. ومطالبة الشاعر في مثل هذه الحال بالثأر هو في نفس الوقت دعوة للخروج على السلطان القائم. وهذا ما لا يستطيع أن يقوله شاعر ينتمي الى قبيلة خاملة لا تستطيع حمايته. والشاعـر الوحيد الذي ثار على الأمويين وتوعدهم هو ثابت قطنة، فانه غضب غضبا شديدا حين قتلوا يزيد ابن المهلب، وهو غضب جعله يتجه لصاحبيه بشكواه مسترسلا في وعيده للخليفة وتهديده له آسيا على نفسه أنه لم يكن مع يزيد بن المهلب في حربه، يقول (157) :

ألا يـــا هنـــد طـــال علـــى ليلـــى
وعـــاد قصيـــره ليـــلا تمـــامـــا
كأنـــى حـــيـــن حلقـــت الثـــريـــا
سقيـــت لعـــاب أســـود او سمـــامـــا
أمـــر علـــى مـــر العيـــش (١٥٨) يـــوم
مـــن الايـــام شيبنـــى غـــلامـــا

(157) نفس المصدر 5/348 .
(158) امر عليه عيشه : صيره مرا

مصـــاب بنـــى أبيـــك وغبـــت عنهـــم
فلـم أشهـدهـــم ومضـــوا كـرامـــا
فعلـــى أن أبـــؤ بأخـيـــك يـومـــا
يـزيـــدا او أبـــوء بـــه هشـامـــا
ونسقـــى مـذحجـــا والحـــى كلبـــا
من الـذيفـان (١٥٩) أنفـاسـا قوامـــا
ولـولاهـــم ومـــا جلبـــوا علينـــا
لأصبـــح وسطنـــا ملكـــا همـامـــا

ويفخر ثابت بقومه وعشيرته آملا أن تأخذ ليزيد بثأره (160) :

ستعلـــم ان زلـت بـــك النعـــل زلـــة
وأظهـــر أقـــوام حيـــاء مجمجمـــا
من الظـــالم الجـــانى علـى أهـل بيتـــه
اذا أحصـرت (١٦١) أسبـاب أمـر وابهمـا
وانـا لعطـــافـون بـالحلـــم بعـد مـا
نـــرى الجهـل من فـرط اللئيـم تكـرمـــا
وانا لنقـرى الضيف من قمـع(١٦٢) الـــذرى
اذا كـــان رفـد الـرافديـــن تشجمـــا
أبـونـــا أبـــو الانصـــار عمـرو بن عامـــر
وهـــم ولـــدوا عوفـــا وكعبـــا وأسلمـــا

ويتجه الى مسلمة بن عبدالملك الذي قضى على يزيد وثورته بالتهديد والوعيد قائـلا :

(159) الذيفان : السم القاتل
(160) الطبرى 5/348 .
(161) احصرت : خفيت ولم تظهر كناية عن الشدة
(162) القمع : ما على التمرة والبسرة والمراد به هنا : من خير الذرى

أمسلـــم ان تقـــدر عليـــك رمـــاحنـــا
نـــذقـــك بهـــا قـــىء الاســـاود مسلمـــا
وان تلـــق للعبـــاس فـــى الدهـــر عثـــرة
نكـــافه باليـــوم الـــذى كـــان قـــدمـــا
قصـــاصـــا ولا نعـــدو والذى كـــان قـــد أتـــى
الينـــا وان كـــان ابـــن مـــروان أظلمـــا

والقصيدة تفيض بالحيوية لأنها تعبر ، في أكثرها عن عواطف صادقة. وانه لمن الغريب أن يصل الشاعر في جرأته على رجل من رجالات الأسرة الحاكمة الى هذا الحد واني لأميل الى انه كان ينشد مثل هذا الشعر سرا.

4) شعر الحماسة والفخـر

طبيعي أن يزدهر شعر الفخر والحماسة في إيران إذ كانت الحروب تقدم له وقودا جزلا وكذلك كانت تمده العصبيات القبلية التي اشتعلت هناك على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان يحدث كثيرا أن يكون قائد المعركة المنتصر من قبيلة الشاعر وحينئذ يضطرم الفخر في نفسه اضطراما لا بالقائد وحده ولكن بعشيرته أيضا على نحو ما يلقانا عند كعب الأشقري عندما فتح يزيد بن المهلب قلعة باذاغيس (163) :

ثنـــائـــى علـــى حـــى العتيـــك بأنهـــا
كـــرام مقاريهـــا كـــرام نصـــابهـــا
اذا عقـــدوا للجـــار حـــل بنجـــوة
عزيـــز مـــراقيهـــا منيـــع هضـــابهـــا

ولا ريب أن حيا هذا شأنه في كرمه وحمايته لجاره، لابد أن تظهر أياديه البيضاء في جهاد العدو وإذلاله، وهذا ما يذكره الأشقري أيضا وكأن حي العتيك قام وحده بهذا العمل، يقول:

(163) الطبرى : 5/186، 187

نفس نيزكا عن باذاغيس ، ونيزك
بمنزلة أعيا الملوك اغتصابها
محلقة دون السماء كأنها
غمامة صيف زل عنها سحابها
تمنيت ان القى العتيك ذوى النهى
مصلتة تحمى بملك رقابها

ولم يكن فخر الشاعر بقبيلته وبما تقوم به من حماية لجارها وذودها عن أنصارها، هو وليد لحظة وساعة معينة وإنما هو خصلة كريمة من خصالها الثابتة فهذه الأزد نجدها حامت عن أخيها مدرك بن المهلب ومنعته من أن تقتله تميم فكان هذا الصنيع من الأزد مبعثا لفخر ثابت قطنة بقبيلته مبينا ما لها من عز وسلطان بالقياس الى تميم وأمثال تميم، يقول (164) :

ألم تر دوسرا منعت اخاها
وقد حشدت لتقتله تميم
فما حفلوا ولكن نهنهتهم
رماح الازد والعز القديم

واذا ما أسعف الحظ الشاعر أن يرى لقبيلته بعض الأعمال والأيام التي ظهر له فيها شيء من البأس أو البطش فانك تراه يرفع عقيرته مفاخرا مباهيا(165) :

بنو مازن قومي ومن يك فاخرا
بأيام قومي مازن لا يكذب

وهو لن يأبه بأى شيء ما دام دليله الساطع بين يديه :

هم أنزلوا صهبان قسرا واقعصوا (١٦٦)
بحيرا وأطراف القنا تتصبب

---

(164) الطبرى 5/335 .
(165) النقائض 393 .
(166) اقعصه : اذا ضربه فمات مكانه

غير أن هذا الفخر إنما كان قائما على تعداد المآثر وإشاعة ذكرها وهناك من الشعراء من يعلن جهرة أن الأزد قومه وأنهم خيار الناس جميعا وهم لمناعتهم وتأثل مجدهم لم تزدهم الأيام إلاعزا ولا المحن و الشدائد إلا قوة وبأسا (167) :

والازد قــومــى خيـــار القــوم قد علمـــوا
اذا قرومهـــم يــوم الــوغـــى خطـــروا
فيهـــم معـاقـــل من عـــز يـــلاذ بهـــا
يـــوم اذا شمـرت حــرب لهـــا درر (١٦٨)
حـــى بأسيـافهـــم يبنـــون مجـدهـــم
ان المكـــارم فـــى المكـــروه تبتـــدر

واذا كان هناك من شك أوتردد فهناك أهل الأباطح يخبرونك عن مكان العز المؤيد (169) :

سلـــوا أهــل الابــاطـــح مــن قــريـــش
عــن العـــز المـؤيـــد أيــن صـــارا
لقـــومـــى الازد فـــى الغمــرات أمضـــى
وأوفـــــى ذمـــــة وأعـــــز جـــارا
هــم قـــادوا الجيـــوش علـــى وجـاهـــا
مــن الامصـــار يقــذفـــن المهـــارى
بكـــل مفـــازة وبكـــل سـهـــب
بسـابـــس لا يـــرون لهـــا منـــارا
صنـــائعنـــا الســوابـــغ والمـذاكـــى
ومــن بالمصـــر يحتلـــب العشـــارا (١٧٠)

(167) الطبرى 5/125 .
(168) الدرر : كثرة اللبن وسيلانه والقصد بها الحرب الضروس .
(169) الاغانى 14/295 ـ 296 دار الكتب .
(170) العشار : من النوق التى مر على حملها عشرة اشهر او ثمانية .

وحاول بعض الشعراء في فخره أن يتخذ من الاسلام ومن الرسول اساسا لتفضيل قبيلته وتقديمها على سائر القبائل العربية كالذى نجده عند جرير بن عرادة في مساجلته الشعرية مع الزعل الجرمي بعد مقتل قتيبة بن مسلم، يقول (171) :

ومنــا رســول اللــه أرســل بالهــدى
وأنــت مــع الجحــاد سحــار بــابــل
ولــم يجعــل اللــه النبــوة فيكــم
ولا كنتــم أهــلا لتلــك الرســائــل

ونراه يشتد في النكاية بخصمه حين يعدد له النكبات التي ألحقتها عشيرته به وبقومه :

ونحــن حــززنــا مــن قتيبــة أذنــه
وذاق ابــن عجــل حــد أبيــض فــاصــل
عشيــة نحــدو قيــس عيــلان بالقنــا
وهــم بــارزوا الاستــاه حــول الكواهــل

وتبلور هذا الشعور عند نهار بن توسعة حين افتخر بالاسلام وأضرب عما سواه جاعلا الاسلام وحده هو الأب الذى يحق له الافتخار به لأن التقوى أساس كل فخر. ووصف الدكتور شوقي ضيف هذا الاتجاه بأنه «نزعة ضد العصبيات يقول الشاعر (172) :

أبــى الاســلام لا أب لــى ســواه
اذا هتــفــوا ببكــر او تميــم
دعــى القــوم ينصــر مــدعيــه
فيلحقــه بــذى النســب الصميــم

(171) النقائض ص 370 .
(172) الشعر والشعراء 525/1 .

وما كـــرم ولــو شرفـــت جـــدود
ولـكـــن التقـــى هـــو الكـريـــم

والى جانب هذا الفخر نجد شعرا آخر يمكن أن نسميه بشعر الفرسان كما يذهب الى ذلك الدكتور شوقي ضيف. وهذه التسمية لها وجاهتها اذ نجد أصحاب هذا اللّون من الشعر الحماسي من الفرسان وحدهم، وهو شعر يدور على وصف ما لهم من بأس وشجاعة وما كانوا يقومون به من البلاء الحسن في الشدة فتراهم في مثل هذا الشعر الحماسي كأن الواحد منهم جحفل يفخر بنفسه وهو الفارس الأبي ونجده يتناسى في لحظة من اللّحظات الحاسمة أحقاده الدفينة وعصبيته القبلية، ويقبل على ذكر فضل غيره حتى ولو لم يكن من قبيلته. من تلك اللّحظات ما يقوله ثابت قطنة بعد وقعة قصر الباهلي التي انتصر فيهـا المسلمون وكان لثابت قطنة دور هام في انتصار المسلمين على الأتراك (173) :

فـدت نفســـى فـــوارس مـــن تميـــم
غـــداة الـــروع فـــى ضنـــك المقـــام
فـدت نفســـى فـــوارس اكتنفـونـــى
علـــى الاعـــداء فـــى رهـــج القتـــام
بقصـــر الباهلـــى وقـــد رأونـــى
احـامـــى حيـــن ضـــن بـــه المحـامـــى
بسيفـــى بعـــد حطـــم الرمـــح قـدمـــا
اذودهـــم بـــذى شطـــب حســـام

وسرعان ما تلقف أحد شعراء الشام خبر هذه الوقعة ليبتغي من ورائها مغنما لعصبيته القبلية، قال (174) :

لـــولا حمـايـــة يـربـــوع نسـاءكـــم
كـانـــت لغيـركـــم منهـــن أطهـــار

(173) الطبرى 5/354 .
(174) المصدر نفسه : 5/355

حامـــى المسيــب والخيـــلان فى رهـــج
اذا مـــازن لا يحمـــى لهـــا جـــار
اذ لا عقـــال يحـامـــى عـــن ذمـاركـــم
ولا زرارة يحـــمـــيـهـــا وزرار

ولا شك أن القارىء يعجب لهذا الشعر الحماسي المتقدم لأن الشاعر فيه صادق العاطفة واقعي التجربة ولذلك جاء شعره سهل اللفظ واضح المعنى يتدفق وكأنه لا ينظم شعرا وإنما ينشيء خطبة، ومثل هذا الطابع يعتبر من أبرز خصائص شعر الحماسة. وانظر بعد ذلك الى نصر بن سيار كيف يصف بطولته وبأسه وما لقبيلته من السطوة والبطش، يقول (175) :

فمـا أنـا بالـوانـى اذا الحـرب شمـــرت
تحـــرق فـــى شطــر الخميسيـــن نارهــــا
ولكننـــى ادعـــو لهـــا خنـــدف التـــى
تطلـــع بالعـــبء الثقيـــل فقـــارهـــا

ويسخر من القبائل التي حاولت أن تقف في وجهه ووجه قبيلته ويسجل عليها أنها لاتفي بعهدها :

ومـا حفظـــت بكـــر هنالـــك حلفهـــا
فصـــار عليهـــا عـــار قيـــس وعارهـــا

ويضيف الى ذلك أنّه ينتمي الى بيت طاعة عرف باخلاصه ووفائه وينتسب الى أصل أزهر بالخلافة فرعه وأثمر بالنبوة أصله (176) :

أبـــى لـــى طـاعتـــى وأبـــى بـــلائـــى
وفـــوزى حيـــن يعتـــرك الخصـــام

(175) الطبرى : 5/381
(176) المصدر نفسه : 5/480، 481

وأنـــا لا نضيـــع لـنـــا ملمـــا
ولا حسبـــا اذا ضـــاع الـذمـــام
وبيـــت خليفـــة الـرحمـــن فينـــا
وبيـتـــاه المقـــدس والحـــرام
ونحـــن الاكـرمـــون اذا نسبنـــا
وعـرنيـــن البـريـــة والسـنـــام

ومما يدخل في الشعر الحماسي أن يجد الفارس نفسه عادما بعض الصفات التي ينبغي لمثله أن يتحلى بها فنراه مضطرا الى أن يفخر بصفات أخرى كما فعل ثابت قطنة حين أعوزته الفصاحة ورباطة الجأش وهو على المنبر فذكر أنه ، إن لم يكن خطيبا فوق المنابر ، فانه بسيفه اذا جد الجد خطيب مفوه (177) :

ان لا أقـــم فيكـــم خطيبـــا فـانـنـــى
بسيفـــى اذا جـد الـوغـــى لخطيـــب

ويفخر كعب الأشقري على نفس المنوال بأنه خطيب طعان لا خطيب كلام، يقـول (178) :

الا اكـــن فـــى الارض أخطـــب قـائمـــا
فانـــى علـــى ظهـــر الكميـــت خطيـــب

ويعلل المغيرة بن حبناء برصه الذى يشوهه تعليلا يرد عنه قبحه ، بقوله (179) :

انـــى امرؤ حنظلـــى حيـــن تنسبنـــى
لا ملعتيـــك ولا أخـــوالـــى العـــوق

---

(177) وفيات الاعيان 5/ 351 .
(178) البيان والتبيين 1/ 231 .
(179) الحيوان 5/165 ، الشعر والشعراء 1/ 367 ، عيون الاخبار 4/64 .

لا تحسبـــن بيـاضـــا فـــى منقصـــة
ان اللهاميـم فـــى أقرابهـــا (١٨٠) بلـــــق

وما دامت عتاق الخيل لا تشينها الأوضاح فان برصه لا يحط من قدره. وهكذا حسن الشاعر قبح البرص وأصبح هذا التحسين سنة معروفة متبعة من بعده، كما جاء في الحيوان (181). وقد يتهاون الفارس ولكن قناته دوما صلبة لا تلين (182) :

وقـــد غمـــزوا منـــى قنـــاة صليبـــة
شديدا علـــى من رامهـا الكســرعـودهـــا
وكنـــت لهـــا حصنـــا وكهفـــا وجنـــة
يـــؤول الـــى كهلهـــا ووليـدهـــا

وكان كثير من هؤلاء الشعراء الفرسان حين لا يعرف لهم القواد والولاة حقوقهم في النصر يألمون على نحوما نجد عندنصربن سيار حين أهمله الجنيد بعد موقعة الشعب التي أبلى فيها بلاء حسنا، مصيخا الى بعض حساده يقول (183) :

انـــى نشـــأت وحســـادى ذوو عـــدد
يـاذا المعـــارج لا تنقـص لهـــم عـــددا
ان تحسدونـــى علـــى مثـل البـــلاء لكـــم
يـوما فمثـل بـــلائى جـر لـــى الحســـدا
يأبـــى الالـــه الـــذى اعلـــى بقـــدرتـــه
كعبـــى عليكـم واعطـــى فوقكـم عـــددا
ارمـــى العـــدو بـــأفـــراس مكلمـــة
حتـــى اتخـــذن على حشـــادهـــن يـــدا

---

(180) الاقراب : الخواصر .
(181) الحيوان 5/164 .
(182) الاخبار الطوال ص 363 .
(183) الطبرى 5/421،422 .

مـن ذا الـذى منكـم فى الشعـب اذ وردوا
لـم يتخـذ حومـة الاثقـال معتمـدا
فـلا حفظتـم مـن اللـه الوصـاة ولا
أنتـم بصبـر طلبتـم حسـن ما وعـدا
ولا نهاكـم عـن التوثـاب فـى عتـب
الا العبيـد بضـرب يكسـر العمـدا
هـلا شكرتـم دفـاعـى عـن جنيدكـم
وقـع القنـا وشهـاب الحـرب قد وقـدا

ونصر في هذا الشعر الحماسي صادق فيما ذكره من بلائه وجهده ويدل على ذلك دلالة واضحة أننا نجد أحد الشعراء وهو ابن عرس العبدى يذكر أن النـاس بعـد موقعـة الشعـب كلهـم عتقاء لنصر بن سيـار(184) :

يـا نصـر أنـت فتـى نـزار كلهـا
فلـك المـآثـر والفعـال الارفـع
فـرجـت عن كل القبـائـل كـربـة
بالشعـب حيـن تخاضعـوا وتضعضعـوا
يـوم الجنيـد اذا القنـا متشـاجـر
والبـحـر داج والخـوافـق تلمـع

وبالرغـم من أن العـرب في خراسان كانوا يعيشـون للجهـاد في سبيل هذا الـديـن فان شعـراءهـم، قلمـا تحدثـوا عمـا يقومون به في سبيل الدين الحنيـف ونشر دعوتـه ولا نجد الا ابياتا قليلـة متناثـرة في ثنايا قصائدهم. ومما لا نستطيع انكاره أن ما جاء في هذا الشعـر من قصائد الفخر والحماسة، كان شعـرا أصيلا صادرا عن إيمـان واعتقاد لما للفرسان والشعراء ولقبائلهـم مـن أيام ومآثـر. ومن منا لا يعجب بقـول الشاعـر الفارس سحبـان وائـل اذ يقـول (185) :

---

(184) الطبرى 5/422 .
(185) الكامل لابن الاثير 4/131 ، الطبرى 5/257،258 .

فســـــــل الفـــــوارس فـــى خجـــنـــــد
ة تـحـــت مـــرهفــــــة العـــوالـــــــى
هـــــــل كـــنـــــت أجمعـــهـــــم اذا
هـــزمــــــوا وأقـــــدم فـــــى قتـــــال
أم كـــنــــــت أضـــــرب هـــامـــــة العـــــا
تــــــى وأصبـــــــر للعـــــوالـــــــى

فهـو يطـلب منك إذا جهلت أمره أن لا تسأل عنه الجبناء الرعاديـد فإن أمثالهـم لا يقدرون علـى أن يحضروا مثل هذه الوقعة وانما عليك أن تسأل الفرسان من ذوي البأس والقوة فانهم يخبرونك بأنه كان يجمع أصحابه اذا هزموا ويقدم في النزال . وانظر الى ما يقوله ابن الغريزة في اخوانه وما يتحدث به عن نفسه وكيف أنهم كانوا ينادونه في ساحات القتال فلا يـدرى أينادونه باسمه أم يكنونه وهو في شعره هذا يفتخر بأسمى الصفات وأكملهـا يقـول (186) :

ورب أخ اصــــاب المــــوت قبـلــــــى
بكيـــــت ولـــــو نعيـــت لـــه بكـــانـــــى
دعـــانـــــى دعـــوة والخـيــــل تـــردى
فمـــــا ادرى أبسمــــــى أم كنـــانـــــى
نكــــان اجــابنــــى ايـــــاه تـــــردى
عطفـــــت عليـــــه خـــــوار العنـــــان
فـــــان اهلـــــك فلـــم أك ذا صــــدوف
عــن الاقـــران فـــى الحـــرب العـــوان
ولـــم أدلــــج لاطــــرق عــرس جـــارى
ولـــم أجعـل علـــى قـــومـــى لسانـــاى

(186) الاغانى 11/279 دار الكتب .

ولكـــنـــى اذا مـــا هيجـونـــى
منيـــع الجـــار مـرتفـــع البنــــان
ويكـــرهنـــى اذا استبسلـــت قـــرنـــى
وأقضـــى واحـــدا مـــا قـــد قضـانـــى

وانظر بعد ذلك الى ثابت قطنة كيف فخر بقومه وذكر أنهم كانوا في حروبهم لا يضربون الآ رؤوس الملوك ولا تطيح سيوفهم الآ بذوى التيجان وقد عركوا الحرب وعركتهم (187) :

انـــا لضرابـــون فـــى حمـــس الـــوغـــى
رأس المـتـــوج ان اراد صـــــدودا
وقـــرا اذا كفـــر الظـــلام تـــرى لنـــا
فـــى كـــل معـــركـــة فـــوارس صيـــدا

ومثل هذا الشعر يعطينا صورة حية لشعراء إيران ولا سيما الفرسان منهم ويكشف عن الجانب الكبير من الصراع القبلي ويوضح لنا مقدار الدور الذى يلعبه بعض هؤلاء الشعراء في تلك الفترة التارخية.

5) الهجـــاء

كان لهذا اللون من الشعر في اران سوق نافقة بسبب ما احتدم فيها من عصبيات وأحقاد دفينة قديمة، ووليدة ولذلك لا تكاد تخمد حرب هجائية بين شاعر وشاعر حتى نراها تشب من جديد بين شعراء آخرين. ولم يقدر لهذا اللون من الشعر أن يدور في فلك معين فحسب كأن نجده سلاحا تستعمله قبيلة في صراعها من أجل العصبية مع قبيلة عربية أخرى بل ان شدة هذا الصراع وشرته وجدت طريقها ممهدا حتى بين أبناء العشيرة الواحدة. والشاعر لا يقتصر في هجائه على سلاح واحد معين ولكنك تراه يتخذ كل ما يمكن أن

(187) نفس المصدر 14/278 .

يتذرع به في هذه الخصومات فهو لا يتردد في استعمال أى كلمة قبيحة قد يصل اليها قلمه أو لسانه دون أن يردعه عن ذلك رادع من دين أو خلق مما جعله في مثل هذه الخصومات سواء كانت فردية أو جماعية يفحش في شعره أحيانا غاية الافحاش ويغرق نفسه في مثل هذا الاقذاع أشد اغراق. وما أكثر الأسباب التي تؤدى بسهولة الى هذه الخصومات والحروب اللسانية، فقد تبتدىء بسبب هين ولكنها لا تلبث أن تشتعل نارها فتهتك فيها الأعراض، فمن ذلك الخصومة التي قامت بين المغيرة بن حبناء وبين زياد الأعجم (188) ومثلها ما حدث بين ثابت قطنة وبين حاجب الفيل (189)، وكان مبعث هذه الخصومات الأنانية والحسد. وقل مثل ذلك بالنسبة لخيبة الشاعر حين يعرض بضاعته الشعرية على بعض ممدوحيه ولا يتلقى عن هذا المديح أجرا فانه لايلبث أن يشفعه بالهجاء المرّ كما فعل أبو جلدة بمقاتل بن مسمع بن مالك فانه لم يكد يشعر باعراضه عنه حتى انقلب عليه هاجيا، (190)، وعلى نحو ما حدث أيضا لأبى جلدة مع الحضين بن المنذر الرقاشي (191) ولزياد الأعجم مع أبى جهضم (192) ولكم دارى وجوه القوم وأشراف الناس في خراسان، هؤلاء الشعراء اتقاء لشرهم وخوفا من سلاطة ألسنتهم (193)، ومن المرجح انهم في كثير من الأحيان كانوا يجدون أنفسهم محمولين حملا على اعطاء بعض الشعراء العطية والجائزة خوفا من ألسنتهم ولربما حدد الشاعر المقدار الذى ينبغي له أخذه كما فعل زياد الأعجم مع المهلب بن أبى صفرة، (194) وكثيرا ما يتحرك لسان الشاعر بالهجاء لأسباب يستغرب الانسان أن يدفع مثلها الى السب المقذع على نحو ما حدث ليزيد بن حبناء مع زياد الأعجم، فقد ذكروا أن يزيد مرّ ذات يوم بزياد وهو ينشد شعرا في هجاء قتادة بن مغرب فوعظه وعنفه على تماديه

---

(188) نفس المصدر 13/89،90 .
(189) نفس المصدر 14/267 .
(190) نفس المصدر 11/330،331 .
(191) نفس المصدر 11/323 .
(192) نفس المصدر 15/390 .
(193) نفس المصدر 15/383،384 .
(194) نفس المصدر 15/391 .

في تمزيق الأعراض فما كان من زياد الا أن هجاه ورماه بالنفاق والمروق من الدين يقول (195) :

يحذرني الموت ابن حبناء والفتى
الى الموت يغدو وجاهدا ويروح
فقل ليزيد بن حبناء لا تعظ
اخاك وعظ نفسا فانت جنوح
تركت التقى والدين دين محمد
لاهل التقى والمسلمين يلوح
وتابعت مراق العراقين سادرا
وانت عظيم القصريين (١٩٦) صحيح

وإذا كان الشاعر يحمل مثل هذه النفس المفطورة على الشرّ فانه لن يرحم أحدا حتى لو كان شيخا كبيرا لكلمة يقولها على نحوما حدث لأبي قلابة الجرمي مع زياد حينما وصفه بأنه ألكن فاستشاط غضبا مع أنه لم يذكر الا الواقع وسأل عنه زياد فقيل له انه أبو قلابة فقام على رأسه (197) وأنشأ يقول (198) :

قم صاغرا يا كهل جرم فانما
يقال لكهل الصدق قم غير صاغر
فانك شيخ ميت وموروث
قضاعة ميراث البسوس وقاشر
قضى الله خلق الناس ثم خلقتم
بقية خلق الله آخر آخر
فلم تسمعوا الا بما كان قبلكم
ولم تدركوا الا مدق الحوافر

---

(195) نفس المصدر 390/15 .
(196) القصريان : ضلعان يليان الترقوتين
(197) الاغانى 319/15 طبعة بيروت .
(198) نفس المصدر 394/15 دار الكتب .

فلـــو رد أهـــل الحـــق مـــن كـــان منكـــم
الـــى حقـــه لـــم تدفنـــوا فـــى المقابـــر

ولعل هذه الحادثة هي التي جعلت الشاعر يهجو جرما عشيرة أبى قلابة مرة أخرى بقوله (199) :

يكلفنـــى ســـويق الكـــرم جـــرم
ومـــا جـــرم ومـــا ذاك الســـويـــق
ومـــا شـــربتـــه جـــرم وهـــو حـــل
ولا غـــالـــوا بـــه مـــذ كـــان ســـوق
فلمـــا أنـــزل التحـــريـــم فيـــهـــا
اذا الجـــرمـــى منهـــا لا يفيـــق

وكان الشاعر اذا حرم الجائزة أسرع الى ثلب ممدوحه كما فعل بالقباع (200) :

ســـالـــت أبـــا جهضـــم حـــاجـــة
وكـــنـــت اراه قـــريبـــا يســـيـــرا
فلـــو اننـــى خفـــت منـــه الخـــلاف
والمنـــع لـــى لـــم اسلـــه نقيـــرا
أقلنـــى أبـــا جهضـــم حـــاجتـــى
فـــانـــى امـــرؤ كـــان ظنـــى غـــرورا

وكذلك كان يفعل اذا ما مر بوال على عمل أو قرية ولم يضيفه فانه يسلقه بلسانه على نحو ما صنع ثابت قطنة بمحمد بن ثابت الخولاني، وقد هجاه وهجا قومه بقوله (201) :

---

(199) وفيات الاعيان 2/179 .
(200) الاغانى 15/390 دار الكتب .
(201) نفس المصدر 14/272، 273 .

لــــو ان بكيــــــلا هـــــم قــومــــــه
وان ابــــــاه أبـــــو العـــاقـــــب
لاكــرمنـــــا اذ مـــررنـــــا بـــــه
كـــرامـــــة ذى الحســـب الثـــاقـــب
ولكــــن خيــــوان هــــم قــومــــه
فبئـــــس هـــم القـــــوم للصـــاحـــب
وانــــــت سنيــــد بهـــم ملصـــــق
كمـــا الصقـــت رقعـــة الشـــاعـــب (٢٠٢)

وعلى هذا النحو ينتقم الشاعر ولا يبالي في انتقامه أن يقول صدقا أو باطلا آن خصومه قوم مباخيــل يكعمون كلابهم مرة (203) ويشلونها على ضيوفهم مرة أخرى (204)، اما قدورهم فلا يمكن لك أن تراها فهي كالعذراء من دونها ستر. والشاعر لايعنيه كثيرا آن يجد السبب المعقول الذى يتذرع به لهجاء من اراد هجاءه بل إنه يقول متى عن له القول بلا خشية او خوف فالمهلب مروزى بفقحته الطيب ولا ذنب له الا لأنه حل في الولاية محل امية (205)، وقتيبة كل ذنبه آنه آعقب المهالبة في ولاية خراسان مع أنه دونهم. ومثل هذا في عرف الشاعر عمل كفيل لآن يهجي قتيبة من أجله (206). آما اذا كان الهجاء سجالا بين شاعرين تفرق بينهما العصبية القبلية فهناك الطامة الكبرى على كل من القبيلتين ولا مندوحة لهما من الاكتواء بميسم الشعر حتى ولو لم تكن لآية منهما يد في الخصومة، وقد يجد أشراف القبيلة أنفسهم مضطرين للتوسط في انهاء هذه الخصومات خوفا على أنفسهم وأعراضهم كما فعل المهلب مع كعب الأشقري وزياد الآعجم (207) حين حاول أن يستعين به

(202) الشاعب : الذى يلئم الشعب وهو الصدع
(203) عيون الاخبار 3/242 .
(204) الخزانة 3/290 .
(205) المؤتلف والمختلف تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ دار احياء الكتب العربية سنة 1961 ص 73 .
(206) سمط اللالى 2/817 ، الشعر والشعراء 1/521 .
(207) الاغانى 14/289 دار الكتب .

على زياد ولكن المهلب أخلف ظنه وسعى بينهما بالصلح فكف كل منهما عن صاحبه (208). وقريب من هذه الخصومة ايضا ما حصل بين المغيرة بن حبناء وزياد الأعجم حين كلف كل من كعب الأشقري وثابت قطنة صاحبهما المغيرة بن حبناء ليخاطب المهلب في شأن تفضيله زيادا عليهم في الهبة والعطية. ولم يكد يسمع زياد الأعجم ما قاله المغيرة حتى هجاه ولكن المغيرة لم يسكت عنه وأجابه واشتعل بينهما الهجاء وعلى الرغم من أن كلا منهما انتصف من صاحبه وتكافا فإن عبد القيس لم تستطع أن تصبر حين سمعت المغيرة وهو يسخر منها، وهي القبيلة العربية، لا ستنصارها بالموالي والأعاجم (209).

يقولون ذبب يا زياد ولم يكن
ليوقظ فى الحرب الملمة نائما
ولو أنهم جاءوا به ذا حفيظة
فيمنعهم او ما جدا او مراغما
لعمرك لا تهدى ربيعة للحجا
اذا جعلوا يستنصرون الاعاجما

فجاءت على أثر ذلك تتوسل الى المغيرة أن لايتعرض لها، وتبرأت له أمام الملأ من شاعرها واعتنم هذا التنصل فقال (210):

وما لك اصل يا زياد فعده
وما لك فى الأرض العريضة والد
الم تر عبد القيس منك تبرأت
فلاقيت ما لم يلق فى الناس واحد
وما طاش سهمى عنك يوم تبرأت
لكيز ابن أقصى منك والجند حاشد

(208) نفس المصدر 14/289 .
(209) نفس المصدر 13/94 .
(210) نفس المصدر 13/95 .

ولا غـــاب قـــرن الشمـــس حتـــى تحدثـــت
بنفيـــك سكـــان القـــرى والمساجـــد

ومن أمثال تلك المهاجاة التي انبنت من اول أمرها على أسباب شخصية مبعثها التنافس والحسد، ما حدث بين ثابت قطنة وبين صاحبه حاجب الفيل حين أجزل مرة يزيد بن المهلب في عطائه له وكان ثابت قطنة حاضرا فنفس عليه عطاءه وتكلم بكلام أغضب حاجب الفيل فقال في ثابت (211) :

تقضـــى الامـــور وبكـــر غيـــر شاهدهـــا
بيـــن المجـــاذيـــف والسكـــان مشغـــول
لا يعـــرف النـــاس منـــه غيـــر قطنتـــه
ومـــا ســـواه مـــن الآبـــاء مجهـــول

ورد عليه ثابت واستطار بينهما الشر. ومما قاله ثابت في هجاء حاجب الفيل قوله (212) :

فقـــل لـــى ولا تكـــذب فانـــى عالـــم
بمثلـــك هـــل فـــى مـــازن لـــك مـــن ظهـــر
فانـــك منهـــم غيـــرَ شـــك ولـــم يكـــن
أبـــوك مـــن الغـــر الجحاجحـــة الـــزهـــر
فلســـت بهـــاج ابـــن ذبيـــان انتـــى
سأكـــرم نفســـى عـــن سبـــاب ذوى الهجـــر

ويقال انه لما سمع هذا الشعر آلى على نفسه أن لا يكتفي في هجائه بثابت ولا بقبيلته بل يعم اليمن كلها ثم قال (213) :

(211) الطبرى 5 / 383 .
(212) الاغانى 14 / 267، 268 دار الكتب .
(213) نفس المصدر 14 / 268 .

دعـــونـــى وقحطـــانـــا وقـــولـــوا لثابـــت
تنـــح ولا تقـــرب مصاولـــة البـــزل
فللزنـــج خيـــر حيـــن تنســـب والـــدا
من ابنـــاء قحطـــان العفاشلـــة الفـــرل (٢١٤)
انـــاس اذا الهيجـــاء شبـــت رأيتهـــم
أذل علـــى وطء الهـــوان مـــن النعـــل

وهكذا نرى الشعراء العرب بخراسان حين يتهاجون لا يقصرون هجاءهم على أنفسهم بل اذا ما فتحوا بابه أقحموا فيه العشائر والقبائل ومن المرجح أن هذا مرجعه الى الصلة الوثيقة التي كانت تربط الشاعر بقبيلته بحيث أصبح ما يمس قبيلته يمسه. على أن مثل هذه الصورة من صور الخصومات انما تكون عادة بين شاعرين ينتميان الى قبيلتين مختلفتين إحداهما تقف في وجه الأخرى على طرفي نقيض، أما اذا حدث الخصام بين شاعرين ينتسبان الى قبيلة واحدة فان الهجاء في مثل هذه الحالة يكون محدود الأفق ضيق المجال لا يكاد يتجاوز فيه الشاعر اللوم والعتاب أو ما يشبه اللوم والعتاب كقول حضين بن المنذر يهجو ابنه غياظا (215):

نســـى لمـــا أوليـــت مـــن صالـــح مضـــى
وانـــت لتـــأنيـــب علـــى حفـيـــظ
تليـــن لاهـــل الغـــل والغمـــر منهـــم
وانـــت علـــى أهـــل الصفـــاء غليـــظ
وسميـــت غيـــاظـــا ولســـت بغـــائـــظ
عـــدوا ولكـــن الصـــديـــق تغيـــظ
فـــلا حفـــظ الـــرحمـــن روحـــك حيـــة
ولا هـــى فـــى الارواح حيـــن تفيـــظ

(214) العفاشلة الغرل : الثقلاء الذين لم يختنوا .
(215) الامالى 2/198 .

وواضح من هذا الشعر أن الحضين لم يتجاوز وصف ابنه بالعقوق وانه نقمة على الصديق وشر للقريب وهو بعد ذلك للعدو مصالح مسالم . وقريب من قول حضين ما يقوله الأشقرى في ابن أخيه وكان بينهما تباعد وعداء (216) :

أن السواد الذى سربلت نعرفه
ميراث جدك عن آبائه النوب
أشبهت خالك اللؤم مؤتسيا
بهديه ساكنا فى شر أسلوب

وهذا الهجاء لم يبلغ فيه الشاعر مبلغا، ولا توخى فيه طريق الاقذاع إذ لم يزد على أن وصف ابن اخيه بالسواد الذي ورثه عن آبائه النوب، وكفى بهذا اللون في رأيه دلالة على لؤم صاحبه. وهجاء يحدث على هذا النحو لا يعتبر ذا بال ما دمنا نعرف أن كعبا نفسه قد طعن على أمه وكل ذنبها أنها من عبد القيس وأثنى على أبيه وكل فضله أنه من قبيلة الأزد. ولك أن تقول مثل ذلك أيضا في تلك المناقضات التي حدثت بين شاعرين يجمع بينهما، زيادة على العصبية القبلية، روابط النسب والقرابة. هذان الشاعران هما : المغيرة بن حبناء واخوه صخر وما جاء في هذه المناقضات لا يخرج عن كونه لوما وعتابا، فصخر يصف أخاه المغيرة بالغنى والبخل ويلومه على التنكر له لا لشيء الا لأنه فقير وهوغني (217) :

رأيتك لما نلت مالا وعضنا
زمان نرى فى حد أنيابه شغبا
تجنى على الذنب أنى مذنب
فأمسك ولا تجعل غناك لنا ذنبا

وقد رأينا المغيرة يدفع عن نفسه هذه التهمة ويدعو على المفتري منها والذى يتقاصر عن مجد والده ولا يقري ضيفه. ومثل هذا الهجاء لا يكاد يخرج

(216) الاغانى دار الكتب 14/298 .
(217) الشعر والشعراء 1/368 .

عن الشخصين المتلاحيين الى غيرهما من الآباء والأقارب، ومن هذا ما يقوله المغيرة أيضا في أخيه صخر، وقد ذكروا أن عبدالملك كان كثيرا ما ينشد هذا الشعر عندما يرى أخاه معاوية بسبب ضعفه، يقول المغيرة لأخيه (218) :

أبـــوك أبـــى وأنـــت أخـــى ولكـــن
تفـــاضلـــت الطبـــائـــع والظـــــروف
وأمـــك حيـــن تنســـب أم صـــدق
ولكـــن ابنهـــا طـــبـــع سخيـــف

هذا هوشعر الهجاء أو على الاصح هذه صورة منه لما كان يدور بين ابناء الأسرة الواحدة. أما ما سوى هذا الضرب من الهجاء فان فيه كثيرا من الافحاش والاقذاع والامعان في السفاهة والاسفاف، وما أيسر الافحاش وأسهله على ألسنة أولئك الشعراء، ومن يدرى فلعل ذلك كان من الأمور المألوفة الشائعة عندهم فمثلا نجد زياد الأعجم يتحدى الحاضرين ببيت شعر قاله (219) :

وقـــافيـــة حـــذاء بـــت أحـــوكهـــا
اذا مـــا سهيـــل فـــى السمـــاء تـــلالا

فنجد كعب الاشقري يجيبه ببيت فاحش غاية في الفحش (220). ومثل ذلك هجاء أبي جلدة للحضين بن المنذر الرقاشي حين مدحه فلم يعطه (221) :

يـــا يـــوم بـــؤس طلعـــت شمســـه
بالنحـــس لا فـــارق رأس الحضيـــن
ان حضينـــا لـــم يـــزل بـــاخـــلا
مـــذ كـــان بالمعـــروف كـــز اليـــديـــن

---

(218) الاغانى دار الكتب 13/100 .
(219) نفس المصدر 15/393 .
(220) الاغانى دار الكتب 14/295 وانظر 15/393 .
(221) نفس المصدر 11/323 .

وهو شعر يقال مثله عادة ويمكن ان يقوله كل شاعر ساعة غضبه ولكن الحضين لم يصبر على هـذا الهجاء ولم يجد وسيلة يـرد بهـا على هجاء أبي جلدة وينقض عليه قوله إلا الكـلاَ م الشائـن القبيح (222). ويظهـر أن حضينا لم يبخل على أبي جلدة وحده ولكنه بخل على غيره من الشعراء إذ رأينا بعضهم وهو زياد الأعجم يقول فيه (223) :

يســـد حضيــن بــابــه خشيـــة القـــرى
بأصطخـــر والكبـــش العظيـــم بـــدرهـــم

وإذا ما تأملنـا المعاني التي يرددها شعراء خراسان في أهاجيهم وجدناها لا تخرج عن المعاني التي كان يرددها شعراء الهجاء في ذلك العصـر فإن هؤلاء الشعراء كثيرا ما ألحوا على من يهجونـه من ناحية النسب ، فيصفونـه بأنه لصيق ودعي ،وكثيرا ما يوازنون بين من يهجونهم وبين غيرهم من ذوي الفضل ثم يظهرون الفارق الكبير بين لؤم أولئك وخمول ذكرهم، وبين شرف هؤلاء ورفعة شأنهم ، من ذلك ما يقوله ثابت قطنة ردا على بعض الشعراء وهو ابن أخي ابن الكواء اليشكري وكان هجا المهلب وعم الأزد بالهجاء فقال يرد عليه ثابت قطنة (224) :

كـــل القبـــائـــل مـــن بكـــر نعـــدهـــم
واليشكـــريـــون منهـــم الأم العـــرب
أنتـــم تحلـــون مـــن بكـــر اذا نسبـــوا
مثـــل القـــراد حـــوالى عكـــوة الذنـــب

ومن هذا الباب أيضا ما يقـوله زياد الأعجم في المغيـرة بن حبنـاء(225) :

تعـــالـــوا فعـــدوا فى الـــزمـــان الذى مضـــى
وكـــل أنـــــاس مجـــدهـــم بالأوائـــــل

---

(222) نفس المصدر 11/323 .
(223) ابن عساكر 4/375 .
(224) الاغانى دار الكتب 14/276،277 .
(225) الاغانى دار الكتب 13/90 .

لكـــم بفعــــال يعــرف النـــــاس فضلــــه
اذا ذكـــــروا الأمــــلاء عنـــــد الفضـــائـــل
ففـــازيكـــم فـــى الجيـــش ألأم مـــن غـــزا
وقـــافلكــــم فـــى النـــاس ألأم قـــافـــل
ومـــا أنتـــم مـــن مـــالـــك غيـــر أنكـــم
كمغـــــرورة بالبـــو فـــى ظـــل بـــاطـــل
بنـــو مـــالـــك زهـــر الوجـــوه وأنتـــم
تبيـــن ضاحـــى لـــؤمكـــم فى المحافـــل

فزياد بعد أن سلب عنهم كل ما عرف عن الرجال الكرام نراه يزيد إمعانا في التشفي إذ جعل الغزاة من بني حبناء ألأم الغازين وأحّط القافلين ودفع ادعاءهم بأنهم من بني مالك ومن أين لهم هذا وقد تبين ضاحي لؤمهم في المحافل. واتخذ كعب الأشقرى نفس هذا الأسلوب في هجائه لعبد القيس. إذ نراه يوازن بينهـا وبين قبيلـة تغلب وبكر ثم يذكر قصورهـا وتضعضعهـا إزاء هـاتيـن القبيلتيـن (226) :

لعـــل عبيـــد القيـــس تحســـب أنهـــا
كتغلـــب فـــى يـــوم الحفيظـــة أو بكـــر
يضعضـــع عبـــد القيـــس فى النـــاس منصـــب
دنـــىء وأحســـاب جبـــرن علـــى كســـر
اذا شـــاع أمـــر النـــاس وانشقـــت العصـــا
فـــان لكيـــزا لا تـــريـــش ولا تبـــرى

وولوع هؤلاء الشعراء بهذا اللون من الهجاء وكثرة ترديدهم لهذه المعاني يدلان دلالة واضحـة على مدى أثره وشدة وقعه على النفوس في هذا المجتمع القبلـي. ومن براعة الهجاء ما سلكه بعض الشعراء من تهوين مهجويـه

(226) نفس المصدر 289/14 .

وهو زياد الأعجم حين قال في جرم (227) :

وما أنتم انا نسينا من أنتم ؟
وريحكم من أى ريح الأعاصر ؟
وأنتم أولى جئتم مع البقل والدبى
فطار وهذا شخصكم غير طائر

ومثله أيضا ما يقوله أبو جلدة لجار له من بني سعد و كان يشرب الخمر ويعربد عليه (228) :

قل لذوى سيف وسيف ألستم
أقل بنى سعد حصادا ومزرعا

وقد وصف أبو جلدة حياتهم قبل انتقالهم إلى سجستان بأنها تشبه حياة الكلاب وأنهم كانوا من قبل لا يعرفون طعما للذاذة والخمر، ويمضي فيصف منسماه سيفا بالمجون والإثم حتى نمت له سرة من فرط الشراب (229) :

كأنكم جعلان دار مقامة
على عذرات الحى أصبحن وقعا
لقد نال سيف فى سجستان نهزة
تطاول منها فوق ما كان أصبعا
أصاب الزنا والخمر حتى لقد نمت
له سرة تسقى الشراب المشعشعا
فلولا هوان الخمر ما ذقت طعمها
ولا سقت ابريقا بكفك مترعا

---

(227) العينى 2/420 .
(228) الاغانى دار الكتب 11/317 .
(229) الاغانى دار الكتب 11/317 ، 318 .

كمـــا لــم يــذقهـــا أن تكـــون عـــزيـــزة
أبـــوك ولـــم يعـــرض عليهـــا فيطعمـــا
وكـــان مكـــان الكـــلـــب أو مـــن ورائـــه
اذا مـــا المغـــنـــى للـــذاذة أسمعـــا

ومثل هذا الشعر اذا كان أبو جلدة صادقا فيه يعطينا صورة اجتماعية سيئة لحياة العرب في سجستان. ويبدو أن أبا جلدة كانت له باع طويلة في هذا الفن من الشعر لاننا نراه يتعرض لزياد الأعجم حين هجا بني يشكر فيحذره ويهجوه بقوله (230) :

لا تهـــج يشكـــر يـــا زيـــاد ولا تكـــن
غرضـــا وأنـــت عـــن الأذى فـــى معـــزل
واعلـــم بـــأنهـــم اذا مـــا حصلـــوا
خيـــر وأكـــرم من أبيـــك الأعـــزل
لـــولا زعيـــم بنـــى المعـــلا لـــم نبـــت
حتـــى نصبحهـــم بجيـــش جحفـــل
تمشـــى الضـــراء رجـــالهـــم وكأنهـــم
أســـد العـــريـــن بكـــل عضـــب منصـــل
فاحـــذر زيـــاد ولا تكـــن ذا تـــدرأ
عنـــد الـــرجـــال ونهـــزة للختـــل

فأبو جلدة لم يكتف بالتحذير وإنما شرع في هجاء قبيلة زياد بعد أن فضل عليها قومه بني يشكر ثم رماها بما يرمى به كل فاسق فاجر. ولم يذكر أن زيادا أجابه على هذا الشعر ، فهل هاب زياد أبا جلدة وسكت على مضض أو استصغر شأنه فلم يجبه ؟ قد يكون هذا وقد يكون ذاك إلا أنّ الّذي يظهر أن أبا جلدة كان صلب الشكيمة لا يخشى أحدا ولربما زاده الوعيد

(230) . نفس المصدر 11/321 ، 322 ،

اصرارا على رأيه كما حصل لرقاش رهط الحضين حين بلغه أن رقاش توعدته بعد أن هجا الحضين بقصيدته التي منها (232) :

فلو كنت حرا يا حضين بن منذر
لقمت بحاجاتى ولم تتبلد
تجهمتنى خوف القرى واطرحتنى
وكنت قصير الباع غير المقلد
ولم تعد ما قد كنت أهلا لمثله
من اللؤم يابن المستذل المعبد

فقد أمعن في التنكيل بهم وازداد عنفا بهم وقسوة بمثل قوله (233) :

تهددنى جهلا رقاش وليتنى
وكل رقاشى على الأرض فى الحبل
فبأست حضين وأست أم رمت به
فبئس محل الضيف فى الزمن المحل
وان أنا لم أترك رقاش وجمعهم
أذل على وطء الهوان من النعل
فشلت يداى واتبعت سوى الهدى
سبيلا ولا وفقت للخير والفضل

ويأخذ في تعداد عيوبهم ونقائصهم ولا يدع عيبا إلا ألصقه بهم. وعلى هذا النحو كان الهجاء محتدما بإيران و هو يمثل بحق الصّورة الحية لما كان يدور في الكوفة والبصرة ولعبت فيه العصبية والأسباب الشخصية دورا كبيرا.

الخمريات :

على الرغم من أن إيران كانت في العصر الأموى ثغر الشرق (234)،

(232) الاغانى دار الكتب 11/324 .
(233) نفس المصدر 11/324 ، 325 .
(234) الطبرى 5/39 س 4 .

وعلى الرغم من أن بعض ولاتها كان يتشدد في معاقبة من يشرب الخمر فإن بعض الإشارات الواردة في الكتب القديمة وبعض الشعر الذى انتهى الينا، يدل على أن هذه البيئة عرفت صورا فاحشة من المجون، ربما هيأه لها ما كان فيها من كثرة الخمور وكثرة الجواري وأيضا فإن سكّان البلاد الأصليين كان في طبيعتهم ميل إلى حياة اللّهو والمجون (235). ولا شك أن هذا ساعد على فسح المجال لطلاب اللذة، فانغمسوا فيها ونهلوا من حياضها. وأهم الشعراء الذين مثلوا هذا الجانب من الحياة الخراسانية أبو الهندي وأبو جلدة اللّذان جاهرا في أشعارهما بما كانت تتيحه لهما الحياة من فنون اللهو وضروب المجون ويبدو أن بعض العرب، كان لا يتحرج من الشراب واللّهو. نلمح ذلك من الليلة التي قضاها بنو تميم بعد أسرهم محمد بن عبد الله بن خازم (236) وما كان يقوله حينئذ وكيع قاتل ابن خازم (237)، وما أثر عن زياد الأعجم مع حبيب ابن المهلب (238)، ولا شك أن الحانات وجدت بخراسان وأنه كان يتردد عليها بعض الغاوين (239).

وقد استطاع الشعر الخمرى في خراسان أن يعطينا صورا واضحة حية، لتلك الحياة الجديدة المترفة وما كان فيها من مجالس للشراب، وحانات، وسقاة، وقيان (240) وآلات طرب (241) :

وجارية فى كفها عود بربط
يجاوبها عند الترنم زيرها

(235) تاريخ الدولة العربية ص 469 .
(236) الطبرى 4/484 .
(237) فتوح البلدان 3/513 .
(238) الاغانى دار الكتب 15/383 .
(239) نفس المصدر 13/357 .
(240) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 141 .
(241) نفس المصدر ص 141 .

اذا حــركتــــه الكــف قلـــت حمــامـــة
تجيــب أغصــــان أيــك تصورهـــــا (٢٤٢)

أما حالة الشاعر وحالة صحابه، حين يشتد بهم السكر وتأخذ الخمر منهم مأخذها فإن أبا الهندى يصورها على هذا النحو (243) :

تتـــرك القـــــوم اذا مــــا طـــربـــوا
فـــى صيــــاح ومــــــراء وصخــــــب
واذا مــــا منتــــش قــــامـــــت بــــه
رفعــــوا الأوصــــال منـــه بالخشـــب

ويحدثنا أبو جلدة عن آدابه في الشراب ومعاملة الندمان، يقول (244) :

وقــــارى وعلمـــى بالشـــراب وأهلـــه
ومــا نــادم القــوم الكــرام كــذى الحجـــر
فلســـت بـــلاح لــى نديمــا بــزلـــة
ولا هفــــوة كــانــت ونحـــن علـــى الخمــــر
فلمــا تمــادى قلـــت خـــذها عــريقـــة
فانــــك مـــن قــــوم جحــاجحــــة زهـــــر
فمــــا زلـــت أسقيــــه وأشـــرب مثلمـــا
سقيــت أخـــى حتـــى بـــدا وضـــح الفجـــر
وأيقنــــت ان السكـــــر طــــار بلبـــــه
فأغــــرق فـــى شتمـــى وقـــال وما يــــدرى
ولاك لســــانــــا كـــــان اذ لاك صــاحبـــا
يقلبــــه فـــى كـــل فـــن مـــن الشعــــــر

---

(242) تصور : تصوت .
(243) طبقات الشعراء ص 142 .
(244) الاغانى دار الكتب 11/328 .

وأبو جلدة يصور نفسه في سكره حليما كأفضل ما يكون الحليم لا يأخذ صاحبه بما يقوله لسانه عن غير وعي وهو دائم الحديث عن نشوته بالخمر ومتعته هو ورفاقه بها، ومبادرته لحانتها (245) :

الا رب يوم لى نسيت وليلة
ولا مثل أيامى المواضى بتستر
نعمت بها أسقى سلافا مدامة
كريم المحيا من عرانين يشكر
نبادر شرب الراح حتى نهرها
وتتركنا مثل الصريع المعفر

وعلى الرغم من أن شعر الخمر لا نراه يداني من حيث الكثرة بقية الموضوعات الشعرية الأخرى في الشعر الخراساني فإن ما انتهى إلينا من نصوصه وخاصة من شعر أبي الهندي وأبي جلدة مثل الحياة الخراسانية من جانبها الماجن، أصدق وأتم تمثيل. فمن هذا الشعر نعرف أن بعض الملاهي هناك كانت تقدم للذين يقصدونها كلّ ضروب اللّذة (246) من ذلك حديث أبي جلدة عن شربه الخمر مع دهقانة وقعت في قلبه (247) :

وكأس كأن المسك فيها حسوتها
ونازعنيها صاحب لى ملوم
أغر كأن البدر سنة وجهه
له كفل واف وفرع ومبسم
يضىء دجى الظلماء رونق وجهه
وينجاب عنه الليل والليل مظلم
به تبلتنى واستبتنى وغادرت
لظى فى فؤدى نارها تتضرم

---

(245) نفس المصدر 329/11 .
(246) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 136 ، 138 ، الاغانى ساسى 179/21 .
(247) الاغانى دار الكتب 325/11 .

ويذكر أنّها تبلته بحبها ثم توارت عنه على الرغم من الهـوى العاصف بفـؤاده (248) :

فمـن مبلـغ قـومـى الدنـــا أن مهجتـــى
تبيـــن لئـــن بـانـــت ألا تتـلـــوم
وعهـدى بهـــا واللـــه يصلـــح بـالهـــا
تجـــود علـــى مـــن يشتهيهـــا وتنعـــم
فمـــا بـــالهـــا ضنـــت علـــى بـــودهـــا
وقلبـــى بهـــا يـــا قـــوم عـــان متيـــم

ومن الطريف أنهم ذكـروا أن هذه الدهقانـة لما بلغهـا هذا الشعـر وفسـروه لها غضبت من قوله وقاطعته لأنه وصفها بأنها تجود على مـن يشتهيهـا (249)، وتشـوق أبو جلدة لها تشوقا عظيما ولكنـه سـلا عنهـا بعد أن يئس من وصلهـا وذكر ذلك في شعـره (250) :

صحـــا قلبـــى وأقصـــر بعـــد غـــى
طـويـــل كـــان فيـــه مـــن الغـــوانـــى
بـــأن قصـــد السبيـــل فبـــاع جهـــلا
بـــرشـــد وارتجـــى عقبـــى الـــزمـــان
وخـــاف المـــوت واعتصـــم ابـــن حجـــر
مـــن الحـــب المبـــرح بـالجـنـــان
وقـــدمـــا كـــان معتـــرمـــا جمـــوحـــا
الـــى لـــذاتـــه ســـلـــس العنـــان
وأقلـــع بعـــد صبـــوتـــه وأضحـــى
طـويـــل الليـــل يهـــرف بـالقـــران

---

(248) الاغانى دار الكتب 325/11 .
(249) نفس المصدر 326/11 .
(250) نفس المصدر 326/11 .

ويـدعـــو اللـــه مجتهـــدا لكيمـــا
ينـــال الفـــوز فـــى غـــرف الجنـــان

ويروى أنّه مرذات يوم بقصر من قصور "بست" كان ينزلـه أحد الدهاقنة فرأى ابنة لهذا الدهقان تطل من أعلى القصـر فلم يلبـث أن قـــال (251) :

ان فـــى القصـــر ذى الخبـــا بـــدر تـــم
حســـن الـــدل للفـــؤاد مصيبـــا
ولـــعـــا بـــالخلـــوق يـــأرج منـــه
ريـــح زنـــد اذا مـــا استقـــل منيبـــا (٢٥٢)
يلبـــس الخـــز والمطـــارف والقـــز
وعصبـــا مـــن اليمـــانـــى قشيبـــا
ورأيـــت الحبيـــب يبـــرز كـــفـــا
مـــا رآه المحـــب الا خضيبـــا

و كان بعض أهل التقوى والصلاح لا يزالون ينهون هؤلاء المجان عـن مجونهم ولكنهم لا يرعون ولا يزدجـرون (253). ومهما يكن، فقد أجـاد الشاعر الايراني في وصف الخمر وهو يكثر من الحديث عن لونهـا ورائحتهـا وانهـا تذهب الزكام، ويقول إنها صافيـة صفاء عين الديك (254) :

معتقـــة كـــالمســـك يـــذهـــب ريحهـــا
الـــزكـــام وتـــدعـــو المـــرء للجـــود بالوفـــر
تلـــوح كعيـــن الـــديـــك ينـــزو حبـــابهـــا
اذا مـــزجـــت بالمـــاء مثـــل لظـــى الجمـــر

و كثيـرا ما يذكر أن أباريقهـا طويلـة الأعنـاق (255) :

---

(251) نفس المصدر 11/319 .
(252) استقل : رجع
(253) فوات الوفيات 2/242 ، الاغانى ساسى 21/179 .
(254) الاغانى دار الكتب 11/322 .
(255) الاغانى ساسى 21/177 .

مفدمـــة (٢٥٦) قـــزا كـأن رقـابهـــا
رقـــاب بنـــات المـــاء تفـــزع للرعـــد

وتتـرآى له دنانـها وهي ملقـاة على الأرض كأنهـا صريـع من السـودان جعد الشعـر (257) :

تضمنـــهـــا زق أزب كـــأنـــه
صريـــع مـــن الســـودان ذو شعـــر جعـــد

ولعل ما ذكره القدامى من أن أبا نواس وجماعته انّما بلغوا ما بلغوا في وصفهم للخمر بفضل من سبقهم من الشعراء، هو قول فيه كثير من الصحة والصواب (258)، وإنّ الدارس ليشعر بنفس شعور الأقدمين حين يقرأ خمريات أبي جلدة وابي الهندي، ويجعله يميل الى ان ابا نواس وطبقته إنما توكأوا فيما نظموه من خمريات على اشعارهما ٥

---

(256) مقدمة : مصفاة ، والقدام : خرقة توضع على الابريق لتصفية ما به من خمر .
(257) الاغانى 21/177 ساسى .
(258) طبقات الشعراء ص 142 ، الاغانى ساسى 21/177 .

الشعراء

ليس القصد في هذا الفصل أن نترجم لكل الشعراء الذين عاشوا الحياة الخراسانية جميعها أو بعضا منها وإنما هو فصل عقد للتعريف ببعض الشعراء الفحول الذين عاشوا في إيران ومثلوا حياتها من أكثر وجوهها، وتركوا لنا من بعد ذلك آثارا شعرية وصورا صادقة تنبض بالحياة ومن أهم هؤلاء الشعراء : زياد الأعجم، والمغيرة بن حبناء، وثابت قطنة وكعب الأشقرى، وأبو الهندى، والشمردل بن شريك.

زياد الاعجم

زياد الأعجم من شعراء خراسان وفحولهم (1). وقد قدر للقدامى ان يختلفوا في نسبه كما قدر لهم أن لا يتفقوا على تاريخ ولادته، ولا مكانه الذى نشأ به. فبعضهم يذهب إلى أنه زياد بن سليمان (2). ومنهم من يقول ابن سلمى (3) و،بهم من يذكر أنه ابن سليم (4) وهناك من يدعوه ابن جابر (5)، ورأينا بعضهم يضرب عن هذا الخلاف كله ليقول هو زياد الأعجم (6). ويلاحظ أن مصادر متعددة قديمة تتجنب ذكر نسب زياد كاملا ونراها تجمله اجمالا (7)، إلا أن بعضها يتوخى شيئا من التفصيل حين يشير إلى أنه من أحد بني عامر بن الحارث، ثم أحد بنى مالك بن عامر

---

(1) تاريخ الاسلام للذهبى 4/ 113 .
(2) امالى اليزيدى ص 1 ، المؤتلف والمختلف 193 ، الاغانى 15/ 380 .
(3) الخزانة 4/ 193 ، الاشتقاق ص 333 ، معجم الادباء 4/ 221 .
(4) شرح شواهد المغنى ص 74 ، ابن عساكر 5/ 401 ، الذهبى 4/ 113 .
(5) الاغانى 15/ 380 ، وفيات الاعيان 4/ 436 .
(6) العينى 2/ 420 .
(7) الاشتقاق ص 333 .

ابن الخارجية (8)، أو أحد بني الخارجية (9). وهم بعد هذا كله نجدهم المختلفون في أصل نسبة هل هو عربي أصيل (10) أو أنه ينسب إلى عبد القيس بالولاء (11) وقد ذهبت الكثرة إلى أنه عبدلي بالولاء. وهم أيضا يختلفون في تاريخ مولده والموطن الذي فيه نشأ، فمنهم من يذهب إلى أنه وكان ينزل اصطخر ثم انتقل إلى خراسان وأن مولده بأصبهان وفيها نشأ (12) ومن يذهب إلى أنه ولد بفارس (13) وهم يجمعون على أنه كان يلقب بالأعجم ويكنى بأبي أمامة (14). ونستطيع بعد ذلك أن نفترض ان زيادا لم يولد في بيئة عربية خالصة وإنما كان مولده باحدى تلك المناطق الفارسية النائية قد تكون أصبهان.

ويظهر من هجاء المغيرة بن حبناء له أنه كان ينزل اصطخر، يقول فيه وفي بناته(15) :

بأصطخر لم يلبسن من طول فاقة
جديدا ولم تلق لهن الوسائد

وأكبر الظن أنه كان أعجمي الأصل، إذ قال الرواة إنه كانت في لسانه لكنه جعلته عاجزا عن أن ينطق بعض الحروف ولا يستطيع أن يخرجها من مخارجها الصحيحة كما يفعل العربي الفصيح، ولهذا السبب بعينه اتخذ لشعره منشدا تحمل مؤونته وقاسمه جوائزه وبقي على هذه الحال حتى وهبه المهلب غلاما من غلمانه كان معروفا بالفصاحة وذكروا

---

(8) الاغاني دار الكتب 15/380 .
(9) المؤتلف ص 193 .
(10) الشعر والشعراء 1/395 ، وفيات الاعيان 4/436 ، طبقات فحول الشعراء ص 551 .
(11) الخزانة 4/193 ، شرح شواهد المغنى ص 74 ، معجم الادباء 4/221 .
(12) الاغانى 15/380 .
(13) العينى 2/420 .
(14) معجم الادباء 4/221 ، ابن عساكر 5/401 .
(15) الاغانى دار الكتب 13/96 .

أنه كان بسبب هذه اللثغة ينطق السين شينا (16) والعين همزا والكاف ياء والصاد سينا والحاء هاء والراء زايا، كما كان يقلب، في نطقه، الطاء تاء، وروى أنه نادى مرة غلاما له كان أبطأ عليه، فقال : "منذ لدن دأوتك الى أن قلت لبي ما كنت تسنأ (17) ؟ وحين سأله أحد المهالبة بعد أن رثى المغيرة بن المهلب، هل عقرت أنت يا أبا أمامة ؟. فأجابه زياد، في بعض الروايات، بقوله : "إني كنت على متن الهمازة"(18). وجاء في العقد الفريد أن زيادا مدح يزيد بن المهلب فقال فيه (19) :

فتى زاده الشلتان في الحمد رغبة
اذا غير الشلتان كل خليل

فقلب في شعره، الطاء تاء والسين شينا وذلك لأن بين الطاء والتاء نسبا. ولا شك أن فساد لسان زياد على هذا النحو لم يأته من اقامة كانت له بين الأعاجم لسنة أو لسنتين، وإنما هي كما يظهر ترجع إلى أصله الأعجمي وأنه نشأ في بيئة أعجمية، وتعلم العربية بعد ذلك، وظلت في لسانه عقدة العجمة (20). وكل ما قدمنا يؤكد أنه كان من موالي عبد القيس كما ذهب إلى ذلك أكثر المراجع القديمة (21)، وكان خصومه الشعراء يعيرونه دائما بأنه مولى (22) :

علج تعصب ثم راق بقوسه
والعلج تعرفه اذا يتعمم

على أن هناك شبهة في عجمته تأتي من قول صاحب اللسان : الأعجم هو "الذى لا يفصح ولا يبين كلامه وان كان عربي النسب كزياد الأعجم...

---

(16) العصر الاسلامى ص 228 .
(17) الاغانى دار الكتب 15/380 .
(18) ابن عساكر 5/403 .
(19) العقد الفريد 2/478 .
(20) الاغانى طبعة دار الكتب 13/89 .
(21) نفس المصدر 15/380 .
(22) نفس المصدر 13/92 .

فأمـا العجمي فالذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح (23). وكأن صاحب اللسان يظنـه عربيا وعجمتـه إنمـا هي في لسانه، ولكن ذلك يبعد، والأصح أنه كان من الموالي. ونحن لا نعرف شيئا عن نشأة زياد وأول ما نلقاه مع الجيش الفاتح الذى حاصر اصطخـر (24) ويبرز لنا بعد ذلك شاعرا فحلا في مدحه وهجائه ومراثيه. واذا كان التاريخ أغفـل الكثير من حياة زيـاد فإنّنا نستطيع، مع ذلك، أن نعرف شيئا غير قليل عن شخصه وطباعـه من خلال ما أثر عنه من الشعر، وما كان يحصل بينه وبين أهل عصـره على اختلاف منازلهم وطبقاتهم. فمثلا نستطيع أن نعرف من خلال شعره ومن بعض ترجمتـه، أنه كان من أصحاب الرواية والحديث، ويذكرون أنه حدث عن طائفـة من الصحابة منهم عبد الله بن عمـرو وأبو موسـى الأشعـرى. كمـا حدث عنه جمـاعة، منهم طاووس وهشام ابن قحذم وأخوه المحبر بـن قحذم (25). كذلك نستطيع أن نعرف أن له وفادة على هشام ابن عبد الملك (26)، وأنـه كان كثيرا ما يتردد على بعض الأمصار الاسلاميـة. ويتبين لنا من خلال شعره أيضا أنه كان عارفا بالانساب معرفة ربما كانت واسعـة (27). ومثل هذه المعرفة تعتبر في ذلك الوقت من مستلزمات الشعراء الذين لا يفتأون يخوضون المعارك القائمـة على أساس العصبية. وزياد على الرغم من أنه كان من رجال الحديث، فاننـا نجده شاعرا مغرمـا بهجـاء الوعاظ والفقهـاء والنسـاك (28).

ويقال انه كان ذات يوم ينشد شعرا في هجاء قتادة بن مغرب فمر به يزيـد ابن حبناء الضبي فوعظـه ونهاه فلم يقبل منه زياد كلامـه وهجاه (29). وهذا الموقف لزيـاد يدل على أن نفسه كانت ميالة الى الشـر، نزاعة الى

(23) لسان العرب ط بولاق سنة 1303 هـ 279/15 .
(24) تاريخ الاسلام للذهبى 113/4 ، ابن عساكر 401/5 .
(25) تاريخ الاسلام للذهبى 113/4 .
(26) شرح شواهد المغنى ص 74 .
(27) الخزانة 548/2 .
(28) العصر الاسلامى 229 .
(29) الاغانى دار الكتب 385/15 .

الثلب والسباب، وهو بعد هذا، كما يظهر، رقيق الدين يشرب الخمر كما يشربها الأعاجم ويتشبه بهم في زيهم (30). وتدل أخباره على أنه كان حاضر البديهة سريع الجواب. (31) ولئن لم يشتهر زياد ببأس أو شجاعة فانه استعاض عن هذا كله بما قدر له من هذه الموهبة الشعرية التي جعلته يبلغ درجة الجودة في كل الموضوعات التي طرقها فلقد برز في الهجاء كما برز في الرثاء والمديح (32). ولعل سبب تبريزه في هذين الفنين يرجع الى أنه كان شاعرا جوالا، ولم يكن هذا ليحط من قدر شعره بل إن ما بلغه من الجودة في هذين اللونين من الشعر، نسج حوله هالة من التقدير وجعله مأملا لذوي النعم ومخافة لأصحاب البخل والامساك ممن عرفوا بالحرص المفرط. وتدل أخباره على أنه كان فيه وفاء كما يتضح لنا من مراثيه فيمن ماتوا من ممدوحيه مثل المغيرة بن المهلب الذى رثاه بقصيدة رائعة، وقد تمثل الحجاج منها "لما مات ابنه" بهذين البيتين (33) :

الآن لما كنت أكمل من مشى ... وافتر نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة كلها ... وأعنت ذلك بالفعال الصالح

والحق أنه يعتبر من فحول الشعر العربي بخراسان (34). وقد وضعه ابن سلام في الطبقة السابعة من فحول شعراء الاسلام (35). وقد قضى معظم حياته مترددا بين الأمراء والقواد في الامصار الاسلامية، أمثال المهالبة وعبد الله بن الحشرج وابن معمر وغيرهم يمدحهم ويتلقى جوائزهم.

---

(30) الاغانى دار الكتب 15/383 س 2 ، 384 .
(31) نفس المصدر 15/393 ، 394 .
(32) العصر الاسلامى 229 .
(33) الشعر والشعراء 1/397 .
(34) تاريخ الاسلام للذهبى 4/113 .
(35) ابن عساكر 5/401 ، طبقات فحول الشعراء ص 551 .

وذكروا أنه كان من المعمـرين طال بـه العمر حتى قيل انه أدرك خلافـة هشام بن عبد الملك ووفد عليه (36). ونحن عندما نرجـع الى الحرب الكلامية التي دارت بينه وبين صاحبه المغـيـرة بن حبناء، نجده يقـول عن نفسـه وهو يخاطب المغيـرة (37) :

فلسـت بسـابقـي هـرمـا ولـمـا
يمـر علـى نـواجـذك القـدوم

فقد كان، اذن، في ذلك الوقت، شيخا كبيرا وهو ما أفصح عنه المغيـرة في هذه المهـاجاة وذلك حين قال فيـه (38) :

ولكنهـم جـاءوا بـأقلـف قـد مضـت
لـه حجـج سبعـون يصبـح رازمـا

واذا صح قول المغيرة فيه ـ وما إخاله إلا صادقا ـ فـإن زيادا في هـذا الوقت كان يعيش في العقد الثامن. وإذن لا شك في أنه كان يعد من أكبـر شعـراء خراسان سنّا إن لم يكن أكبرهم، ففي الروايات أن المهلب فضلـه على أقرانه لكبر سنه، فاذا عرفنا هذا وأدركنا أن زيادا شهد فتح اصطخر مع أبي موسى الأشعري وكان فتح هذه البلاد في سنة 23 من الهجرة (39) فـإن ذلك يـدل على أن سنـه حينئذ كانت لا تقـل عن الرابعـة عشـرة. وصحـة هذا التحديد تتوقف على مدى صدق ما ذكره المغيرة من أن عمـر زياد كان إبّان مهاجاته له سبعين سنة، الا أن عجزنا عن معرفة التاريـخ المحدد للمعركة الكلامية التي قامت بين الشاعرين وأغلب الظن أنها كانت بين سنـة 79 وهي السنة التي جاء فيها المهلب واليا على خراسان (40)، وبين سنـة 82 وهي التي توفي فيها المهلب (41) ومهما يكن من أمر فإن

(36) تاريخ الاسلام للذهبى 4/113 .
(37) الاغانى دار الكتب 13/93 البيت الثانى .
(38) نفس المصدر 13/94 .
(39) الكامل لابن الاثير 3/20 .
(40) الطبرى 5/136 س 9 .
(41) نفس المصدر 5/161 .

ولادة زياد تكون بين السنة التاسعة وبين الثانية عشرة من الهجرة.

أما بالنسبة لوفاته، فان صاحب كشف الظنون يذكر أنه توفى سنة 101 (42) للهجرة وهذا قول يمكن الاطمئنان إليه لولا أن هناك رواية تدعونا إلى أن نشك فيه وهي الرواية القائلة بأن زيادا الأعجم كانت له وفادة على هشام ابن عبد الملك ونحن نعلم ان ولاية هشام كانت سنة 105 من الهجرة، ومعنى ذلك أن زيادا عاش حتى أدرك خلافة هشام ووفد عليه (43). ومهما كان الامر فإن زيادا يعتبر من المعمرين الذين طال بهم الآجل فعبروا القرن الاول وعاشوا في ثانيه أو قل ماتوا في بداية ثانيه. أما مسألة الوفادة هذه فإنها تدعونا الى النظر. ومن الغريب حقا اذا كان زياد عاش بعد المائة الأولى في خراسان، ووفد على هشام بدمشق — ان يسكت كل هذا السكوت ولا نعرف عنه شيئا وهو الشاعر المداح الهجاء فكيف يفد على الخليفة ولا يقول فيه شعرا ؟ فهل هجر الشعر من بداية القرن الثاني واستمر على هذه الحال الى أن مات ؟

إن هذا الافتراض بعيد عن شاعر مثل زياد قضى حياة نشيطة فطعن ما شاء له الطعن ومدح ما شاء له المديح. ولا بد أن نلاحظ أن ديوانه لم ينته إلينا وان ذكر بعضهم انه كان موجودا (44).

وقد نشأ زياد في عصر كان الحكم فيه يعتمد اعتمادا كليا على العنصر العربي فكان شعره نتيجة، لذلك، متجاوبا مع بيئته ومتلونا وفق ما اقتضته متطلباتها. ولما كان العصر الأموي بمثابة امتداد لحياة العرب الماضية، فإننا رأينا زيادا يسير في نظمه على النهج التقليدي القديم يمدح كما كان يمدح شعراء الجزيرة العربية ويهجو ويرثي كما كانوا يهجون ويرثون. وقد جاءت ألفاظه وصوره البيانية، تبعا لذلك، انعكاسا واضحا لمفهوم الشعر في تلك الفترة واستجابة صادقة لما كانت تفرضه مقتضيات السياسة وظروف

---

(42) كشف الظنون 1/791 .
(43) شرح شواهد المغنى ص 74 .
(44) وفيات الاعيان 5/323 .

المجتمع الايراني الأموي. وأغلب شعر زياد مديح ومراث، وهو شاعر متكسب بشعره، وفي ذلك ما يقيم وجوها من الخلاف بينه وبين كعب الأشقري والمغيرة بن حبناء، فقد كانا فارسين ولذلك كثر عندهما الفخر، ولكن اذا كانت فاتته الفروسية فانه لم تفته جودة الشعر، ومن أهم ما يميزه عنصر الأصالة وقوة االملكات التي جعلته يتقن نظم الشعر اتقانا ولعله كان يتفوق فيه على كثير من شعراء العرب الأصليين في عروبتهم.

ولعله من الطريف أن نعرف أنه كان كثيرا ما يقول الشعر ارتجالا. فمن ذلك ما يذكرونه من أنه كان مع حبيب بن المهلب في مجلس شراب بدار له "فيها دلبة" (45) فسمع زياد حمامة تغني فوقها فقال مرتجلا (46) :

تغنى أنت فى ذممى وعهدى
وذمة والدى ان لم تطارى
وبيتك أصلحيه ولا تخافى
على صفر مزغبة صغار
فانك كلما غنيت صوتا
ذكرت أحبتى وذكرت دارى
واما يقتلوك طلبت ثأرا
له نبأ لأنك فى جوارى

ولم يكد ينتهي زياد من قوله حتى نادى حبيب غلامه ليأتيه بقوسه و كانت النتيجة أن استعدى زياد عليه أباه المهلب فحكم له، وأعطاه حبيب دية الحمامة فأنشد (47) :

فلله عينا من رأى كقضية
قضى لى بها قرمِ العراق المهلب

---

(45) الاغانى ط بيروت 15/309 .
(46) الاغانى دار الكتب 15/383 .
(47) نفس المصدر والصفحة .

رماها حبيب بن المهلب رمية
فأثبتها بالسهم والسهم نعرب
فألزمه عقل القتيل ابن حرة
وقال حبيب انما كنت ألعب
فقال زياد لا تروع جارة
وجارة جاری مثل جاری وأقرب

وسياق الحديث عند أبي الفرج يفيد أن هذه المقطوعة، أيضا، قالها زياد ارتجالا لأن أبا الفرج يقول : "فأعطاه فأنشأ يقول". ولعلك تلاحظ سلاسة ألفاظ هاتين المقطوعتين وخفة جرسهما على السمع. ومثل هذا الشعر في خفته وجمال معناه وتآلف قوافيه، ما يقوله زياد، حين قام على رأس أبي قلابة الجرمي منشدا (48) :

قضى الله خلق الناس ثم خلقتم
بقية خلق الله آخر آخر
فلم تسمعوا الا بمن كان قبلكم
ولم تدركوا الا مدق الحوافر
وأنتم ألى جئتم مع البقل والدبى
فطار وهذا شخصكم غير طائر
وما أنتم انا نسينا من أنتم
وريحكم من اى ريح الأعاصر

وفي ذلك ما يشهد بقوة طبعه، وهي قوة تلاحظ في حائيته الطويلة التي رثى بها المغيرة بن المهلب، كذلك في أهاجيه على شاكلة قوله في هجاء المغيرة بن حبناء (49) :

---

(48) العينى 420/2 .
(49) الاغانى دار الكتب 92/13 ، 93 .

ألم تر أنني أوترت قوسي
لأبقع من كلاب بني تميم
عوى فرميته بسهام موت
كذاك يرد ذو الحمق اللئيم
وكنت اذا غمزت قناة قوم
كسرت كعوبها او تستقيم
هم الحشو القليل لكل حي
وهم تبع كزائدة الظليم
فلست بسابقي هرما ولما
يمر على نواجذك القدوم (٥٠)
فحاول كيف تنجو من وقاعي
فانك بعد ثالثة رميم

ولعلك لاحظت الإقواء في بعض أبيات هذه القصيدة مما يدل على أنه كان لا يعير شعره قدرا كبيرا من الصناعة الشعرية وهذا نفسه يلاحظ في مدائحه، فانه كان يعرف كيف يختار ألفاظه اختيارا محكما حتى ليروع القارىء بمثل قوله في عبد الله بن الحشرج (51) :

ان السماحة والمروؤة والندى
في قبة ضربت على ابن الحشرج
ملك أغر متوج ذو نائل
للمعتفين يمينه لم تشنج
يا خير من صعد المنابر بالتقى
بعد النبي المصطفى المتحرج

---

(50) القدوم : آلة ينحت بها والقصد فى البيت ان المهجو صغير غير مجرب ،
(51) الاغانى 15/386 ، 387 دار الكتب .

لمـــا أتيتـــك راجيـــا لنـــوالكـــم
ألفيت بـــاب نـــوالكـــم لـــم يـــرتـــج (٥٢)

وهو شعر مشرق الديباجة له رونق وماء وطلاوة. على شاكلة قولـه(53) :

سـألنـــاه الجـــزيـــل فمـــا تلـكـــا
وأعـــطـــى فـــوق منيتـــنـــا وزادا
وأحســن ثـــم أحسـن ثـــم عـــدنـــا
فـــأحســـن ثـــم عـــدت لـــه فعـــادا
مـــــرارا لا أعـــود اليـــــه الا
تبســـم ضـــاحكـــا وثنـــى الـــوســـادا

والحق أنه كان يعرف كيف يختار ألفاظه، وكيف يصبها في القالب الذي يناسبها من الأوزان الشعرية. وله في المهلب أمداح بديعة من أروعها مديحه له بعد انتصاره على الخوارج حين هددوا البصرة وتمزيقه لهم شر ممزق، يقول (54) :

جـــزى اللـــه خيـــرا والجـــزاء بكفـــه
أخـــا الأزد عنـــا مـــا أذب وأحـــربـــا
ولمـــا رأينـــا الأمـــر قـــد جـــد جـــده
وألا تـــوارى دوننـــا الشمـــس كـــوكبـــا
دعونـــا أيـــا غســـان فاستـــك سمعـــه
وأحنـــف (٥٥) طـــأطـــأ رأســـه وتهيبـــا
وكـــان ابـــن منجـــوف (٥٦) لكـــل عظيمـــة
فقصـــر عنهـــا حبلـــه وتـــذبـــذبـــا

(52) لم يرتج : لم يغلق .
(53) معجم الادباء 4/222 .
(54) الاخبار الطوال للدينوري ص 272
(55) الاحنف : الذى يمشى على ظهر قدميه .
(56) المنجوف فى الاصل : السهم العريض النصل ، كناية عن شهرة الممدوح .

فلما رأينا الأمر قد جد جده
لدى حربهم فيه دعونا المهلبا

ولا ريب في أنك تشعر وأنت تقرأ هذا الشعر بحرارة العاطفة وصدق الشعور على أن زيادا قد يعنى أحيانا بادخال شيء من الغريب في أشعاره على نحو ما نجد في مرثيته الحائية للمغيرة بن المهلب وكأنه يريد أن يدل على تعمقه اللغوى، ومع ذلك فهو لا يبعد في إغرابه بل يظل قريبا بالقياس إلى أمثال العجاج وغيره من معاصريه، ومن قوله فيها (57) :

فى جحفل لجب ترى أعلامه
منه تعظل بالفضاء الفاسح
يقص السهولة والحزونة اذا عدا
بزهاء أرعن (٥٨) مثل ليل جانح
ولقد أراه مجففا أفراسه
يغشى مراجع فى الوغى بمراجح
كان المهلب بالمغيرة كالذى
ألقى الدلاء الى كفيت مائح
فأصاب جمة (٥٩) مستقى فسقى له
فى حوضه بنوازع ومواتح (٦٠)
أيام لو يحتل وسط مفازة
فاضت معاطشها بشرب سائح
ان المهالب لا يزال لهم فتى
يمرى قوادم كل حرب لاقح

---

(57) آمالي اليزيدى ص 3 فما بعدها .
(58) زهاء ارعف : الجيش الذى له فضول ، كناية عن كثرته .
(59) الجمة فى الاصل : مجتمع شعر الراس ، قصد هنا كثرة المياه ،
(60) النوازع جمع نازعة : الدلو يستقى بها .

بالمقربـــــــات لـــواحقـــا أقـــرابهـــــا
تجتـــاح عــرض سبـاســب وصحـاصــح
تـــــردى بكــــل مــدجـــج ذى نجــــدة
كالأســـد بيــن عــرينهـــا المتنـــاوح
متلببـــا تهفـــو الكتـــائـــب حـــولـــه
ملــح البطـــون مــن النضيــح الــراشـــح

وهو يحدثنا كما ترى، عن بطولة المغيرة وكيف إنه كان يخوض معارك القتال في جحافل ترى أعلامها ينشب بعضها ببعض في الفضاء الواسع. ويشبه المهلب والمغيرة أمامه بماتح من بئر، يدفع الدلاء الى شخص لا يزال يملؤها له ماء زلالا ويقول إنه سيظل للمهالبة فتى مقداما (يريد أبناء المهاب الاخرين يزيد وغيره) يخوض غمرات الحروب ويجلى فيها بأسه وشجاعته. وعلى الرغم من طول هذه القصيدة فإنك لا تشعر أن ناظمها قد تكلف أو تمحّل، أو أنه أرهق نفسه وحملها ما لا تطيق، وانظر إليه يمدح جبير بن الزبعرى النميري (61):

وجـــــدت العــــــامــرى بـــن الزبعـــرى
جبيــــرا خيــر مختبـــط (٦٢) لســـــار
وجـــدتـــك اذ يـــلاك الأمـــر صلبـــا
كـــريـــم العــرق مــن عـــود نضـــار
وزنـــــدك حيــن تنســب مــن نصيـــر
كـــريمـــا فـــى زنـــاد المجــــد وار
لعمــــرك مـــا رمــاح بنـــى نميـــر
بطـــائشـــة الكعـــوب ولا قصـــار

(61) المؤتلف والمختلف ص 195 .
(62) مختبط : من خبط الشجرة اذا ضربها ليسقط ما بها. والمقصود انه خير من يقصد .

فإنك ترى سهولة الأسلوب ونصاعته، ويقال إن إمرأة من بني نمير سألت عن قائله فأخبروها أنه زياد الأعجم فأوصت له بثلث مالها (63).

ومما لا شك فيه أن زيادا كان من الشعراء الموهوبين، الذين اجتمعت لهم الموهبة الشعرية والمعرفة الواسعة باللغة ومن أجل ذلك استطاع أن يكون مجيدا دائما في شعره وأن يملك به إعجاب المعجبين من رجال ونساء وإذا حاولنا ان نعرف بعض الميزات الشعرية التي اختص بها زياد الأعجم. فأول تلك الميزات أنه كان من الشعراء المقتصدين الذين لا يميلون إلى المبالغة في أشعارهم، انظر مثلا الى قوله (64) :

ان الأشاقر قد أضحوا بمنزلة
لو يرهنون بنعلى عبدنا غلقوا

فقد كان زياد يستطيع، أن يسوق البيت بأسلوب غير هذا الأسلوب ودون أن يذكر حرف لو، ولكن احساس زياد الشعري جعله يتجنب هذه المبالغة وقل مثل ذلك ايضا بالنسبة الى قوله وقد تقدم :

أيام لو يحتل وسط مفازة
فاضت معاطشها بشرب سائح

فإن حالة المهلب تبدو لزياد، يوم كان المغيرة ابنه إلى جانبه، واسع الفصل، كثير الخير لما له من حسن البلاء ولما كان يجلبه لأبيه من غنيمة وفيء. وهو قادر على أن يحيي المفازة فيجعلها تتدفق حياة، فانظر كيف أملى عليه حدسه الفني، هذا البيت فجعله بعيدا عن ضروب المبالغة والتمحل. وعلى هذا النحو ما هجا به اليشكريين إذ قال (65) :

لو أن بكرا براه الله راحلة
لكان يشكر منها موضع الذنب

---

(63) نفس المصدر والصفحة .
(64) الاغاني 14/288 دار الكتب .
(65) طبقات فحول الشعراء ص 557 .

ليســـوا اليـــه ولكـــن يعقلـــون بـــه
كمـــا تعلـــق راقـــى النخـــل بالكـــرب

فزياد لم يرد في هذا الهجاء أن يكون مبالغا، لذلك رأيناه يفترض مجرد فرض، آنه لو كاذر هط بكر راحلة لما رآيت منزلة بني يشكر منها الا منزلة الذنب من تلك الناقة. وفي هذا الشعر دليل قوي على قوة زياد التصويريـة، فهم ليسوا إلى هذا الذنب وإنّما هم يعلقون به فقط ولا يكتفي بذلك إذ شبه حال بني يشكر في هذا التعلق، براقي النخل الذى يتمسك بأصول سعفه الجاف الغليظ حتى يتجنب السقـوط. ويبدو أن زيادا كان بارعا في هذا المضمـار إذ يتناول آقرب ما يقع عليه بصره، فيحولـه إلى صورة شعريـة ممتعـة، وانظـر الى قوله أيضـا (66) :

لعمـــرك انـــنـــى وأبـــا حميـــد
كمـــا النشـــوان والـــرجـــل الحليـــم
أريـــد حيـاتـــه ويـريـــد قتلـــى
وأعلـــم أنـــه الـــرجـــل اللئـيـــم

ألا ترى كيف وفق الى هذه الصورة الواقعية البديعة التي هي في الواقع مركبة من صورتين متقابلتين، فقد نزل نفسه وهـو الرجل الذي يحسن إلى صاحبه منزلة السيد الكريم الواسع الصدر ونزل صاحبه الذي يسعى الى الاساءة اليه منزلـة السكران وشتان بين الرجلين، فالأول يسعى بالخير ويتمناه لكل من يوده والثاني سيء القلب فاسد الطبع لا يرجو لصاحبه غير الموت والهلاك. ولا شك أننا قد عرفنا مدى براعة زياد في التصوير ومـدى مقدرتـه وفي تلوين صوره حتى أن القارى ليشعر أن ما رسمه إنما جاء عفو الخاطر، ودون أن يسعى إليه أو يكلف نفسه جهد البحث والتمحيص ولك أن تنظـر حين شبه الدروع وهي تبدو على أصحابها في حالة لمعـان، بالغدران التي تحيـز مـاؤهـا (67) :

---

(66) العينى 3/346 .
(67) ذيل الامالى ص 10 .

لبســـــوا الســـوابـــغ فى الحـــــروب كأنهـــــا
غـــــدر تحيـــــز فى بطـــــون أبـــاطـــــح

ألا ترى كيف وفق زياد في هذا التشبيه حين شبه السوابغ بالغدران وسط الأباطح. وما أجمل كلمة تحيز في هذا البيت إن فيها ظلالا خاصة لا توحي بها كلمة أخرى. ثم انظر بعد هذا إلى ما يقوله في الفرزدق بعد أن هم بهجاء عبد القيس (68) :

وانـــــا ومـــا تهـــدى لنـــا ان هجـــوتنـــــا
لكالبحـــر مهمـــا يلـــق فـــى البحـــر يغـــرق

فالفرزدق إزاء محاولته لهجاء عبد القيس بمثابة من يهم بإلقاء ما بيـده بغية الفساد. ومتى كان البحر يتأثر بمثل هذا الصنيع ، وكذلك قبيلة عبد القيس فإنها لا تختلف عن البحر كلاهمـا لا يعكر صفوهما طفيلي عابث. ولعـل هذا التوفيق الذى بلغه زياد في هذا التشبيه هو الذي جعل الفرزدق يعـدل عن هجاء عبد القيس ويقول، حين بلغه هذا الشعر : ما إلى هجاء هؤلاء من سبيل ما عاش هذا العبد (69). والحق أن زيادا كان يتمتع بحس مرهـف جعل له قدرة فائقـة في اختيار اللفظ وما يسوقـه من تشبيـه.

وانظـر الى هذه الأبيات التي خاطب بها ابن معمر لما ولّي فارس وجاءه يذكـره بوعده ويمـدحـه، يقـول (70) :

فانـــــك مثـــل الشمـــس لا ستـــر دونهـــــا
فكيـــــف أبـــا حفـــص علـــى ظـــلامهـــــا
لقـــد كنـــت أرجـــو اللـــــه فى الســـر ان أرى
أمـــــور معـــد فى يـــديـــك نظـــامهـــــا

(68) معجم الادباء 4/122 ، الاغانى دار الكتب 15/392 ، 393 .
(69) معجم الادباء 4/222 ،
(70) الاغانى دار الكتب 15/385 ، 386 .

فلمــــا أتــانـــى مــا أردت تبــاشـــرت
بنــاتـــى ، وقلــن العــام لا شــك عــامهـــا
فــانـــى وأرضـــا أنـــت فيهــا ابـــن معمـــر
كمكـــة لـــم تطـــرب لأرض حمــامهـــا
وكنـــت أمنـــى النفـــس منـــك ابـــن معمـــر
أمــانـــى أرجـــو أن يتـــم تمــامهـــا
فــلا أك كــالمجـــرى الـــى رأس غــايـــة
بوحـــى (٧١) سمـــاء لـــم يصبـــه غمـــامهـــا

فبمثل هذا الشعر يرتفع زياد إلى مستوى الفحول من شعراء العربية، وعلى الرغم من أن هذا الشعر يعتبر من النوع الذي يحمل قيمته الفنية بوضوح ولا يحتاج فيه الدارس إلى تعليق، فإنّي لا أستطيع أن أتركه دون أن أشير الى براعته في بناء قافيته ونسج تشبيهاته، فلقد وجدناه يشبه صاحبه بالشمس وهذا تشبيه مألوف يجري على ألسنة كل الشعراء، ولكن زيادا جاء به على طريقته الخاصة، فبعد أن قرر تشبيهه بقوله : فإنّك مثل الشمس لا ستر دونها؛ أعقبه بعبارة إنشائية على صورة استفهام (فكيف أبا حفص علي ظلامها ؟). وبهذا الشطر من البيت خرج بتشبيهه من الطريقة المألوفة ليصبح بهذا الأسلوب ضربا من الإبداع الفنّي، ولم يكن في تشبيهه الثاني بأقل توفيقا من التشبيه الأول وذلك حين جعل الأرض التي بها ابن معمر بمثابة مكة لا يطرب حمامها لسواها :

فانـــى وأرضـــا أنـــت فيهــا ابـــن معمـــر
كمكـــة لـــم تطـــرب لأرض حمــامهـــا

ألا ترى إلى هذا التشبيه الذي صاغه الشاعر بدقة وبراعة، كيف يفتح عليك آفاقا من الخيال، وضروبا من التصوير. وإنّي لأحسب أن زيادا كان يعد نفسه شبيها لهذا الحمام، فأنسته الأرض التي بها ابن معمر كل أرض

(71) الوحى : المطر .

وأقبل إليه، ولاينبغي أن يخاف له ظنه، يقول :

فلا أك كالمجرى الى رأس غاية

بوحي سماء لم يصبه غمامها

فزياد، إذن، يخشى من أن يجد نفسه، بعد هذا الشوق الملح، كالذي جرى لغاية أمدته السماء بوحيها وضنت عليه بغمامها. وهذا تشبيه ثالث يسوقه زياد ولا يكاد يختلف، من حيث الجودة، عن التشبيهات السابقة وكذلك نراه يختص بطريقة بارعة في استخدام هذه التشبيهات. ولا شك أن ذلك يرجع الى سعة خياله مما جعله لا يقتصر في شعره، اذا شبه، على مجرد التشبيه، ولكنه يقدم لك فيه صورة كاملة. أما براعته في استعمال الكلمة فإنّك تكاد تشعر بها في كل بيت يقوله، وليس هذا بغريب على شاعر مثل زياد جمع بين المعرفة اللغوية الواسعة وبين الموهبة الشعرية الفائقة والذوق الفني المرهف. وهذه مقطوعة شعرية عتب فيها على صديقه عمر بن عبيد الله بن معمر وكان أبطأ عليه، يقول زياد (72) :

أصابت علينا جودك العين يا عمر

فنحن لها نبغى التمائم والنشر

أصابتك عين فى سماحك صلبة

ويا رب عين صلبة تفلق الحجر

سنرقيك بالأشعار حتى تملها

فان لم تفق يوما رقيناك بالسور

ففي هذه المقطوعة تتبين لك سهولة ألفاظ الشاعر وخفة وقعها على السمع بحيث لا تشعر فيها عند قراءتك بثقل أو نفرة، وبرهن زياد في هذا الأسلوب الذي عاتب به صاحبه على لباقة وخفة وظرف، ولاسيما في قوله :

سنرقيك بالأشعار حتى تملها

فان لم تفق يوما رقيناك بالسور

---

(72) الاغانى دار الكتب 389/15 .

ولعلك تلاحظ البون الشاسع بين عتاب زياد الأعجم، وبين عتاب المغيرة ابن حبناء. فعتاب زياد كان عتاب الشعراء أما عتاب المغيرة، كما سنرى، فإنما هو عتاب الشعراء الفرسان. وأحب قبل أن أنهى هذا الحديث عن زياد، أن أشير الى ملاحظتين اثنتين : احداهما وردت في دائرة المعارف للبستاني وهي أن زيادا الأعجم صاحب هذين البيتين المشهورين (73) :

كأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ولم أعرف المصدر الذي نقلت عنه الدائرة هذين البيتين، وإني لأشك شكا قويا في أن يكون زياد قال هذين البيتين وهو نفسه يفقد نصف ما يذكره فيهما. وقد ورد هذان البيتان في معلقة زهير بن أبي سلمى (74).

أما الملاحظة الثانية فإنّها تتعلق بالجانب اللّفظي الذى كان يستعمله زياد في شعره وذلك حين ذكر بعضهم وهو بروكلمان، أن زيادا الأعجم كان يستعمل كلمات فارسية في شعره (75) . ولعل هذا وهم منه أوقعه فيه وصفه بالأعجم وكأنه ظن أنه وصف بذلك لما كان يأتي به في شعره من كلمات أعجمية.

المغيرة بن حبناء

يعتبر المغيرة بن حبناء، في خراسان، شاعر بني تميم المقدم (76)، وكان من رجال المهلب بن أبي صفرة المعدودين (77). ولا نعرف على وجه التحديد التاريخ الذي ولد فيه ولا مكانه، وأغلب الظن أنه ولد

(73) دائرة المعارف للبستانى 314/7 .
(74) شرح المعلقات السبع للزوزنى مطبعة السعادة 1925 ص 90 .
(75) بروكلمان 231/1 .
(76) الاشتقاق ص 320 .
(77) الكامل للمبرد 1173/3 ، المؤتلف والمختلف ص 148 .

بالعراق وعاش مع أبويه حينا من الزمـن في نجران ثم عاد معهمـا الى العـراق موطنـه الأصلي.

ولا نعلم الأسباب الحقيقية لنزوح أبيه إلى نجران ثم عودته إلى العراق إلا ما ذكره في بعض أشعاره من اعتداء بعض الغلمـان على ابنه، يقـول (78):

تقـــول سلمـــى الحنظليـــة لابنهـــا
غـــلام بنجـــران الغـــداة غـريـــب
رأت غلمـــة ثـــاروا عليـــه بـــأرضـــه
كمـــا هـــر كلـــب الـــدار بين كليـــب
فقـــالـت لقـــد أجـــرى أبـــوك كمـــا تـــرى
وأنـــت عـــزيـــز بالعـــراق مصيـــب

ولا نعرف شيئا عن مقام المغيرة بالعراق ولا كيف انضم إلى جيش المهلب في حروبه مع الخوارج. والرواة يذهبون إلى إنه المغيرة بن حبنـاء (79) ابن عمـرو (80)، وأكثرهـم انتهى بنسبه إلى حنظلـة — وكانت أم المغيرة حنظليـة — ابن مالك بن زيد مناة بن تميم (81) ويقولون إنه كان من أشراف القوم (82). وهو من أسرة شاعرة فأبوه حبناء شاعر (83)، وأخوه صخـر شاعر، وله أخ ثان كان شاعرا (84) ويقال انه كان أبرص. أما أخواه فكان أحدهمـا أعور وثانيهمـا مجذوما (85). وكان أخوه صخر فقيرا معدما. ويبدو أن المغيرة على الرغم مما كان يتعهده به المهلب من الجوائز السنية

---

(78) الاغانى دار الكتب 13/99 .
(79) المؤتلف والمختلف ص 148 ، الاشتقاق ص 320 .
(80) معجم الشعراء ص 273 ، والخزانة 3/601 .
(81) الاغانى دار الكتب 13/84 .
(82) كتاب المحبر لابن حبيب ص 299،302 .
(83) الاغانى 13/99 .
(84) المؤتلف والمختلف ص 149،150 ، الاغانى 13/96 ، 97 .
13/96 ، 97 .
(85) الاغانى دار الكتب 13/99 .

وكريم العطايا فإنه كان رجلا شحيحا مبخلا حتى ليقول أخوه فيه (86) :

تجنيت الذنوب على جهلا
لقد أولعت ويحك بالتجني
كأنك اذ جمعت المال عير
يقعقع خلف رجليه بشن

وتدل المناقضات الشعرية التي حدثت بينه وبين أخيه من مثل قوله (87) :

الا من مبلغ صخر بن ليلى
فاني قد أتاني من نثاكا
رسالة ناصح لك مستجيب
اذا لم ترع حرمته رعاكا
جزاني الله منك وقد جزاني
ومني في معاتبتي جزاكا

على أنه كان فظا غليظ القلب وعندما انفصل عن البعث الذى ضربه المهلب لمطاردة الخوارج، حين أخذوا يغيرون على نواحي الأهواز رأينا المهلب يحذف اسمه ولكنه عاد فأثبته في المحاربين بعد أن اعتذر إليه بقصيدته الميمية التي مدحه بها (88).

وتشعر وأنت تقرأ شعره أن له طابعا خاصا من الشجاعة وقوة البأس والاعتداد بنفسه وقومه، على نحو ما يصور ذلك في قوله (89) :

انى امرؤ حنظلى حين تنسبني
لا ملعتيك ولا أخوالى العوق

---

(86) الخزانة 2/313 .
(87) المؤتلف والمختلف ص 149 .
(88) الاغانى دار الكتب 13/88 .
(89) الشعر والشعراء 1/367 .

وقوله لزياد الأعجم (90) :

ولو أنني عشيتك السيف لم يقل
اذا مت الا مات علج معاهد

ويبدو اعتزازه بنفسه وشعوره بكرامته واضحا في مديحه لطلحة الطلحات، إذ يقول له وكأنه يشعر بأنه ند له (91) :

قد كنت أسعى فى هواك وأبتغى
رضاك وأرجو منك ما لست لاقيا
وأبذل نفسى فى مواطن جمة
وأمضى وأعصى فى هواك الأدانيا

ويمضي قائلا :

حفاظا لما كان بيننا
لتجزى به يوما فلم تك جازيا
رأيتك ما تنفك منك رغيبة
تقصر دونى أو تحل ورائيا
أرانى اذا استطمرت منك سحابة
لتمطرنى عادت عجابا وسافيا

ثم انظر بعد ذلك كيف يخاطبه :

فلا ترج منى نصرتى ومودتى
اذا كنت عنى بالمودة نائيا
أتجعل غيرى نائلا لعطائكم
ومن ليس يغنى عنك مثل غنائيا

---

(90) الاغانى دار الكتب 13/96 .
(91) التاريخ الكبير لابن عساكر 7/68 .

ولســــت بــــلاق ذا حــيــــاء وحيلـــــة
مـــن النـــاس حـــرا بـــالخســاسة راضيــــا
فـــان تـــدن منــــى تـــدن منـــك مـــودتـــى
وان تنـــأ عنـــــى تلفنـــى عنـــك نـــائيـــــا

ومثل هذا الأسلوب لا يكون إلا بين الندين المتكافئين، لما فيه من اعتزاز وأنفه. وهذا الشعور بالاعتزاز لا يفارقه في مدائحه للمهلّب ولد أشعار كثيرة تصور هذه الثقة وهذا الاعتزاز : يقول (92) :

وقـــد ألبــس المولـــى علـــى ضغــن صـــدره
وأدرك بالـــوغـــم الذى لا أخـــاضـــره (١٢٤)
وقـــد يعلـــم المـــولـــى علـــى ذاك أننـــى
اذا مـــا دعـــا عنـــد الشـــدائـــد نـــاصـــره
وانــــى لأجـــــزى بـــالمـــودة أهلهــــا
وبالشــــر حتـــى يســأم الشــــر حافـــره
وأحلـــم مـــا لـــم ألـــق فى الحلـــم ذلـــة
وللجـــاهـــل العـــريض عنـــدى زاجـــره

ويقول في قصيدة أخرى (94) :

وانـــى لأستحــــيى اذا كنـــت معســـــرا
صديقـــى والخـــلان أن يعـــرفـــوا عســـرى
وأهجـــر خـــلانــــى وما خـــان عهـــدهـــم
حيـــاء واكـــرامـــا ومـــا بـــى مـــن كبـــــر

---

(92) الأمالى للقالى 2/131 .
(93) كتاب التنبيه على أوهام أبى على للبكرى . ط الثالثة . مطبعة السعادة سنة 1954 ص 120 .
(94) عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق طه الحاجرى ومحمد زغلول . المكتبة التجارية سنة 1956 . ص 57 .

وأكــرم نفســى أن تـــرى بــى حــاجـــة
الــى أحـــد دونــى وان كــان ذا وفـــر

وقد عد صاحب عيار الشعر هذه القصيدة من الأشعار المحكمة المستوفاة المعاني، السلسة الألفاظ (95).

وكان يجيد في المديح كما كان يجيد في الهجاء لولا إفحاش فيه (96). وفي أشعاره بعض الحكم ولعلها جاءته من أبيه. إذ نرى الحكم منثورة فيما انتهى إلينا من أشعاره، مثل قوله (97) :

لعمــرك مــا تــــدرى أشـــىء تـريـــده
يليـــك أم الشـــىء الـــذى لا تحــاولـــه
متــى ما يشـــأ مستقبــس الشـــر يلقـــه
ســريعـــا وتجمعـــه اليـــه أنــاملـــه

ولو وصل الينا من شعر أبيه الكثير لأمكننا أن ندرك الأثر الذي خلفه فيه، وإنّي لأرجح أن أثر حبناء على ابنه كان عظيما. ومهما يكن من شيء فان المغيرة يعد من الفرسان النابهين بخراسان ومن فحول شعرائها المبرزين، ولا شك في أن فروسيته تطبع شعره وتميّزه عن معظم شعراء إيران امثال زياد الأعجم وأضرابه ممن لم يكونوا فرسانا، واقرأ له مديحه في قتيبة بن مسلم، إذ يقول من قصيدة له (98) :

أبلــغ أبـــا حفـــص قتيبـــة مـــدحتـــى
واقـــرأ عليـــه تحيتـــى وسـلامـــى
يـــا سيـــف أبلغهـــا فـــان ثنـاءهـــا
حســـن وانـــك شـاهـــد لمقـامـــى

---

(95) نفس المصدر ص 48 فما بعدها .
(96) الاغانى دار الكتب 13/94 ، 95 .
(97) الاغانى دار الكتب 13/99 .
(98) الطبرى 5/240 فما بعدها .

لأغـر منتجب لكل عظيمة
نحر يباح به العدو لهام
يمضي اذا هاب الجبان وأحمشت
حرب تسعر نارها بضرام
وترى القناة مع اللواء أمامه
تحت اللوامع والنحور دوامي
والهام تفريه السيوف كأنه
بالقاع حين تراه فيض نعام
وترى الجياد مع الجياد ضوامرا
بفنائه لحوادث الأيام

ثم يتحدث عن الملوك والأمراء الذين ضرب قتيبة أعناقهم، فنراه يقول :

وبهن أنزل نيزكا من شاهق
والكرز حيث يروم كل مرام
وأخاه شقرانا سقيت بكأسه
وسقيت كأسهما أخا باذام

وهذا شعر ينبض بأحاسيس الشجاعة والإقدام في الحروب، وكأنه يصور اقتحامه هو نفسه لأهوالها وقد ظل يرمي بنفسه في المعارك حتى استشهد في نسف سنة 91 للهجرة. ويقال إنه كتب على صدره وهو يجود بآخر أنفاسه "أنا المغيرة بن حبناء" (99). وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتبا قارئا. ولا بد أن نلاحظ أن فروسيته هي التي دفعته الى مدح المهاب الأزدي وقتيبة القيسي فهو يمدحهما وينوه بهما لا للتكسب وإنّما إعجابا ببطولتهما، وهو مجيد في جميع الأغراض الشعرية التي عرض لها

(99) الاغانى دار الكتب 101/13 .

ويمتاز دائما بطابعه الشخصي ، من ذلك ملحمته في المهلب بعد انتصاره على قطري ووصفه لحروبه معه ومواقعه، يقول (100) :

حال الشجا دون طعم العيش والسهر
واعتاد عينك من ادمانها الدرر
أمسى العباد بشر لا غياث لهم
الا المهلب ، بعد الله ، والمطر
كلاهما طيب ترجى نوافله
مبارك سيبه يرجى وينتظر
لا يجمدان عليهم عند جهدهم
كلاهما نافع فيهم اذا افتقروا
هذا يذود ويحمى عن ذمارهم
وذا يعيش به الأنعام والشجر

وحديثه عن فضائله وشيمه الرفيعة تحس فيه الصدق وأنّه يصدر عن نفسه، ولعل ذلك ما جعل هذه الملحمة تخلو من اللّفظ الغريب ولكنّها تخلومن الأخيلة وكأنما رأى واقع انتصارات المهلب أقوى من كل خيال وانظر اليه حين أخذ يعدد الخصال التي فضل بها المهلب على أهل عصره، يقول :

ان المهلب فى الأيام فضله
على منازل أقوام اذا ذكروا
حزم وجود وأيام له سلفت
فيها يعد جسيم الأمر والخطر
ماض على الهول ما ينفك مرتجلا
أسباب معضلة يعيا بها البشر

---

(100) الاغانى دار الكتب 13/86 .

سهـــل الخـــلائـــق يعفـــو عنـــد قـــدرتـــه
منـــه الحيـــاء ومـــن أخـــلاقـــه الخفـــــر
شهـــاب حـــرب اذا حلـــت بســاحتـــه
يخـــزى بـــه اللـــه أقـــوامـــا اذا غـــدروا
تـــزيـــده الحـــرب والأهـــوال ان خطـــرت
حـــزمـــا وعـــزمـــا ويجلـــو وجهـــه السفـــر
مـــا ان يـــــزال علـــى أرجـــاء مظلمـــة
لـــولا يكفكفهـــا عـــن مصـــرهـــم دمـــروا
سهـــل اليهـــم حليـــم عـــن مجـــاهلهـــم
كـــأنمـــا بينهـــم عثمـــان أو عمـــر

وأنت عندما تنظر إلى هذا الشعر من الناحية اللفظية، تجد أن مفرداته اللغوية معروفة ومألوفة لدى القارى، ولكنك حين تنظر الى القصيدة جملة، تجد أن الطابع العام هو الجزالة والقوة في البناء مع صحة الطبع وجودة السبك. وقد ذكروا أن المهلب لما سمع هذه القصيدة، قال "هذا والله الشعر لا ما يعلل به" (101).

والذى يتتبع شعر المديح عند المغيرة بن حبناء يجده كثيرا ما يتحدث عن صفات الشجاعة والبأس لأنها ألصق بنفسه من الصفات الأخرى، ومن طريف مديحه ليزيد بن المهلب، قوله (102) :

جميـــل المحيـــا بختـــرى اذا مشـــى
وفى الـــدرع ضخـــم المنكبيـــن شنـــاق (١٠٣)
شـــديـــد القـــوى مـــن أهـــل بيت اذا وهـــى
مـــن الـــديـــن رتـــق حملـــوا فأطـــاقـــوا

---

(101) الاغانى دار الكتب 13/87 .
(102) نفس المصدر 13/100 .
(103) شنق البعير : رفع راسه . والشناق : الشاب المعجب بنفسه .

مــراجيـــح فى اللأواء ان نـــزلـــت بهــــم
ميــاميــن قد قـــادوا الجيــوش وساقـــوا

وهذا الطابع الذي تميّز به المغيرة جعله لا يتخلى عنه حتى في الشعر الذي يعتذر فيه. فمن ذلك ما يقوله للمهلّب بعد أن تخلف عن الجند وحذف اسمـه (104) :

مــا عاقنـــى عـــن قفـــول الجنـــد اذ قفلـــوا
عـــى بمـــا صنعـــوا حـــولـــى ولا صمـــم
ولـــو أردت قفـــولا مـــا تجهمنـــى
اذن الأميـــر ولا الكتـــاب اذ رقمـــوا
انـــى ليعـــرفنـــى راعـــى ســـريـــرتهـــم
والمحدجـــون (١٠٥) اذا مـــا ابتلـــت الحـــزم
والطـــالبـــون الى السلطـــان حـــاجتهـــم
اذا جفـــا عنهـــم السلطـــان أو كـــزمـــوا (١٠٦)
ان الكـــريـــم مـــن الأقـــوام قـــد علمـــوا
أبـــو سعيـــد اذا مـــا عـــدت النعـــم
كـــم قـــد شهـــدت كرامـــا مـــن مـــواطنهـــم
ليســـت بغيـــب ولا تقـــوالهـــم زعمـــوا
أيـــام أيـــام اذ عـــض الـــزمـــان بهـــم
واذ تمنـــى رجـــال أنهـــم هـــزمـــوا
واذ يقـــولـــون ليـــت اللـــه يهلكهـــم
واللـــه يعلـــم لـــو زلـــت بهـــم قـــدم
أيـــام سابـــور اذ ضاعـــت رباعتهـــم (١٠٧)
لـــولاه مـــا أوطنـــوا دارا ولا انتقمـــوا

---

(104) نفس المصدر 13/88 ، 89 .
(105) : الذين وضعوا الاحداج فوق الابل .
(106) كزموا : هابوا .
(107) رباعتهم : امرهم الذى كانوا عليه .

اذ ليس شيء من الدنيا نصول به
الا المغافر (١٠٨) والأبدان واللجم
وعاترات من الخطى محصدة
نفضى بهن اليهم ثم ندعم (١٠٩)

فقد صور بسالة المهلب تصويرا قويا رائعا وقرن هذه البسالة إلى شجاعته وبلائه معه في الحروب، يقول :

اذ ليس شيء من الدنيا نصول به
الا المغافر والأبدان واللجم
وعاترات من الخطى محصدة
نفضى بهن اليهم ثم ندعم

ولا تكاد تجد له شعرا دون أن يشير فيه إلى نفسه من قريب أو من بعيد وكأنه يقول في كل ما ينظمه ها أناذا، لا فرق في ذلك بين مدائحه وأهاجيه. واسمع اليه وهو يمدح قتيبة بن مسلم كيف يخاطب أحد أصحابه ويطلب منه أن يبلغ سلامه إلى الأمير وكأنما هذا السلام موجه من أمير إلى أمير وليس من جندي إلى قائده وأميره، يقول (110) :

أبلغ أبا حفص قتيبة مدحتى
واقرأ عليه تحيتى وسلامى
يا سيف أبلغها فان ثناءها
حسن وانك شاهد لمقامى

وما أحسب أن له في هذا الجانب نظيرا من شعراء عصره الذين عاشوا معه في إيران إلا صاحبه ثابت قطنة الذي كان يشبهه في هذا الاعتزاز،

---

(108) المغافر : الزرد ــ الابدان : الدروع القصيرة .
(109) ندعم : نتكىء .
(110) الطبرى 5/240 .

مما جعله يدل على زياد الأعجم حين هاجاه، بشجاعته وأنه لا يثبت له في معركة الرجال الحقيقية، معركة السلاح، يقول (111) :

ولم أر مثلى يا زياد بعرضه
وعرضك يستبان والسيف شاهد
ولو أننى عشيتك السيف لم يقل
اذا مت الا مات علج معاهد

ومن المؤكد أنه استطاع أن يثبت له ثباتا قويا في معركة التهاجي التي احتدمت بينهما، ومن هجائه البديع، له قوله (112) :

أزياد انك، والذى أنا عبده
ما دون آدم من أب لك يعلم
فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم
ما لا تطيق وأنت علج أعجم
أظننت لؤمك يا زياد يسده
قوس سترت بها قفاك وأسهم
علج تعصب ثم راق بقوسه
والعلج تعرفه اذا يتعمم
تهجو الكرام وأنت ألأم من مشى
حسبا وأنت العلج حين تكلم
ولقد سألت بنى نزار كلهم
والعالمين من الكهول فأقسموا
بالله ما لك فى معد كلها
حسب وانك يا زياد مؤذم (١١٣)

(111) الاغانى دار الكتب 96/13 .
(112) نفس المصدر 92/13 .
(113) المؤذم : المقطع . والكلب المؤذم الذى بعنقه قلادة .

وهـو ياتيـه من نسبـه وانـه ليس من صميم العـرب وإنمـا هو دعـي ذميـم ويستمـر المغيرة على هذا النحو من الإلحاح حتى إذا ما بلغـه عن عبد القيس أنهـا كانت تحض شاعرها زيادا، عطف عليها قائـلا (114) :

ولـو أنهـم جـاءوا بـه ذا حفيظـة
فيمنعهـم ، أو مـا جـدا أو مـرغمـا
ولكنهـم جـاءوا بأقلـف قـد مضت
لـه حجـج سبعـون يصبـح رازمـا (١١٥)
لئيمـا ذميمـا أعجميـا لسانـه
اذا نـال دنـا لـم يبـال المكـارمـا
اذا كنـت للعبـدى جـارا فـلا تـزل
علـى حـذر منـه اذا كـان طـاعمـا

ولم تكد تسمع عبد القيس بهذا الشعر حتى جاءت تعتذر للمغيرة وتتبرأ من شاعرها. ومن يقرأ هذه القصيدة لا يتعجب من أن تفزع تلك القبيلـة مما جاء فيها من سخرية. وأي عار وأي مهانـة أكبر من مهانة قبيلـة عربيـة تبحث لها عن ناصر يشـد أزرها فلا تجد إلا الأعاجم وأشباه الموالي تستنصرهم وتستعين بهم. ولقد رأينـا المغيرة يغتنم هذه الحادثة ويستطيل بها على صاحبه، في قصيدتـه الداليـة التي عاد فيها الى نغمتـه القديمـة ليذكر أن صاحبه إن هـو إلا أعجمي لصيق لا ينجب إلا الجواري العاكفات بأصطخـر على الغزل، طلبـا للعيش، يقـول (116) :

فأصبحـت علجـا مـن يـزرك ومـن يـزر
بنـاتـك يعلـم أنهـن ولائـد
وأصبحـن قلفـا يغتـزلـن بـأجـرة
حـواليـك لـم تجـرح بهـن الحـدائـد

---

(114) الاغانى دار الكتب 13/94 .
(115) زازم : لا يقوم من كثرة هزاله .
(116) الاغانى دار الكتب 13/95 .

بأصطخر لم يلبسن من طول فاقة
جديدا ولم تلق لهن الوسائد
وما أنت بالمنسوب فى آل عامر
ولا ولدتك المحصنات المواجد
ولا ربيتك الحنظلية اذ غذت
بنيها ولا جيبت (١١٧) عليك القلائد
ولكن غذاك المشركون وزاحمت
قفاك وخديك البظور العوارد (١١٨)

فزياد عند المغيرة ما هوإلا مولى من الموالي وحال بناته بأصطخر أكبر شاهد على ما يقول، فهن ما يزلن ثاويات بأصطخر لهن فقر الفقيرات وهوان البائسات. وهذا جره عليهن والدهن. وجاءه زياد من قبل الآفات التي ابتلي فيها هو واخوته قائلا (119) :

ان حبناء كان يدعى حبيرا
فدعوه من لؤمه حبناء
ولد العور منه والبرص والجذمى (١٢٠)
وذو الداء ينتج الأدواء

ويقول أبو الفرج إن المغيرة حين سمع بهذا الشعر قال : "ما ذنبنا فيما ذكره، هذه أدواء ابتلانا الله عزوجل بها وإنّي لأرجو أن يجمع الله عليه هذه الأدواء كلها" وبلغ قوله زيادا فأمسك عنه وتكافا.

والحق أن زيادا كان يتفوق عليه في الهجاء إذ كان أغزر قافية وأطول لسانا وكأنما كان في المغيرة فضل وتوقر يمنعه من البعد في الإيذاء، وهو إن كان ينزل عنه في الهجاء فإنّه يرتفع عليه في الفخر، إذ كان يستمد

---

(117) جيبت : وضعت
(118) العوارد : المنتصبة ،
(119) الاغانى دار الكتب 13/99 .
(120) الاجذم : المقطوع اليد او الانامل .

من فروسية لا ينضب معينها في نفسه، وهو معين اتصل بالدين الحنيف والجهاد في سبيله على نحو ما نجد في قوله (121) :

انـي امـرؤ كفنـي ربـي وأكـرمنـي
عن الأمـور التي في رعيهـا وخـم (١٢٢)

وكان ينهج في بعض شعره نهج شعراء الحكمة وقد أشرنا الى أنه ربما كانمتأثرا في ذلك بأبيه، وأرجّح أنّه في هذه الحكم يستقي من ظروف عصره، على شاكلة قوله (123) :

اذا أنـت عاديـت أمـرأ فاظفـر لـه
علـى عثـرة ان أمكنتـك عـواثـره
اذا المـرء أولاك الهـوان فـأولـه
هـوانـا وان كانـت قـريبـا أواصـره
فـان أنـت لـم تقـدر علـى أن تهينـه
فـذره الـى اليـوم الـذى أنـت قـادره
وقـارب اذا ما لـم تكـن لـك حيلـة
وصمـم اذا أيقنـت أنـك عـاقـره
وقـد البـس المولـى علـى ضغـن صـدره
وأدرك بالـوغم الـذى لا أخـاضـره (٩٣)

وقد يرتفع بحكم حسن إسلامه عن مبادلة الهاجين بهجائهم إلى اعـلان ما تدعو إليه تعاليم الإسلام من العفو عن المسيء وكظم الغيظ على نحو قوله (125) :

---

(121) الاغانى دار الكتب 13/88 .
(122) الوخم : المكروه .
(123) كتاب التنبيه على أوهام أبى على ص 119 .
(124) الوغم : الحقد .
(125) أمالى القالى 2/230 .

خـذ مـن أخيـك العفـو واغفـر ذنـوبـه
ولا تـك فـى كـل الأمـور تعـاتبـه
فانـك لا تلقـى أخـاك مهـذبـا
وأى امـرىء ينجـو من العيـب صـاحبـه
أخـوك الـذى لا ينقض النـأى عهـده
ولا عنـد صـرف الدهـر يـزور جـانبـه
وليـس الـذى يلقـاك بالبشـر والرضـى
وان غـبـت عنـه لسعتـك عقـاربـه

وواضح ما في هذه الأبيات من الارتفاع عن السفاسف ومن أخلاقية كريمـة في معاملته للناس وإغضائه على ما قد يبدو منهم من هفوات وزلات وأن يكون الانسان عف اللسان باطنـه كظاهره، لا يضمر لأحد شرا فضلا عن أن يسلقـه في غيبتـه بلسـانه.

ويبدو أنه كان مقلا إذ يذكر البغدادي أنّ له ديوانا ووصفـه بـأنـه صغيـر (126).

ثابـت قطنـة

اختلف القدامى في نسبته ويذكر هشام بن محمد الكلبي أنه ثابت بن كعب بن جابـر بن كعب بن كرمـان بن طرفه بن وهـب بن مازن بـن تميـم (127). وكنيتـه أبو العلاء وأضيفت لفظـة قطنة إلى اسمـه لأن سهمـا أصابه في إحدى عينيه في بعض الحروب فكـان يحشوهـا قطنـا (128).

وقد خلت المصادر من الحديث عن حياته الأولى وعن بيئته التـي ولـد ونشأ بها. ونحن نلتقي به فجأة مع المهلب في حـرب الخـوارج (129).

---

(126) الخزانـة 601/3 .
(127) جمهرة الأنساب مصورة بالفوتوغراف محفوظة بدار الكتب تحت رقـم 9959 (ح) ص 68 س 17 فما بعده .
(128) الاشتقاق ص 483 . والشعر والشعراء 612/2 .
(129) الاغانى دار الكتب 276/14 فما بعدها .

ويظهر أنه ترك خراسان في عهد واليها أمية بن عبد الله بن خالد وربما كان له يد في خلعه (130) وتحولت هذه الولاية إلى المهلب وخلفه عليها، وهو بذلك يكون قد نزل إيران قبل كعب الأشقري والمغيرة بن حبناء فإنّهما إنّما نزلا بها في عهد ولاية المهلب، ومن المرجح أن لثابت قطنه أشعارا كثيرة قالها في مديحه (131)، دلّل فيها على مدى اخلاصه وحبة له ولأسرته. وقد عرف له المهالبة هذا الصنيع فكافؤوه عليه بتقريبه منهم حتى أنه كان يتولّى أعمالهم ولا سيما في ولاية يزيد (132). ويقال إنه كان هو وكعب الأشقري لا يفارقان مجالسه (133). وليس ذلك بغريب إذ كان معدودا في خراسان من فرسان الثغور (134) ومشاهير القواد (135). ودل ثابت في كل حروبه وأعماله على نجدة وكفاية وحسن قيادة (136). ونراه يغضب على أسد ابن عبد الله القسري ويعتب عليه لأن أسدا أمر على بعث كان فيه، أحد البراجمة وهو عيسى بن شداد، فقال يخاطبه (137) :

أرى كل قوم يعرفون أباهم
وأبو بجيلة بينهم يتذبذب
انى وجدت أبى أباك فلا تكن
ألبا على مع العدو تجلب
أرمى بسهمى من رماك بسهمه
وعدو من عاداك غير مكذب

---

(130) نفس المصدر 14/281 ، 282 .
(131) العصر الاسلامى ص 241 .
(132) الخزانة 4/185 ، والاغانى دار الكتب 14/263 والشعر والشعراء 2/612 .
(133) الاغانى دار الكتب 14/266 .
(134) نفس المصدر 14/271 ، الشعر والشعراء 2/612 .
(135) القاموس الاسلامى نشر مكتبة النهضة سنة 1963 ، 1/532 .
(136) الطبرى 5/354 .
(137) نفس المصدر 5/395 .

أسـد بـن عبد اللـه جلـل عـفـوه
أهـل الذنـوب فكيـف مـن لـم يـذنـب
أجعلتنـي للبـرجمـي حقيبـة
والبـرجمـي هـو اللئيـم المحـقـب
عـبـد اذا استبـق الكـرام رأيـتـه
يأتـي سكيتـا حامـلا فـي المـوكـب
انـي أعـوذ بقبـر كـرز أن أرى
تبعـا لعبـد مـن تميـم محـقـب

وكان في حياته مؤمنا صادق الإيمان يغضب لله ويعطف على المساكين ويناصرهم ويقال إنه كان يحضر مجالس الخوارج والمرجئة واستقر الإرجاء في نفسه حتى لنراه يخصّه بقصيدته التي يقول فيها (138) :

يا هنـد انـي أظـن العيـش قـد نفـذا
ولا أرى الأمـر الا مـدبـرا نكـدا
انـي رهينـة يـوم لسـت سـابقـة
الا يكـن يـومنـا هـذا فقـد أفـدا (١٣٩)
بايعـت ربـي بيعـا ان وفيـت بـه
جـاورت قتلـى كـرامـا جـاوروا أحـدا
ياهنـد فـاستمعـي لـي أن سيـرتنـا
أن نعبـد اللـه لا نشـرك بـه أحـدا

ويتحدث بعد ذلك عن بعض مبادىء المرجئة حديث المؤمن بها وقد وقف في وجه الوالي حين وعد برفع الجزية على من أسلم من الأعاجم ثم أخلف وعده ، وناصبه الحرب مع من ناصبوه وكلّفه موقفه هذا الدخول

(138) الاغانى دار الكتب 14/269 ، 170 .
(139) أفـد : قـرب .

الى السجن واتهامه بشق عصا الطاعة (140) وقد دافع عنه نصر بن سيّار في هذه المحنة ولم ينس ثابت قطنة له هذا الجميل فمدحه بقصيدة طويلة، يقول فيها (141) :

ما هاج شوقك من نؤى وأحجار
ومن رسوم عفاها صوب أمطار
لم يبق منها ومن أعلام عرصتها
الا شجيج (١٤٢) والا موقد النار
بدلت منها وقد شط المزار بها
وادى المخافة لا يسرى به السارى
ناضلت عنى نضال الحر اذ قصرت
دونى العشيرة واستبطأت أنصارى
وما تلبست بالأمر الذى وقعوا
به علي ولا دنست أطمارى
ولا عصيت اماما كان طاعته
حقا علي ولا قارفت من عار

وتدلنا العبارة التي قالها ثابت وهو يحتضر بعد أن طعن، على مدى إيمانه فقد ذكر الطبرى أنه لما التقى أشرس والترك قال ثابت "اللهم إنّي كنت ضيفا لابن بسطام البارحة فاجعلني ضيفك الليلة، والله لا ينظر الى بنو أمية مشدودا في الحديد"، ثم قال وهو صريع : "اللّهم إنّي أصبحت ضيفا لابن بسطام وأمسيت ضيفك فاجعل قراى من ثوابك الجنة". (143) وثابت قطنة يشير في كلامه هذا الى ما فعله معه ابن بسطام من جميل حين أطلق أشرس سراحه من أجل قتال العدو، وتكفل به ابن بسطام.

---

(140) الطبرى 5/398 س 21 ، وانظر شعر ثابت فى نفس المصدر ص 400 .
(141) الطبرى 5/399 .
(142) الشجيج : الوتد .
(143) الطبرى : 5/401 .

ونرى عنده توكلا على الله وخشية منه، كقوله في بعض شعره وقد ظلمه بعض من وكلهم عنه في خطبته لامرأة (144) :

انــــي دعـــــوت اللــــه حيــن ظلمتنــــــي
ربـــــي وليـــس لمـــن دعـــــا ببعيـــد
الا تـــــزال متيمـــــا بخـريـــــدة
تسبـــــي الــرجـــال بمقلتيـــــن وجيـــــد

وهو لا يقذع في هجائه وكأن حسن إيمانه ردعه عن الاقذاع على نحو ما يلقانا في هجاء باهلة إذ يقول (145) :

توافــت تميمـــم فـــى الطعـــان وعـــــردت
بهيلـــة لمـــا عـــاينت معشــرا غلبـــــا (١٤٦)
كمـــاة كفـــاة يرهـــب النــــاس حـــدهـــم
اذا ما مشــــوا فى الحـــرب تحسبهـــم نكبـــا
تســـامـــون كعبـــا فى العـــلا وكـــلابهــــا
وهيهـــات أن تلقـــوا كـــلابـــا ولا كعبـــا

وإذا ما اصطدم بقبيلته فانّه يعف عن شتمها وهجائها، يقول (147) :

تعففـــــت عـــن شتــــم العشيـــرة انـــــــي
وجـــــدت أبـــي قد عـــف عن شتمهـــا قبلــــي
حليـــم اذا مـــا الحلـــم كـــــان مـــــروءة
وأجهـــل أحيـــانـــا اذا التمســـــوا جهلـــي

وليس معنى ذلك أنه لا يتعصب لقبيلته فقد كان يستشعر أحاسيسها ومما

---

(144) الاغانى دار الكتب 14/279 .
(145) نفس المصدر 14/274 .
(146) معشر اغلبا : غلاظ الرقاب .
(147) الاغانى دار الكتب 14/281 .

يصور ذلك شماتته بقتيبة بن مسلم الذى ولى خراسان بعد المهالبة، فقد قال فيه بعد مقتله (148) :

ألم تر أن الباهلي ابن مسلم
بفرغانة القصوى بدار هوان
تمور (١٤٩) أسامى الدماء بوجهه
وقد كان صعبا دائم الخطران

وظل وفيا للمهالبة حتى بعد مقتل يزيد بن المهلب لأوائل القرن الثاني إذ تفجع عليه طويلا بمثل قوله (150) :

أبا خالد لم يبق بعدك سوقة
ولا ملك ممن يعين على الرفد
ولا فاعل يرجو المقلون فضله
ولا قائل ينكا العدو على حقد
لو ان المنايا سامحت ذا حفيظة
لأكرمنه أو عجن منه على عمد

وظل ينظم فيه المراثي معلنا نقمته وسخطه على الأمويين وعلى مسلمة ابن عبد الملك الذي دعاه بابن أبي ذبان (151). ويروى أن سعيد بن عبد العزيز الملقب بخذينة جلس يوما يعرض الناس في ولايته لخراسان بعد مقتل يزيد وكان إلى جانبه حميد الرؤاسي وعباد المحاربي فلما دعي بثابت قطنة تقدم وكان تام السلاح فارسا من الفرسان فسأل عنه فقيل هذا ثابت قطنة فأمضاه وأجازه على اسمه، ولكن حميدا وعبادا قالا لخذينة بعد انصراف ثابت هذا هو القائل (152) :

---

(148) النقائض ص 363 فما بعدها .
(149) تمور : تجرى .
(150) الاغانى دار الكتب 14/281 .
(151) الطبرى 5/349 البيت السابع والثامن .
(152) الاغانى دار الكتب 14/271 .

انا لضاربون في حمس الوغى
رأس الخليفة ان أراد صدودا

فنادى الوالي ثابتا مرة ثانية وهو يريد قتله فسأله عن هذا البيت فقال ثابت نعم أنا القائل وأعاده وذكر بدل الخليفة، المتوج وأضاف اليه بيتا ثانيا وهو :

عن طاعة الرحمن أو خلفائه
ان رام افسادا وكر عنودا

وبهذه البديهة الحاضرة وهذه اللّباقة أنقذ ثابت قطنة نفسه. ويظهر أنه مل حياته بعد سقوط المهالبة فطلب الاستشهاد وهو المصير الذي ينتظره أمثاله من المؤمنين المجاهدين (153). وقد استشهد في سنة 110 من الهجرة أيام ولاية أشرس (154).

ولاشك أن من يدرس حياة ثابت قطنة يلاحظ أنه كان، بالإضافة الى فروسيته وأعماله العسكرية، شاعرا من الشعراء المعدودين، وقد وصل الينا من شعره قدر يعطينا صورة واضحة لموهبته ومدى انطباع شعره بتلك الشخصية القومية التي لم يعرف عنها أنها خضعت أو استكانت. وقد كان شاعرا بارعا في كل فنون الشعر التي طرقها من مديح وهجاء وغيرهما ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أهم فنين تناولهما الرثاء والفخر. وهو في فخره يتحدث بلسان الفارس الشجاع الذى يضطرم قلبه بالفروسية، ويعتد دائما بقبيلته وعشيرته ويعرض لأمجاده الحربية ولبطولاته التي تجلت في موقعة "قصر الباهلي" وغيرها من المواقع على ان اعتداده بنفسه وقبيلته لم يكن يدفعه الى الغض من القبائل الأخرى بل كان يمجد القبائل التي تستحق التمجيد، صنيعه بتميم في قصيدته التي وصف فيها موقعة قصر الباهلي، يقول (155) :

---

(153) الطبرى 5/401 .
(154) العصر الاسلامى ص 241 ، وانظر الطبرى 5/401 .
(155) الطبرى 5/354 .

فـــدت نفســـى فـــوارس مـــن تميـــم
غـــداة الـــروع فـــى ضنـــك المقـــام
فـــدت نفســـى فـــوارس اكتفـــونـــى
علـــى الأعـــداء فـــى رهـــج القتـــام
بقصـــر البـــاهلـــى وقـــد رأونـــى
أحـــامـــى حيـــن ضـــن بـــه المحـــامـــى

فأنت تراه يعترف في هذه المعركة بفضل قبيلة تميم وحسن أثرها وإن كانت لا تجمعه بها عصبية. وانظر اليه بعد ذلك كيف التفت إلى نفسه بنفس الصدق ونفس الأسلوب ليحدثنا عن بلائه الحسن، يقول :

بسيفـــى بعـــد حطـــم الـــرمـــح قـــدمـــا
أذودهـــم بـــذى شـــطـــب حســـام
أكـــر عليـــهـــم اليحمـــوم كـــرا
كـــكـــر الشـــرب آنـــيـــة المـــدام
أكـــر بـــه لـــدى الغـــمـــرات حتـــى
تجلـــت لا يضيـــق بهـــا مقـــامـــى

فالشاعر في هذه المعركة قد التحم بالأعداء التحاما شديدا فتحطم رمحه في يديه وتبعه سيفه ومع ذلك لم يضعف مقامه في هذه المعركة بل نراه يزداد جلدا وبأسا كلما اشتدت الحرب وعظم الكرب حتى إن فرسه من طول هذه المعركة وفرط شدتها ذهب عنه نشاطه وأصيب بالإعياء فأصبح يجره كما يجر الشرب زقاق المدام :

أكـــر عليهـــم اليحـــمـــوم كـــرا
كـــكـــر الشـــرب آنـــيـــة المـــدام

ويقال إن هذا النصر الذي تحقق إنّما هو منة وإنعام من الله ولولاه لذهبت نساء العرب سبايا في ركاب المشركين ولكن الله سلّم :

فلولا الله ليس له شريك
وضربي قونس الملك الهمام
اذن لسمعت نساء بني دثار
أمام الترك بادية الخذام
فمن مثل المسيب في تميم
أبي بشر كقادمة الحمام

ومثل هذا الشعور يدل على عمق ايمانه وينبغي أن نعرف أن مديحه لهم في هذه القصيدة، إنّما هو من باب عرفان الجميل لأهله أما بعد ذلك فإنه كان يتعصب لقبيلته، ولا شك في أن هذا التعصّب هو الذي حداه لأن يلوم المهلّب في رجل كان يوليه خراسان، إذ يقول (156) :

ما زال رأيك يا مهلب فاضلا
حتى بنيت سرادقا لوكيع
وجعلته ربا على أربابه
ورفعت عبدا كان غير رفيع
لو را أبوه سرادقا أحدثته
لبكى وفاضت عينيه بدموع

وكذلك هو الذي ساقه للوقوف مع يزيد بن المهلب في ثورته ضد بني أمية، وقد وقف مع مدرك بن المهلب حين أرسله أخوه يزيد إلى خراسان ليدفعها إلى الثورة ضد بني أمية وما كان من قيام تميم في وجهه والى ذلك يشير بقوله (157) :

رأوا من دونه الزرق العوالي
وحيا ما يباح له حريم

(156) البيان والتبيين 3/51 ، 52 .
(157) الطبرى 5/335 .

شنوءتهــــا وعمـــــران بـــن حـــــزم

هنـــاك المجـــد والحســـب الصميـــــم

غمـا حملـــوا ولكـن نـــهـــنـــهـــتـــهـــم

رمـــاح الأزد والـــعـــــز القـــديـــــم

وسارع يكتب إلى يزيد بأنه ثائر معه بل لقد مضى يزيد في حماسة وثورة ضد الأمويين (158) :

ان امـــرأ حـــدبـــت ربيـــعـــة كلهـــا

والحـــى مـــن يمـــن وهـــاب كـــؤودا (١٥٩)

لضعيـــف مـــا ضمنـــت جـــوانـــح صـــدره

ان لـــم يلـــف الـــى الجنـــود جنـــودا

أيـــزيـــد كـــن فـــى الحـــرب ان هيجتهـــا

كـــأبيـــك لا رعشـــا ولا رعـــديـــدا

شـــاورت أكـــرم مـــن تنـــاول مـــاجـــد

فـــرأيـــت همـــك فـــى الهمـــوم بعيـــدا

مـــا كـــان فـــى أبـــويـــك قـــادح هجنـــة

فيكون زنـــدك فى الـــزنـــاد صلـــودا (١٦٠)

وحين قضى الأمر وقتل يزيد ظل يغلي بالثورة على الأمويين متفجعا على يزيد والمهالبة متحسرا مكلوما فؤاده، يقول (161) :

أبـــى طـــول هـــذا الليـــل أن يتصـــرمـــا

وهـــاج لـــك الهـــم الفـــؤاد المتيمـــا

أرقـــت ولـــم تـــأرق معـــى أم خـــالـــد

وقـــد أرقـــت عينـــاى حـــولا مجـــرمـــا

---

(158) الاغانى دار الكتب 14/277 ، 278 .

(159) الكؤود : المرتقى الصعب .

(160) الصلود : غير الوارى .

(161) الطبـرى 5/349 .

علــى هــالـــك هــد العشيــرة فــقـــده
دعتـــه المنــايــا فاستجـــاب وسلــمـــا
على ملــك يــا صــاح بالعقــر جبنـــت (١٦٢)
كتـــائبــه واستـــورد المـــوت معلمـــا
أصيــب ولــم أشهـــد ولــو كنـــت شاهـــدا
تسليــت ان لــم يجمــع الحـــى مــأتمـــا
وفـــى غير الايـــام يــا هنـــد فــاعلمـــى
لطــالـــب وتـــر نظـــرة أن تلــومـــا
فعلــى ان مـــالـــت بـــى الــريـــح ميلـــة
علـــى ابـــن أبـــى ذبـــان أن يتنــدمـــا

ثم نراه في نفس القصيدة وخلال ذاك التشكّي وهذا الوعيد، يتحول الى شاعر مفاخر بقومه وبما تحلوا به من حلم وشجاعة وما اختصوا به من رعاية للجار والضيف، وكل هذا في رأيه ليس بغريب عنهم لأن أباهم هو أبو الأنصار، ومن يقف إلى جانب الأنصار في كرم محتدهم وفي أمجادهم يوم التفاخر ؟

وانـــا لحـــلالـــون بـــالثغـــر لا نـــرى
بـــه ســـاكنـــا الا الخميـــس العـــرمـــرمـــا
نـــرى ان للجيـــران حـــاجـــا وحـــرمـــة
اذا النـــاس لم يرعـــوا لـــدى الجـــار محـــرما
وانـــا لنقـــرى الضيـــف مـــن قمـــع الـــذرى
اذا كـــان رفـــد الرافديـــن تجشمـــا
وراحـــت بصـــراد يلـــف جليـــده
على الطلـــح ارماكا من الشهـــب صيمـــا (١٦٣)

(162) جبنت : حملت على الجبن ونسبت اليه .
(163) الطلـح : الاعيـاء والارماك : الدقة والضمور .

أبونـــا أبـــو الانصـــار عمـــرو بـــن عامـــر
وهـــم ولـــدوا عوفـــا وكعبـــا وأسلمـــا

ولازم ثابت قطنـة هذا النحو من الحديث في أغلب مراثيه التي دبّجها في بني المهلب فكان كثيرا ما يجمع بين التفجّع وبين التّهديد والوعيد. وانظر اليه في القصيدة النونية التي يخاطب فيها ـ على عادته ـ هندا بنت المهلب ، يقـول (164) :

يـــا هنـــد كيـــف بنصـــب بـــات يبكينـــى
وعـــائـــر فى ســـواد الليـــل يـــؤذينـــى
كـــأن ليـلـــى والأصـــداء هـــاجـــدة
ليـــل السليـــم (١٦٥) وأعيـــا من يـــداوينـــى
لما جنـــى الدهـــر مـــن قـــوس وعـــذرنـــى
شيبـــى وقاسيـــت أمـــر الغلـــظ واللـــين
اذا ذكـــرت أبـــا غســـان أرقنـــى
هـــم اذا عـــرس الســـارون يشجيـــنـــى
كـــان المفضـــل عـــزا فى ذوى يـمـــن
وعصمـــة وثـمـــالا للمســـاكيـــن
انـــى تذكـــرت قتلـــى لـــو شهدتـهـــم
فى حومـــة الحـــرب لم يصلـــوا بهـــا دونـــى
لا خيـــر فى العيـــش ان لـــم يجـــن بعـــدهـــم
حـــربـــا تبىء بهـــم قتلـــى فتشفينـــى

فأنت تراه يفتتح مرثيته بندائه لهند ثم يقص عليها آلامه وأحزانه وما أصابه بعد أن كبر واشتعل رأسه شيبا فأصبح ليله شبيها بليل السليم استعصى عليه داؤه وأعيا الأطباء دواؤه . وكل هذا البلاء جاءه بسبب المفضل الذى

(164) أمالى المرتضى . ط أولى سنة 1907 مطبعة السعادة 2/ 68 .
(165) السليم : اللديغ .

ناشته سيوف بني أمية فذهب وبذهابه عدمت الأرامل والمساكين الركن الذي كانوا يأوون اليه غير أن هذه اللوعة وهذا الأسى لا يلبث أن يتحول الى غضبة في صدره عارمة على بني أمية وعلى الذين ظاهروهم، ويقطع على نفسه عهدا بالثأر والانتقام وكل ذلك يسوقه كما ترى في شعر قوي محكم، واقرأ له أيضا قوله في يزيد بن المهلب (166):

شهدتك من يمن عصائب ضيعت
ونأى الذين بهم يصاب الثأر
ولقد بسطت لهم يمينك بالندى
مثل الفرات تمده الأنهار
حتى اذا شرق القنا وجعلتهم
نصب الأسنة أسلموك وطاروا
ان يقتلوك فان قتلك لم يكن
عارا عليك وبعض قتل عار

وهو حين يرثي بني المهلّب بهذا اللون من الرثاء تشعر كأنهم ذهبوا ضحية صراع قبلي وليس نتيجة لشقهم عصا الطاعة في وجه دولة تضرب جيوشها في مشارق الأرض ومغاربها ولذلك وجدناه لا يفتأ يمني نفسه بالثأر لهم والانتقام من الذين شايعوا بني أمية فخانوا يزيد وتحلّوا عن العهد الذي أعطوه له.

كعب الاشقرى

هو أبو مالك (167) كعب بن معدان الأشقري (168)، وذكر صاحب الجمهرة أن الأشاقر "رهط كعب الأشقري" (169) وأن الأشقر هو

(166) الخزانة 184/4 .
(167) نوادر المخطوطات 291/7 وسمط اللآلى 859/1 ومعجم الشعراء ص 236 .
(168) سمط اللآلى 588/1 ، معجم الشعراء ص 236 ، الاغانى 283/14 دار الكتب .
(169) جمهرة الانساب ص 70 س 19 .

أسعد بن مالك بن عمرو بن مالك بن فهم (170). أما بقيـة المصـادر فمـا أحسب أنها تجاوزت به الأب الثالث ومهما كان الأمر فإن كعب الأشقـري، كما هو ظاهـر من نسبـه، مزوني صليبة. وشاعرنا هذا مثل عامة الشعراء الذين هاجروا إلى خراسان لا نكاد نعرف عن مولده ولا عن نشأته الأولى شيئا وكل ما يمكن أن يقال هو أنه معدود من شعراء المهلّب ومن فرسانه الذين اشتهروا في حرب الخوارج بشجاعتهم وبما يذيعون من مديح وإطراء. وكان يعتبر بحق شاعـر المهـالبـة ومادحهـم الأول المعبـر عـن مشاعرهم ناصرا لهم بسيفـه ولسانه، ومما يصور ذلك موقفـه من رسول الحجاج الذي جاء يعتب المهلب لتأخره في حرب الخوارج، فقد وقف بين يدي المهلب منشدا والرسـول حاضـر (171) :

ان ابـن يوسـف غـره مـن غـزوكـم
خفـض المقـام بجانـب الأمصـار
لـو شـاهـد الصفيـن حيـن تـلاقيـا
ضـاقـت عليـه رحيبـة الأقطـار
مـن أرض سـابـور الجنـود وخيلـنـا
مثـل القـداح بـريتهـا بشـفـار
مـن كـل خنـذيـذ يـرى بلبـانـه
وقـع الظبـاة مـع القنـا الخطـار
ورأى معـاودة الـربـاع غنيمـة
أزمـان كـان محـالـف الاقتـار
فـدع الحـروب لشيبهـا وشبـابهـا
وعليـك كـل خـريـدة معطـار

ولما بلغ الحجاج هذا الشعر، غضب على كعب غضبا شديدا وبعث يطالبه ولكن المهلّب أرسل به إلى عبد الملك بن مروان يستوهبه منه ولم يشأ

(170) الاشتقاق ص 501 .
(171) الاغـانى 14/291 دار الكتب .

الخليفـة أن يرد سؤالا لرجل من رجال دولته، فعفا عن كعـب وأقسم على الحجاج أن يصفح عنه وأن لا يمسّه بسوء (172). ويروى أن المهلب أرسله إلى الحجاج يخبره بانتصاراته على الخوارج، فأنشده قصيدته الرائية التي مطلعهـا (173) :

يا حفـص انـى عـدانـى عنكـم السفـــر
وقـد أرقـــت فـآذى عينــى السهـــر

وهي طويلـة تبلغ ثلاثة وثمانين بيتا تشبه أن تكون ملحمـة شعرية وقـد ذكـر فيها يو "رام هرمـز" "وأيام سابـور" "وأيـام جيرفت". ومن قولـه فيهـا :

حتـــى اذا خلفـــوا الأهـــواز واجتمعـــوا
بـــرام هـــرمـــز وافـــاهـــم بهـــا الخبـــر
نعـــى بشـــر فجـــال القـــوم وانصـــرعـــوا
الا بقـــايـــا اذا مـــا ذكـــروا ذكـــروا
ثـــم استـــمـــر بنـــا راض ببيعـــتـــه
ينـــوى الوفـــاء ولـــم نغـــدر كمـــا غـــدروا
حتـــى اجتمعنـــا بســـابـــور الجنـــود وقـــد
شبـــت لنـــا ولهـــم نـــار لهـــا شـــرر

ولمـا وصل كعب في إنشـاده إلى قولـه :

تأتـــى علينـــا حـــزازات النفـــوس فمـــا
نبقـــى عليهـــم ومـــا يبقـــون ان قـــدروا

ضحك الحجاج وقال له إنك لمنصف يا كعب (174). وفي الحقيقـة

(172) الاغانى دار الكتب 14/ 291 فما بعدها .
(173) الطبرى 5/122 ، الاغانى دار الكتب 14/ 284 .
(174) الاغانى دار الكتب 14/ 285 .

أن هـذه القصيدة من أجود ما نظم كعب، دلّل فيها عن أصالة شعرية وموهبة فائقة، وحينما انتهى من إنشاده لهذه القصيدة سأله الحجاج عن المهلّب وأولاده فقال "كان لنا منه إشفاق الوالد الحدب وله منا طاعة الولد البر" (175). وأما ابناؤه فانهم "حماة للحريم نهارا وفرسان بالليل أيقاظا" (176). ويستطيع الدارس من خلال إجابته أن يتبين مدى ذلاقة لسانه وحضور بديهته وحسن كفايته في مثل هذا المقام مما حمل الحجاج على أن يقول له، متعجبا، من بلاغته وفصاحته : صاحبك أدرى بك حيث بعثك"، ثم يجيزه ويوجهه، بدوره الى الخليفة في دمشق (177). ولا شك أن كعبا بعد أن وفق في هذه السفارة، ازداد قدره وعظمت عند المهلب منزلته. ولما ولّي خراسان أصبح كعب لا يفارقه.

وكانت فيه عصبية شديدة لقبيلته لعلّها هي التي جعلته يتعرض لليحمدي في ولاية يزيد حين ولاه "زم" قائلا (178) :

لقد فازت ربيعة بالمعالى
وفاز اليحمدى بعهد زم
فان تك راضيا منهم بهذا
فزادك ربنا غما بغم
اذا الأزدى وضح عارضاه
وكانت أمه من حى جرم
فثم حماقة لا شك فيها
مقابلة فمن خال وعم

وقد يكون في هذا الشعر ما يدل على طيشه، وأنّه كان يسارع الى الشر، غافلا عن عداوة زياد الأعجم، ومنافسته له وكأنه نسي كل هذا

---

(175) أمالى القالى 1/265 .
(176) الاغانى دار الكتب 14/285 .
(177) الاغانى دار الكتب 14/286 .
(178) نفس المصدر 14/294 .

ولم يدرك أنه من الواجب أن لا يثير عبد القيس ولا غيرها ضد المهلّب وقبيلته الأزد، ومن هجائه الذي ألهب نار الفتنة بينه وبين زياد الأعجم، قوله (179) :

انــي وان كنـت فــرع الأزد قـد علمــوا
أخـــزى اذا قيـل عبـد القيـس أخـــوالى
فهـم أبــو مــالــك بالمجــد شــرفنـــى
ودنــس العبـد عبـد القيـس سـربــالــى

وقد تلافى المهلب الأمر وأصلح بين الشاعرين وجعلهما يتكافان (180).

واذا كان كعب الأشقري يعتبر في خراسان أحد الفرسان المشهورين وأحد فحول الشعراء المعدودين فإن الأيام أثبتت أنه لم يكن ببعيد النظر ولا كان ممن يتعظ بما تجره الحياة من أحداث، حيث إننا رأيناه بمجرد أن مات المهلّب وخرجت ولاية خراسان من يد أبنائه إلى يد قتيبة بن مسلم، تنكر لهم وهم وجوه قومه، ونصراؤه في العصبية ومدح الوالي الجديد الذي لا يربطه به نسب أو عصبية، بمثل قوله (181) :

رمتـك فيـــل فيهـــا ومـــا ظلـمـــت
ورامهـا قبلـك الفجفـاجــة الصلـــف (١٨٢)
لا يجـــزىء الثغـر خـــوار القنـــاة ولا
هــش المكــاســر والقلــب الــذى يجـــف
هــل تــذكـــرون ليــالــى التــرك نقتلهــم
مـــا دون كـــازة والفجفـــاج ملتحــف
لــم يــركبــوا الخيــل الا بعــد مــا كبـــروا
فهـــم ثقـــال علـــى أكتـــافهـــم عنـــف

---

(179) نفس المصدر 14/ 288 .
(180) نفس المصدر 14/ 288 ، 289 .
(181) الطبرى 5/ 247 ، 248 .
(182) الفجفاج : كثير الكلام والفخر بما ليس عنده .

أنتم شبـاس ومـرداذان محتقـر
وبسخـراء قبـور حشـوها القلـف (١٨٣)
انـى رأيـت أبـا حفـص تفضلـه
أيـامـه ومسـاعـى النـاس تختلـف
قيـس صريـح وبعـض النـاس يجمعهـم
قـرى وريـف فمنسـوب ومقتـرف
مـا قـدم النـاس مـن خيـر سبقـت بـه
ولا يفـوتـك ممـا خلفـوا شـرف

وكأنه بموقفه هذا قد انسلخ عن قبيلتـه وتنصل من واجباته التي تفـرضهـا عليـه عصبيته ، ولا شـك ان كعبـا لم يقـدر ظروف إيـرن السياسية المتناقضـة واحوالهـا المتباينة، ولم يفكر في المهالبـة قد يعود إلينا من جـديد ولو انـه فكر وقدر وحسب لكل شيء حسابه، لما أقدم على هجاء المهالبـة. ودارت الأيام واذا يزيد يتولى خراسان لسليمان بن عبد الملك ويبادر كعب بالهروب منها متوجها الى أرض عمان موطن قبيلتـه الأول. وفي ذلـك يقول (184) :

وانـى تـارك مـرو ورائـى
الـى الطبسيـن معتـام عمـانـا
لآوى معـقـلا فيـهـا وحـرزا
فكـنـا أهـل ثـروتهـا زمـانـا

ولم ينس يزيد له سوء فعله، فإنه حين قدم بجيوشـه العراق دس إليـه في عمـان مـن قتـلـه سنـة 102 هـ (185) وإذ كنـا قـد عـرفـنا السنـة التي قتل فيهـا كعب فإننا لا نعرف تاريخ ولادته ولا في اي سن كان يوم أن قتل، وكل ما يمكن أن نقوله، مطمئنين، هو ان كعبا طـال به العمر.

---

(183) القلف مفردها قلفة : جلدة عضو التناسل .
(184) الاغانى دار الكتب 14/292 .
(185) العصر الاسلامى ص 227 ، الاغانى دار الكتب 14/298 .

لا ويظهر انه كان اكبر من صاحبيه ثابت قطنة والمغيرة بن حبناء إذ نراه في حرب الخوارج يشكو من انصراف الغواني عنه لشيبه (186) :

علقت يا كعب بعد الشيب غانية

والشيب فيه عن الاهواء مزدجر

ويقول ليزيد في بعض أشعاره (187) :

أفنيت خمسين عاما فى مديحكم

ثم اغتررت بقول الظالم العادى

وهو يمتاز، في شعره، بجمال الصياغة وروعة النسج، ومن بديع ما نظمه في المديح، قوله في المفضل بن المهلب لما ظفر في غزوته " باخرون " وشومان (188) :

ترى ذا الغنى والفقر من كل معشر

عصائب شتى ينتمون المفضلا

فمن زائر يرجو فضائل سيبه

وآخر يقضى حاجة قد ترحلا

اذا ما انتوينا غير أرضك لم نجد

بها منتوى خيرا ولا متعللا

اذا ما عددنا الآكرمين ذوى النهى

وقد قدموا من صالح كنت اولا

لعمرى لقد صال المفضل صولة

أباحت (بشومان) المناهل (والكلا)

صفت لك أخلاق المهلب كلها

وسربلت من مسعاته ما تسربلا

---

(186) الطبرى 5/122 ، الاغانى دار الكتب 14/284 ، البيت الثانى .
(187) الاغانى دار الكتب 14/292 البيت الاخير فى الصفحة .
(188) الطبرى 5/194 فما بعدها .

أبــوك الــذى لــم يســع ســاع كسعيــه
فــأورث مجــدا لــم يكــن منتحــلا

وكعب يعد أحد فحول الشعر الأربعة في العصر الأموي كما أثر ذلك عن الفرزدق (189). وهذه شهادة لها أهميتها لأنها جاءت على لسان شاعر تميمي، وكان عبد الملك بن مروان يعجب بشعره (190)، ويرى أبو جعفر المنصور أن شعر الأشقري غاية غايات المديح (191). ولا شك أن إعجاب شاعر فحل كالفرزدق لا تربطه بكعب رابطة يدل على منزلته السامية في فن الشعر. وانظر، بعد ذلك، إلى ما يقوله لعمر بن عبد العزيز (192):

ان كنــت تحفــظ مــا يليــك فــانمــا
عمــال أرضــك بالبــلاد ذئــاب
لــن يستجيبــوا للــذى تــدعــو لــه
حتــى تجلــد بــالسيــوف رقــاب
بــأكــف منصلتيــن أهــل بصــائــر
فــى وقعهــن مــزاجــر وعقــاب
هــلا قــريــش ذكــرت بثغــورهــا
حــزم وأحــلام هنــاك رغــاب
لــولا قــريــش نصــرهــا ودفــاعهــا
ألفيــت منقطعــا بــى الأسبــاب

وقد ذكروا أن عمر لما سمع بهذا الشعر أعجب به وقال إنه لم يكن يظن أن في مزون عمان من يقول مثله (193). ولعل ولاة

---

(189) الاغانى دار الكتب 283/14 . رغبة الامل 113/8 . وتاريخ آداب اللغة العربية 312/1 .
(190) شرح المقامات 287/2 .
(191) معجم الشعراء ص 236 ، 237 .
(192) البيان والتبيين 358/3 ، 359 .
(193) نفس المصدر 359/3 .

الثغور الذين يعنيهم كعب في هذا الشعر هم المهالبة، قبل أن يعزل عمر بن عبد العزيز أخاهم يزيد من ولاية خراسان واربما — وهو مجرد فرض — أن يكون هذا الشعر مما زاد في نقمة آل المهلب على شاعرهم القديم. وعلى كل حال فإن الذي يعنينا من هذا الشعر هو هذه الجزالة التي تدلنا على تمكن كعب في فن القريض. هذه الميزة التي تحلى بها شعره، من توافق اللفظ مع جودة المعنى، هي التي جعلت الجاحظ يعده من الشعراء المقتصدين ويسوق له شعرا يجمع بين جودة المديح وبراعة الوصف (194). وإذا كنا نرى كعبا قد برز في المديح فهو أيضا بارع فى الهجاء وإن تفوق عليه زياد الأعجم. وقد هجا طائفة من وجوه القوم وأشرافهم كما عرض بجماعة منهم الحجاج والمهالبة ولم يعف لسانه حتى عن أقرب المقربين إليه مثلما فعل مع ابن أخيه الذي قال فيه (195) :

ان السواد الذى سربلت نعرفه
ميراث جدك عن آبائه النوب
أشبهت خالك خال اللؤم مؤتسيا
بهديه ساكنا فى شر أسلوب

كما رأيناه يلح على قبيلة عبد القيس بهجائه بمثل قوله (196) :

لعل عبيد القيس تحسب أنها
كتغلب فى يوم الحفيظة أو بكر
يضعضع عبد القيس فى الناس منصب
دنىء وأحساب جبرن على كسر

---

(194) الحيوان انظر 6/425 ثم 6/428 .
(195) الاغانى دار الكتب 14/298 .
(196) الاغانى دار الكتب 14/289 .

اذا شـاع أمـر النـاس وانشقت العصـا
فـان لكيـزا لا تـريـش ولا تبـرى

وشعـره في المديح يجري على نهـج الشعـراء الفرسان ويسير على نسقهم. وهـو من هذه الناحيـة لا يختلف كثيـرا عن المغيـرة بن حبناء ويلتقي مع ثابت قطنة التقـاء مباشرا حيث إننـا نجـده يعتمد في مدحـه على سـوق الأحداث التي كـان يعيشهـا مع أصحابـه دون أن تشعـر أنـه كـان يبـذل جهـدا وراء تشبيه أو استعـارة على نحـو ما كـان يفعل زيـاد الأعجم ولعـل هذه المـدرسة التي كانت تجمـع هـؤلاء الشعـراء الثلاثـة وهـم : المغيـرة بن حبنـاء وثابت قطنـة وكعـب الأشقـري – وأقصد بهـا مدرسـة الشعـراء الفـرسان، إن صـح هذا التعبيـر – كانت هي السبـب في تداخل بعـض أشعـارهم في بعضهـا الآخر وتردد نسبتهـا بينهم، كمـا يذكر ذلـك أبـو الفـرج في كتـابـه (197).

وأحب قبل نهايـة هـذا الحديـث أن أذكـر أن كعـب الأشقـري لبث في عمـان قرابة سبـع سنيـن، ومع ذلـك لم يصلنـا شيء من شعـره خلال هذه الفتـرة الطـويلـة سـوى الأبيـات التي بعث بهـا إلى يزيـد يعتذر لـه فيهـا (198). وأيضـا الأبيـات التي قالهـا لعمـر بن عبد العـزيـز، وقـد تقدم ذكـرها . تـرى هل بقي كعـب الأشقـري طـوال هذه المدة ساكتا ومهمـلا شأن القريض ؟ أو أن ركـود الحياة في عمـان هو السبب في قلـة نظمـه ؟

كل هذا جائـز وليـس ببعيـد، غير أني أميل إلى أن ركـود الحيـاة وقلـة دواعـي نظم الشعـر بعمـان، جعله يصرف نفسـه – أو قل – ينصرف عـن هـذا الضـرب من

---

(197) نفس المصدر 14/262 ، 282 .
(198) نفس المصدر 14/292 ، 293 .

عن هذا الضرب من القول ـ لا سيما اذا عرفنا أنه كان يتبرم بموطنه الجديد أشد التبرم و يضيق به أ كبر الضيق.

ومهما يكن من أمر فإن شعر الاشقري في هذه المدة، مدة إقامته بعمان، ضاع ولم ينته إلينا لسبب أو لأخر، وأرجح أن كعبا بقي بعمان ولم يخرج منها من يوم أن دخلها لاجئا حتى يوم مقتله. وكان مقتله ـ كما سبق أن رأينا ـ في عمان أيام فتنة يزيد بن المهلب. وهكذا نرى تتابع مصارع شعراء ايران واحدا بعد واحدا ولم ينقض العقد الأول من القرن الثاني حتى رأينا إيران تفقد معظم شعرائها الفحول ولم يبق منهم سوى نهار بن توسعة الذي حضر عيد المهرجان في ولاية أسد القسري ببلخ (199) وأبى الهنا ي الذي مدح أسدا بعد انتصاره على خاقان الترك (200). وبذهاب هؤلاء الشعراء بدأت خراسان تفقد ملامحها العربية ولم نعد نجد فيها هذا الذي عهدناه من قبل من الازدهار الشعري .

(5) ابو الهندى ...

أبو الهندي كنيته، واسمه اختلف القدامى فيه اختلافا كبيرا. فهناك من يذهب الى أنه غالب بن عبد القدوس (201)، وفريق آخر يسميه عبد المؤمن (202)، وهناك من دعاه عبد الله (203)، أو عبد الملك (204)، بل هناك من سماه أزهر بن عبد العزيز بن شبث (205). على أننا نرى أن عامة الكتب القديمة تتفق، بعد هذا الخلاف على أنه ابن عبد القدوس ابن شبث بن ربعى الرياحي (206) سيد بني يربوع بالكوفة (207)

(199) الطبرى 5/466 .
(200) نفس المصدر 5/455 .
(201) سمط اللآلى 1/168 ، الاغانى ساسى 21/277 ، فوات الوفيات 2/240 .
(202) الكامل للمبرد 2/753 ، الشعر والشعراء 2/663 .
(203) طبقات الشعراء ص 136 .
(204) سمط اللآلى 1/168 .
(205) نوادر المخطوطات 7/283 .
(206) طبقات الشعراء ص 136 ، سمط اللآلى 1/168 .
(207) الكامل للمبرد 2/753 .

وكان أبو الهندي يتميز بسرعة بديهته وحضور جوابه فقد ذكروا أن نصر ابن سيار مر به يوما فأخذ يلومه على افراطه في الشراب واتهمه بأنه ضيع شرفه بسبب هذا الادمان، فالتفت اليه وقال له "لولا أني ضيعت شرفي لم تكن أنت على خراسان" (208) ، كما ذكروا أنه خطب مرة لرجل، بنته، فقال له الرجل "لو كنت مثل أبيك لزوجتك" فرد عليه أبو الهندي بديهة "لكنك لو كنت مثل أبيك ما خطبت اليك (209) . واذا كنا قد عرفنا أن شبثا جد أبي الهندي كان سيد بني يربوع في الكوفة، فاننا نستطيع أن نقول مطمئنين بأن أبا الهندي كوفي الأصل، وفي مسالك الأبصار أنه كان يشرب الخمر في حانة عون بالكوفة وأنه كان يشرب فيها ليلة رمضان، وفي ذلك يقول (210) :

شربت الخمر فى رمضان حتى
رأيت البدر للشعرى شريكا
فقال أخى الديوك مناديات
فقلت له وما تدرى الديوكا

وقد خرج في بعث إلى سجستان فأقام بها زمنا (211) لا يحارب و إنّما يعكف على الخمرة منشدا(212) :

ثبت الناس على راياتهم
وأبو الهندى فى كوهى زيان

وانتقل بعد ذلك إلى خراسان وأقام بها إلى أن مات(213) . ولا نعرف

(208) الاغانى ساسى 21/179 ، 180 ، طبقات الشعراء ص 136 مع اختلاف فى اللفظ .
(209) الاغانى ساسى 21/179 .
(210) مسالك الابصار فى ممالك الامصار 1/339 .
(211) الاغانى ساسى 21/177 .
(212) طبقات الشعراء ص 138 .
(213) الاغانى ساسى 21/178 .

متى هاجر إليها غير أنّنا نجد الطبري يشير إلى قصيدة له امتدح بها أسد ابن عبد الله القسري بعد انتصاره على خاقان الترك (214) وقد أوردت بعض المصادر الأدبية أن أبا الهندي خرج للحج مع نصر بن سيار وأنّه أعطى عهدا لنصر بأن لا يشرب طوال أيام الموسم (215) كما تذكر بعض الروايات أن موته كان في خراسان بمرو (216) ويظهر أنه توفّي عن سن عالية، ففي بعض أشعاره أنه بلغ الرابعة والستين يقول (217) .

يالقومي فتنتني جارتي **بعدما شبت وأبلاني الكبر**
وأتت لي سنوات أربع **بعد ستين تقضت لي أخر**

ولا نعرف التاريخ الذي نظم فيه هذه القصيدة، ويقول أبو الفرج إنه كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وأنه مات في بداية خلافة بني العباس (218) وهو ماجن كبير عاش للمجون واللهو وشرب الخمر في حانة كوهي زيان. بل لقد عاش للفسق كما يدل عليه قوله (219) :

منزل يزرى بمن حل به **تستحل الخمر فيه والزواني**

وهو بذلك يعد مقدمة سيئة لتحلل الأخلاق والعهر الفاضح الذي ظهر في بعض جوانب الحياة في العصر العباسي. وبلغ به تهتكه أن كان ينشد مثل قوله (220) :

---

(214) الطبرى 455/5 .
(215) الكامل للمبرد 755/2 ، الاغانى ساسى 178/21 .
(216) طبقات الشعراء ص 138 ، الاغانى ساسى 178/21 .
(217) طبقات الشعراء ص 139 .
(218) سمط اللآلى 168/1 ، طبقات الشعراء ص 136 ، فوات الوفيات 240/2 .
(219) طبقات الشعراء 138 .
(220) الاغانى ساسى 179/21 .

آلـــى يمينـــا أبـــو الهنـــدى كـــاذبـــة
ليعطيـــن زوانـــى لســـت مـــاشينـــا
وغـــرهـــن فلمـــا ان قضـــى وطـــرا
قـــال ارتحلـــن فأخـــزى اللـــه ذا دينـــا

ويذكر صاحب العقد الفريد أنه شرب يوما مع أحد ندمائه في غرفة فتطلع منهـا فرأى ميتا محمولا فالتفت إلى صاحبه وقـال (221) :

أصبـــب علـــى قلبـــك مـــن بـــردهـــا
انـــى أرى النـــاس يمـــوتـــونـــا

وعقب ابن عبد ربه على هذا الشعر، بقولـه "فكان هذا القول منه دليـلا على عدم اتعاظه بالموت "(222) . والحـق أنّه كان يعيش للذة ولم يكـن يعرف اتعاظـا ولا ما يشبه الاتعاظ، (223) يقـول :

أشـــرب الخمـــر وأعصـــى مـــن نهـــى
عـــن طـــلاب الـــراح والبيض الحســـان
فـــى حيـــاتـــى لـــذة ألهـــو بهـــا
فـــاذا مـــت فقـــد أودى زمـــانـــى

ويقـول (224) :

اذا مـــا ألـــح البـــرد فاجعـــل دثـــاره
اذا التحـــف الأقـــوام دكـــن المطـــارف
ثـــلاثـــة أرطـــال نبيـــذا معســـلا
تكـــن آمنـــا منـــه، لـــه غيـــر خـــائـــف

(221) العقد الفريد 6/343 .
(222) نفس المصدر 6/343 .
(223) طبقات الشعراء ص 138 .
(224) الشعر والشعراء 2/664 .

فــان التحــــاف المــرء فــى جــوف بطنـــــه
أشـــــد وأدفــــا مــن جيـــــاد المـــلاحــــف

ويظهر أنّه كان يأخذ بمذهب العفو وأن الله سوف يغفر له ذنوبه إذا ما خلط عملا صالحا وآخر سيئا، يقــول (225) :

اذا صلـــيــــت خمســــا كـــل يـــــوم
فــــان اللـــــه يغفـــــر لـــــى فســـوقـــــى
ولـــم أشـــــرك بـــــرب النـــــاس شيئـــــا
فقـــــد أمسكـــــت بالحبـــــل الـــوثيـــــق
وجــاهـــــدت العـــــدو ونلـــــت مـــــالا
يبلغـــنـــــى الـــــى البـيـــــت العتيـــــق
فهـــــذا الحـــــق ليــــس بـــه خـــفـــــاء
دعـــونــــــى مـــن بنيـــــات الطــريــــــق

وفي هذا الشعر ما ينم على أن أبا الهندي يدين بمذهب المتكلمين من أهل السنة. وقد ورد في شعره ما يدل على أنّه ارعوى وازدجر، مقلعا عن الخمر والفسق، يقــول (226) :

تــركـــــت الخـــمــــور لأربـــابهـــــــا
وأقبلـــــت أشـــــرب مـــــاء قـــراحــــا
وقـــد كنـــــت صبـــــا بهـــــا مغـــرمـــــا
كحـــــب الغـــلام الفتـــاة الـــرداحــــا
فلـــم يبـــق فـــى الصـــــدر مـــن حبهـــــا
ســـــوى أن اذا ذكـــــرت قلـــــت آحـــــا
ومـــا كـــــان تـــركـــى لهـــــا أنـــنـــــى
يخـــاف نـــديمـــــى علـــى افتضـــاحــــا

(225) فوات الوفيات 2/242 .
(226) الشعر والشعراء 2/663 .

ولكـــن قـــولـــى لـــه مـــرحـــبـــا
وأهـــلا مـــع السهـــل وأنعـــم صبـــاحـــا

ولكن هل حقا تاب وأناب ولم يعد للخمر ؟ إن الفصل في ذلك صعب غير أننا نستبعد أن يكون صادقا في توبته لانّه يعبّر في خمرياته عن شغف شديد بالخمر من مثل قوله متغزلا بها (227) :

أقلبهـــا فـــوق الفـــراش كـــأنهـــا
صـــلايـــة عطـــار يـــزر زريـــرهـــا

وقولـــه أيضـــا (228) :

وفـــارة مســـك مـــن عـــذار شممتهـــا
يفـــوح علينـــا مسكهـــا وعبيـــرهـــا
سمـــوت اليهـــا بعدمـــا نـــام أهلهـــا
غـــدوا ولمـــا تلـــق عنهـــا ستورهـــا

ولا شك أن هذا الحب الذي برح به هو الذي جعله لا يفارق " كوهي ريان" منذ أن ضرب عليه البعث في سجستان (229) . ونذكر في هذا الشأن قصة طريفة حدثت له حين كان بسجستان ملازما لكوهي زيان، فقد ذكروا أنّه جاء يوما إلى خمار هذه الحانة وطلب منه أن يقدم له الشراب ففعل وشرب حتى سكر ونام، ثم جاء قوم يسألون عنه فوجدوه على تلك الحال فطلبوا من الخمار ما يشربون فسكروا فناموا، وعندما صحا أبو الهندي وجدهم إلى جواره فسأل عنهم فعرفه الخمار خبرهم، فطلب منه أن يلحقه بهم ففعل. وهكذا لبث أبو الهندي وصحبه، على هذه الحالة، يتعاقبون على الشراب والنوم حتى قضوا ثلاثة أيام أو تسعة لا يلتقون، وهم

---

(227) طبقات الشعراء ص 141 .
(228) طبقات الشعراء ص 140 .
(229) نفس المصدر ص 138 .

في مكان واحد، حتى اضطر الجماعة أن يتركوا الشرب وانتظروا أبا الهندي حتى أفاق وسجل هذه الحادثة على عادته، في قصيدة شعرية رقيقة، يقول (230) :

ندامى بعد ثالثة تلاقوا
يضمهم (بكوهى زيان) راح
وقد باكرتها فتركت منها
قتيلا ما أصابتني جراح
فقالوا أيها الخمار من ذا ؟
فقال أخ تخونه اصطباح
فقالوا هات ألحقنا براح
به وتعللوا ثم استراحوا
فلم يتمهلوا حتى رمتهم
بحد سلاحها ولها سلاح
وحان تنبهي فسألت عنهم
فقال أتاحهم قدر متاح
رأوك مجدلا واستخبروني
فحركهم الى الشرب ارتياح
فقلت بهم فألحقني ، فهبوا
فقالوا هل تنبه حين راحوا
فقال نعم فقالوا ألحقنا
به قد لاح للرائي صباح
فما أن زال ذاك الدأب منا
ثلاثيا نستغب ونستباح

ويذكر أبو الفرج أن هذه القصة تنسب الى والبة بن الحباب ، والصحيح

(230) فوات الوفيات 2/241 .

أنها لأبي الهندي. و هذه القصيدة من أروع الشعر الحواري البديع. وكلف هذا الشاعر بشرب الخمر إلى هذا الحد جلعهيستنفد شعره فيها (231) . وهي ظاهرة يمتاز بها بين شعراء إيران. إذ اتخذ الخمر مأربه في الحياة، حتى ليجعلها مدار فخره، يقول (232) :

شبت جدي ، وجدي مؤثر
لم ينازعني فروع المنتشب
من بني شيبان أصلي ثابت
وبني يربوع فرسان العرب
أجمع المال وما أجمعه
أطلب اللذة في ماء العنب

وأبو الهندي يمثل في هذا الشعر أصدق تمثيل، هذه الطبقة التي نشأت في المجتمع الاسلامي وأخلدت إلى حياة الترف واللذة، يقول (233) :

ودع أناسا تركوا شربها
ليسوا بما في الخمر يدرونا
لو شربوها فانتشوا مرة
لأصبحوا بالخمر يهذونا

وبلغ من هيامه أن أوصى بأن يتخذوا من ورق الكرم أكفانه وأن يجعلوا على قبره معصرة تروي عظامه ، وكان مع ذلك كله ، ينتظر عفو الله وغفرانه يقول (234) :

اجعلوا ان مت يوما كفني
ورق الكرم وقبري المعصره
وادفنوني وادفنوا الراح معي
واجعلوا الأقداح حول المقبره

---

(231) فوات الوفيات 2/240 ، الاغاني ساسي 21/177 .
(232) طبقات الشعراء ص 141 .
(233) نفس المصدر ص 143 .
(234) نفس المصدر ص 138 .

انــــــى أرجـــــو مـــن اللـــــه غـــــدا
بعــد شـــرب الـــــراح حســـن المغفـــــره

وهو يكثر من وصف مجالس الخمر وندمانها وأباريقها ودنانها، وهي وردية اللون مسكية الشم، طال بها العهد حتى وصلت الى التسعين، ثاوية في في دنها وكأنها النور المشعشع، وقد زادها تقادم عهدها شبابا وحسنا وجمـالا (235) :

جلتهـــا الجوالـــى حيـــن طـــاب مـــزاجهـــا
وطيينهـــا بالبـــــان والعنبـــــر الــــوردى
كميـــت ثـــوت فى الـــــدن تسعيـــن حجـــــة
مشعشعــــة فـــى شـــربهـــا واجـــــب الحـــــد
عقـــارا اذا مـــا ذاقهــــا الشيـــخ أرعشـــت
مفاصلـــه وازداد وجـــــدا الـــى وجـــــد
ويبكـــى علـــى مـــا فـــاتـــه مـــن شبـــابـــه
بكـــاء أسيـــــر فى الصفـــــاد وفى القـــــد

وتتجلى براعة أبي الهندي وتظهر لك مقدرته في أتم صورها عندما يتحدث عن مجالس شرابه وأنسه فتراه يصف، مثلا، الأباريق المترعة والزقاق المزبدة والوانها، فمن ذلك قوله في الأباريق (236) :

سيغنـــى أبـــا الهندى عـــن وطـــب ســـالـــم
أبـــاريـــق كالغـــزلان بيـــض نحـــورهـــــا
مصبغـــة الأعلـــى كـــأن ســـراتهـــــا (٢٣٧)
ذبـــائـــح أنصـــاب تـــوافـــت شهورهـــــا

(235) طبقات الشعراء ص 139 .
(236) نفس المصدر ص 140 .
(237) سراتها : ظهورها .

وواضح ما في البيتين من براعة التصوير. ولاشك أن هذا يرجع الى دقة ملاحظته وقوة ملكته التصويرية ومهارته في وضع كل صورة في الموضع الّذي يناسبها. وهو يشبه الأباريق بالغزلان ذوات النحور البيض ويلاحظ طول أعناق هذه الأباريق وما أسرع ما يسعفه خياله بصورة أخرى توضح مقدار طولها فيشبهها بأعناق الكراكي الفزعة من هول الصقور. كما يلاحظ أنها مصبغة الأعلى، ولا بد لمثل هذا اللون من تشبيه يكمل به وصفه ويتم به صورته. وما أسهل عليه أن يجده في ذبائح الأنصاب عندما تستوفي شهورها. ويصور طوافها وهي في أيدي السقاة قائلا (238) :

تلألأ فى أيدى السقاة كأنها
نجوم الثريا زينتها عبورها

وانظر بعد ذلك الى قوله في وصف الأباريق أيضا (239) :

وأباريق تناهت سعة
والذى فى الكف ملثوم أغر
مثل فرخ هب فى غيطلة (٢٤٠)
حذر الصقر فأقعى ونظر
أو كظبى اللصب (٢٤١) وافى مرقبا
حذر القانص صبحا فنفر
فعلا ثم استوى مرتبئا
قلة الطود على رأس حجر

ألا ترى كيف يشبه نفس الأباريق بفرخ هب في شجر كثيف نافر خائفا من مخالب الصقور فأقعى ونظر فزعا من الموت المنتظر. غير أن

---

(238) نفس المصدر ص 140 .
(239) نفس المصدر ص 140 .
(240) الغيطلة : الشجر الكثيف .
(241) اللصب : مضيق الوادى والشعب الصغير .

أبا الهندي لم يقف عند هذا التشبيه اذ يشبه أباريقه بظبي للصب ، وهو الذي يعيش في مضايق الوديان والشعاب الصغيرة ، وقد نفر هذا الظبي خوفا من قانص فاجأه في الصباح فعلا مستشرفا في قمة الجبل. ومثل هذه البراعة الوصفية لأبي الهندي نجدها أيضا في حديثه عن الزقاق التي كانت مطروحة حوله، فحين يكون الزق في بدايته تجده يشبه في انحنائه بشيوخ بني حام (242)

يمج سلافا من زقاق كأنها
شيوخ بنى حام تحنت ظهورها

أما اذا كانت ملأى فان الواحد منها يبدو كأنه حيوان شائل الرجلين معضوب الذنب، وأما إذا ما صبت منه فانه في هذا الحال يشبه الحبشي الذي قطعت ركبه (243) :

واستبائى الزق من حانوته
شائل الرجلين معضوب (٢٤٤) الذنب
واذا صبت لشرب خلتها
حبشيا قطعت منه الركب

والشاعر، حين يعدد تشبيهاته على هذا النحو انما يريد أن يوضح لنا الصورة والهيئة التي يبدو عليها الزق حين يكون ملآن وفارغا، واقرأ هذه الأبيات التي يذكرون أنه خاطب بها بعض ندمائه، وقد هب عليه هواء السحر فنهض وملأ من الزق كأسه وجاء بها الى نديمه قائلا (245) :

تصبح بوجه الراح والطائر السعد
كميتا (٢٤٦) وبعد المزج فى صفة الورد (٢٤٧

(242) طبقات الشعراء ص 141 .
(243) طبقات الشعراء ص 142 .
(244) المعضوب : المقطوع .
(245) مسالك الابصار فى ممالك الامصار 1/396 .
(246) الكميت : الخمر لما فيها من سواد وحمرة .
(247) الورد : من الخيل ما كان احمر يضرب لونه الى الصفرة والقصد هنا ان الخمرة بعد مزجها بالماء تتحول الى حمراء .

تضمنهـــــا زق أزب (٢٤٨) كــأنــــــــه
صريـــع من السودان ذو شعـــر جعــــد (٢٤٩)
ولمــا حللنــــا رأســــه مــن ربــاطـــــه
وفــاض دمــا كالمســـك أو عنبــــر الــــورد
وجــدنــــــاه فى بعــض الــزوايــا كــأنــــه
أخـــو قـــــرة (٢٥٠) يهتز من شـــدة البـــرد
أخـــو قـــــرة يبـــدى لنــا وجــه صفحـــــة
كلــون رقيـــق الجلـــد من ولد السنــــد (٢٥١)

ان مثـل هذه الصور الكثيرة التي لا يكاد يخلو منها بيت من هذه الأبيـات المتقدمـة قد يتبادر الى ذهن الدارس أن الشاعر يتكلف فيها تكلفا وأنه بذل فيها وقتا وجهدا حتى بلغ هذه الدرجة من الجودة، وأنا لا أنكر مثل هذا الجهد، فقد يكون أبو الهندي بذله أو بذل شيئا منه ولكني استبعد أن يكون قد بذل جهـدا كبيرا لأننـا نعلم الوقت الذي نظم فيه هذه الأبيات وقـد تقدمت الاشارة اليه – اللهم الا أن يكون الشاعر قالها من قبل وتمثل بهـا بعد ذلك – وعلى أي حال فان القـدرة التي استطاع بها الشاعر التوفيق بين تلك الصور الملائمـة بينهـا، يدلنا دلالة واضحـة على رهافة حسه وحسن ذوقه ودقة ملاحظتـه الفنية. وقد تعرض لمجالس الخمرة وما فيها من غنـاء وطرب وسقـاة بمثـل قولــه (252) :

اذا ذاقهـــــا مــن ذاق جـــــاد بمـــالـــــه
وقــد قــام ساقـــى القــوم وهنــا يديرهـــا
خفيفـــا ، مليحـــا فـــى قميــص مقلـــص
وجبـــة خـــز لـــم تشـــد زرورهــــــا

(248) الزق الأزب : الكثير الشعـــر .
(249) الجعـــد من الشعـــر : غير المسترسل .
(250) القرة بكسر القاف : البرد .
(251) « السنـــد » بلاد متصلة بالبلاد الهنديـــة وكانت ولايـــة تابعة للدولة الاموية وكان لها صدى كبير فى التاريخ الاسلامى القديم .
(252) طبقات الشعراء ص 141 .

وجـاريــة فــى كفهــا عـــود بـــربـــط
يجـاوبهـا عنـد الـتـرنـم زيـرهــا
اذا حـركتــه الكـــف قلـــت حمـامـــة
تجيـب على أغصـان أيـك تصورهــا (٢٥٣)
تجـاوب قمـريـا أغـن مطـوقـا
شقـائقـه منشـورة وشكيرهــا (٢٥٤)

وأبو الهندي يحدثنا عن صورة من صور مجالس أنسه وما يحدث فيها من غناء ومرح، فساقيهم، كما يذكر، خفيف فيه رقة ولطف يرتدى قميصا قصيرا وجبة من حرير غير مشدودة الأزرار، أما القينة التي تغنيهم فقد كان في يدها عود، كما كان لديها زير يجاوبها كلما صدحت بصوتها فكأنها ورقاء تجاوب قمريا وانظر الى هذا المجلس الاخر، وقد أخذت الخمرة من رؤوس أصحابه مأخذها، فغدوا في حالة غريبة، يقول (255):

يتـرك القـوم اذا مـا طـربـوا
فـى صيـاح ومـراء وصـخـب
اذا مـا منتـش قـامـت بـه
رفعـوا الأوصـال منـه بالخشـب
ثـم نـاحـوا نـوحـة ثـم بـكـوا
ثـم ضجـوا ضحكـا يـا للعجـب

وانظر اليه بعد ذلك حين يقول (256):

وهـو منـكـب علـى جبهـتـه
مـزبـد الشـدقيـن مسترخـى العصـب

(253) تصورها : تميلها .
(254) الشكير : صغر الريش .
(255) طبقات الشعراء ص 142 .
(256) نفس المصدر ص 142 .

رفــع الشـــــرب لــه يــافــوخـــــه (٢٥٧)
بــعـــد لأى فتلــكــــا وانقلـــب (٢٥٨)
ســاعـــة ، ثــم دعـــوه بــاسمـــــه
فــأجـــاب المـــرء صــوتـــا ووثـــب
ينــفـــض الـــرأس عليـــه غــبـــرة
مـــن تـــراب ورمـــاد وقـــتـــب
وأتــــوه بطــهــــور طــيــــب
ليصلـــى فتلكـــا وقـــطـــب

وقد قال ابن المعتز في شأن هذا الشعر ان "جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفان وطبقتهم انما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه (259) . وقد صور ذلك من قبله ابراهيم الموصلي إذ سمع شعرا لأبي نواس في صفة الخمر فذكر أنه لم يأت فيه بوصف أو معنى آلا كان من شعر أبي الهندي وطبقته ومضى يوازن بين بعض أبيات أبي نواس وأبي الهندي في الخمر موضحا اغارة النواسي عليه واعتماده (260) ، وقريب من هذه الرواية ما ينسبونه لأبي عبيدة حين أنشدوا بحضرته، شعرا في وصف الخمر فضحك ثم أنشد شعرا "لأبي الهندي" مأخوذا منــه (261).

وكل ذلك يدل على أن القدماء كانوا يرونه أستاذا للماجنين ، من بعده ، أمثال أبي نواس. ولم أر من أخذ عليه في شعره ، عيبا أو خطأ ، سوى قولــه (262) :

شــربـــت الخمــر فــى رمضـــان حتـــى
رأيـــت البـــدر للشعـــرى شــريكـــا

(257) اليافوخ : الراس
(258) لاى من لاى يلاى : أبطأ .
(259) طبقات الشعراء ص 142 .
(260) الاغانى ساسى 177/21 .
(261) نفس المصدر 177/21 .
(262) مسالك الابصار فى ممالك الامصار 389/1 .

وكان قد أنشده في ليلة شك تبين له بعدها أنها ليلة رمضان فاذا صح أنه نظم هذا البيت في أول ليلة من ليالي رمضان فكيف سوغ لنفسه أن يقول: "رأيت البدر للشعرى شريكا" فأين البدر في أول ليلة من ليالي شهر رمضان ؟ ومن ذا الذي يستطيع رؤية الهلال – لا البدر – في مثل تلك الليلة وفي آخرها ؟! أعتقد أن أحدا لا يستطيع أن يزعم هذا، حتى ولو كان ذلك عن طريق المبالغة. على أن أبا الهندي لم يعودنا بمثل هذه المبالغات ولعلها هفوة جرت على لسان سكران فخرجت منه دون أن يفطن لها ولا أستطيع أن أترك أبا الهندي دون أن أشير الى هذه الأبيات التي ذكرها الجاحظ(263) :

لما سمعت الديك صاح بسحرة
وتوسط النسران بطن العقرب
وتتابعت عصب النجوم كأنها
عفر الظباء على فروع المرقب
وبدا سهيل فى السماء كأنه
نور وعارضه هجان الربرب
نبهت ندمانى فقلت له اصطبح
يا ابن الكرام من الشراب الأصهب
صفراء تنزو فى الاناء كأنها
عين الجرادة أو لعاب الجندب
نزو الدبا من حر كل ظهيرة
وقادة حرباؤها بتقلب

الشمرذل بن شريك

ترجم لهذا الشاعر، ترجمة مختصرة، ابن قتيبة والامدي وذكر له اليزيدي قصيدة طويلة. ولعل خير ترجمة له هي ترجمة أبي الفرج الأصفهاني، وقد امتاز الامدى بذكر نسبه مفصلا وهو عنده : الشمردل

(263) الحيوان 5/569 .

ابن شريك بن عبد الله بن رؤبة بن سلمة بن بكر بن ضباري بن عبيد بن ثعلبه ابن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (264) وقد اختلف معه أبو الفرج إذ قال : هو الشمردل بن شريك بن عبد الملك بن رؤبه بن سلمة ابن مكرم بن ضباري بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع (265) ويشير الامدي، ومثله ابن قتيبة، الى أنه كان يدعى ابن الخريطة (266) وذلك أنه جعل وهو صبي في خريطة (267) وهذا كل ما ذكروه عن طفولة الشمردل وعن نشأته الأولى. ونراه، يختفي بعد ذلك لنجده شاعرا من شعراء تميم المشهورين بنظم الشعر فيجيد في أغلب أغراضه. وروى أبو الفرج أن الفرزدق وقف على الشمردل، يوما وهو ينشد إحدى قصائده فسمع منه هذا البيت (268) :

وما بين من لم يعط سمعا وطاعة
وبين تميم غير جز الحلاقم

فأعجب به وقال له : "والله ياشمردل لتتركن لي هذا البيت أو لتتركن لي عرضك" فخاف الشاعر على نفسه من لسانه فتنازل له عنه (269). ويذكر الرواة أنه خرج هو واخوته مع وكيع بن أبي سود زعيم تميم (270) الى خراسان وقد طلب منه أن يوجهه هو واخوته في وجه واحد وأن لا يفرقهم في وجوه مختلفة لأن في اجتماعهم قوة لهم ولكن وكيعا لم يستجب للشمردل وأمضى كلا في وجهه الذي سيره اليه مما أثار سخط الشاعر عليه فهجاه (271) وخاصة أن إخوته قتلوا في بعوثهم وقد عاش يبكيهم

(264) المؤتلف والمختلف ص 205 .
(265) الاغانى دار الكتب 13/351 .
(266) المؤتلف والمختلف ص 205 .
(267) الشعر والشعراء 2/685 .
(268) الاغانى دار الكتب 13/356 .
(269) نفس المصدر 13/357 ودائرة المعارف للبستانى 10/548 .
(270) نفس المصدر 13/351 .
(271) نفس المصدر 13/351 .

ويندبهم حتى توفي. وذهب بعض المحدثين الى أن وفاته كانت في سنة 80 للهجرة وهو رأي خاطىء فإن حياة الشمردل تتصل بوكيع بن أبي سود حين ولّي خراسان بعد قتل قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 96 للهجرة (272) ويبدو أن موت أخوته جعله يعكف على اللهو والخمر يغرق أحزانه فيهما، ولعل ذلك هو الذي جعل أشعاره لا صلة لها بالجهاد وحروب خراسان وانما تتصل بالخمر والحانات التي كان يكثر التردد عليها مع نديمين له : ديكل وقبيصة الشيباني، وفيهما يقول :(273)

شربت ونادمت الملوك فلم أجد
على الكأس ندمانا لها مثل ديكل
أقل نكاسا في جزور وان غلت
وأسرع انضاجا وانزال مرجل
ترى البازل الكوماء فوق خوانه
مفصلة أعضاؤها لم تفصل
سقيناها بعد الرى حتى كأنما
يرى حين أمسى أبرقى ذات مأسل
عشية أنسينا قبيصة نعله
فراح الفتى البكرى غير منعل

والشمردل يتفوق في بابين هما : الرثاء وأراجيز الطرد والقنص. أما الرثاء فله فيه أشعار رائعة رثى بها إخوته كلها تفجع وحسرة، من مثل قوله (274) :

أعاذل كم من روعة قد شهدتها
وغصة حزن فى فراق أخ جزل

---

(272) الاعلام 3/255 .
(273) الاغانى دار الكتب 13/357 ، 358 . ودائرة المعارف للبستانى 10/548 .
(274) الاغانى دار الكتب 13/352 .

اذا وقعـــت بيــن الحيــازيــم أســدفــت
علــى الضحـــى حتــى تنسينــى أهلـــى
ومــا أنــا الا مثــل مــن ضــربـــت لـــه
أســى الدهــر عن ابنــى أب فارقــا مثلـــى
أقـــول اذا عزيــت نفـــسى بــاخـــوة
مضــوا لا ضعـــاف فــى الحيــاة ولا عــزل
أبـــى المـــوت الا فجـــع كـــل بنــى أب
سيمســـون شتــى غيــر مجتمعــى الشمـــل

ألا ترى كيف صور الشاعر، في هذه الأبيات، نكبته التي عصفت بلبه واستقرت ويلاتها بين حيازيمه فانهد لها قلبه وأظلمت الدنيا في عينيه حتى رأيناه ينسى كل شيء في حياته، غير أنه لايلبث أن يثوب اليه رشده ويدرك أنه، في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون احد أولئك الذين تنكر لهم الدهر فطوى افراحهم استنزف دموعهم واذا كان لديه فضل من دمع يبكي به الصاحب والخدين فانه – بعد اليوم – لن يجد منه شيئا لآن أخاه وائلا أصبح لهذا الدمع شاغلا عما سواه فاشتد الكرب وافتقد الصبر وقل العزاء (275) :

أبــى الصبــر أن العيــن بعــدك لــم تـــزل
يخــالــط جفنيهـــا قـــذى لا تــزايلـــه
تبــرض بعــد الجهـــد مــن عبــراتهـــا
بقيـــة دمـــع شجــوه لـــك بـــاذلـــه
وكنـــت أعيــر الــدمــع قبلــك مــن بكـــى
فأنـــت علـــى من مــات بعــدك شــاغلـــه

والشاعر بعد هذا، يعجب ممن يدعونه الى التصبر والاحتساب، وكيف السبيل إلى هذا، وقد سار إخوته الواحد تلو الاخر ولن يرى أحدا منهم ؟

---

(275) أمالى اليزيدى ص 33 .

فكيف لا يبكيهم اذن ولو كان هو الهالك لرآهم يبكونه بأحر دمع (276) :

يقولـــون احتســـب حكمـــا وراحـــوا
بـــأبيـــــض لا أراه ولا يـــرانـــــــى
أخ لـــى لـــو دعـــوت أجـــاب صـــوتـــــى
وكنـــت مجيبـــه أنـــــى دعـــانـــــى
فقـــد أفنـــى البكـــاء عليـــه دمعـــــى
ولـــو كنـــت المصـــاب ، اذن بكـــانـــــى

وهكذا نرى الشمردل بعد أن أطنب في وصف ألمه وحزنه يرجع الى نفسه ليذكر أن مصيبته في هؤلاء الاخوه إنّما هي مصيبة عامة لا تقتصر عليه وحده، واذا حل بلاؤها اليوم به فإن غدا، لا محالة، سوف تحل بغيره، ولكن الذكرى تلح عليه فلا يستطيع على إخوته صبرا ولا يجد السلوان ولا النسيان الى قلبه سبيلا :

أبـــى المـــوت الا فجـــع كـــل بنـــى اب
سيمســـون شتـــى غيـــرمجتمعـــى الشمـــل
كـــأن لـــم نســـر يـــومـــا ونحـــن بغبطـــة
جميعـــا وينـــزل عنـــد رحلهمـــا رحلـــى

والموت هذا دأبه لا تراه مولعا الا بالكريم الذي يرتجى لكل عظيمة فيتخطفه، وكأنه لم يأت ذويه ولم يعش معهم، يؤنسهم ويدفع عنهم عاديات الأيام :

لعمـــرك ان المـــوت منـــا لمـــولـــع
مـــن نصـــره قـــد بـــان منـــا ونـــائلـــه
فمـــا البـــعـــد الا أننـــا بعـــد وائـــل
كـــأن لـــم نبـــايـــت وائـــلا ونقـــايلـــه

---

(276) الاغانى دار الكتب 13/356 .

وقد رأى الشاعر نفسه، بعد أن ذهب عنه اخوته، بمثابة القناة التي سقط منها سنانها والكف التي ذهب عنها بنانها، وكيف صلاح القناة والكف بعد ذلك ؟

وكنت سنان رمحى فى قناتى
وليس الرمح الا بالسنان
وكنت بنان كفى من يمينى
وكيف صلاحها بعد البنان

وفي واقع الأمر أن هذه النكبة وهذه الحال السيئة التي انتهى اليها الشاعر لم تكن تقتصر عليه وحده، وانما مصيبته في اخوته حلت بالقريب وبالبعيد، لأن القري بعد إخوته انعدم وأطفئت النيران التي كانت تشب في حياتهم لكل عابر سبيل (277) :

فلا يبعدا للداعبين اليهما
اذا اغبر آفاق السماء من المحل
فقد عدم الأضياف بعدهما القرى
وأخمد نار الليل كل فتى وغل

والشمردل، من أجل هذا، لا يستطيع لمصابه نسيانا، وكيف يتسنى له مثل هذا النسيان وكل شيء يذكره بإخوته ؟ فصوت الحمامة الشجي، والأوقات الحرجة التي تحل من أجلها حبا الشيب، ثم هذه الريح — ريح الصبا وهيف الجنوب — كل ذلك يجعله يتذكر اخاه ولا يغيب عن خاطره لحظة (278) :

يذكرنى هيف الجنوب ومنتهى
مسير الصبا رمسا عليه جنادله

(277) الاغانى دار الكتب 352/13 .
(278) أمالى اليزيدى ص 33 .

وهتافة فوق الغصون تفجعت
لفقد حمام أفردتها حبائله
من الورق بالأضياف نواحة الضحى
اذا الفرقد التفت عليه غياطله
وسورة أيدى القوم اذ حلت الحبا
حبا الشيب واستعوى أخا الحلم جاهله

وقد أصبح الشمردل يرى صورة أخيه وائل في كل شيء اذ كان كريما جوادا وهذا يذكره بريح الصبا لأنه مثلها مبارك ميمون النقيبة، كما يذكره ايضا بريح الجنوب لأنه كان ملاذ اللائذين، وكان حليما رزينا - حازما نجدا حينما يحل الشيب حباهم وينسى كل صاحب حلم حلمه، وان الدارس ليشعر وهو يقرأ مراثي الشمردل التي نظمها في اخوته، أنه لم يكن في رثائه على نحو ما ينظمه الكثير من الشعراء وفاء بحق من كانوا ينعمون عليهم وانما هو شعر يتحدث فيه صاحبه عن نكبته فيخص من يرثيه بعنايته ويهتم بابراز مقدار فداحة مصابه، ووصف ما يعتاج في صدره من هم ولوعة وما أصبح يعاوده من وحشة وأسى بعد أن فقد السند الذي يستند اليه. وكأن الشاعر، في الحقيقة، لا يرثي اخوته بقدر ما يرثي نفسه هو، ولا يبكي مصابهم بقدر ما يبكي مصابه من بعدهم وما يشعر به من ذل وهوان (279) :

وكان يهابك الأعداء حينا
ولا أخشى ، ورام من رماني
فقد أبدوا ضغائنهم وشدوا
الى الطرف واغتمزوا لياني
فداك أخ نبا عنه غناه
ومولى لا تصول له يدان

(279) الاغاني دار الكتب 13/356 .

ولذلك تشعر، وأنت تقرأ شعر الشمردل، أن الشاعر لم يكلف نفسه جهدا في البحث عن كلمة أو عبارة اذ اعتمد على تصوير حالاته النفسية ووصف عواطفه وأحاسيسه التي كانت تتردد في خاطره. ووفق الى حد كبير في الأسلوب الذي صاغ به تلك المراثي فظهرت في شعره، رثاء إنسانيا، إن صح هذا التعبير، لا يصدق في الحقيقة على الشمردل وحده إنما يصدق على كل من كان على شاكلته. والشاعر في هذه الناحية يختلف — الى حد ما — عن غيره من شعراء الرثاء بخراسان. واذا كان أول شعورك الاعجاب وأنت تطلع على شعر هؤلاء الشعراء، فانك في شعر الشمرل تجد اصدق الاحساس هو مصدر هذا الإجادة. وهذه أبيات من قصيدته التي أنشدها في أخيه وائل وقال عنها بعضهم انها "مختارة من الأصمعيات" وهي "من مختار المراثي وجيد الشعر، وقد أشرنا إلى بعض أبيات منها في حديثنا المتقدم" يقول الشمردل (280) :

اذا استعبرت عوذ النساء وشمرت
مآزر يوم توارى خلاخله
وثقن به عند الحفيظة فارعوى
الى صوته جاراته وحلائله
الى ذائد فى الحرب لم يك خاملا
اذا عاذ بالسيف المجرد حامله
كما ذاد عن عريسة الغيل مخدر
يخاف الردى ركبانه وأراجله
وما كنت ألقى لامرى عند موطن
أخا بأخى لو كان حيا أبادله
وكنت به أغشى القتال فعزنى
عليه من المقدار من لا أقاتله

---

(280) أمالى اليزيدى ص 34 .

فأنت ترى الشاعر لم يكد يحدثنا عن منزلة أخيه في قومه وعن أفضاله وما كان يقوم به من عمل البر والإحسان لأهله وجيرانه، وما كان عليه من نصرة ونجدة، لم يكد يذكر هذا كله حتى رأيناه يعود الى نغمته الحزينة التي اعتاد عليها لأن نكبته في أخيه هي في الواقع نكبة حلت به وحده وتركته في حال من العجز والحزن المدمض :

وكنت به أغشى القتال فعزني
عليه من المقدار من لا أقاتله

ولا شك أن هذه الجودة التي بلغها الشمردل في مراثيه انما ترجع الى عمق المأساة التي عاش الشاعر أهوالها، ولعل ذلك ما جعل رثاءه في غير إخوته يختلف عن رثائهم، اذ يسير على النهج المألوف الذي يسلكه عامة شعراء الرثاء، كمثل قوله في عمر بن يزيد الأسدى حين بلغه موته وهو بخراسان (281) :

لبس الصباح وأسلمته ليلة
طالت كأن نجومها لا تبرح
من صولة يجتاح أخرى مثلها
حتى ترى السدف القيام النوح
عطلن أيديهن ثم تفجعت
ليل التمام بهن عبرى تصدح
وحليلة رزئت وأخت وابنة
كالبدر تنظره عيون لمح
لا يبعد ابن يزيد سيد قومه
عند الحفاظ وحاجة تستنجح
حامى الحقيقة لا تزال جياده
تعدو مسومة به وتروح

(281) الاغانى دار الكتب 13/360 .

للحـــرب محتسب القتـــال مشمـــر
بالـــدرع مضطمـــر الحـــوامـــل ســـرح
ســـاد العـــراق وكـــان أول وافـــد
تـــأتـــى الملـــوك بـــه المهـــارى الطلـــح
يعطـــى الغـــلاء بكـــل مجـــد يشتـــرى
ان المغـــالـــى بـــالمكـــارم أربـــح

ونحن نشعر أن في هذا الشعر شيئا من الصناعة في اختيار العبارة وطريقة صوغها، من مثل قوله : "لبس الصباح وأسلمته ليلة"، وقوله أيضا :

للحـــرب محتســـب القتـــال مشمـــر
بالـــدرع مضطمـــر الحـــوامـــل ســـرح

وما أحسب أن مثل هذا الشعر يجيء الشمـردل عفو الخاطر لأن طابع الصنعـة فيه ظاهر، وانظر بعد ذلك الى المعاني التي جعلها قصده في هـذه المـرثيـة فقد اهتم ببيان الرزيئة التي حلت بأسرة الفقيد وعشيرته، أما ما سوى ذلك من العواطف والأحاسيس التي عودنا الشاعر أن يصفها لنا في شعره فنجدها انعدمت في هذه القصيدة أو كادت لأن وقع الحادث على نفسه لم يكن عميقـا عمق احساسه بمـوت اخوتـه.

على أن القارىء لا يعدم المتعة الفنية حين يقرأ هذه القصيدة، وانه ليعجب بطريقـة نظمهـا وجودة لفظها ولطف معناها وكل ذلك يدل على براعـة تميز بها الشمـردل في مثل هذا الفن من الشعر، الا أننا ــ مع ذلك ــ نجد فرقا واضحا بين شعـره الذي قاله في إخوته وبين هذا الشعر الذي صاغه في غيرهم. ففي الأول تشعـر كأن الشمـردل لم يكن يرثي اخوته وانما كان يبكيهم نائحا، أما في هذا الشعر فانك تشعـر أنه جاء يعزي ويؤبن ويذكـر المحامد والفضائل. وللشمـردل مدائح وأهاج قليلة جيدة، من مثل قولـه فـي المـديـح (282) :

(282) الحيوان 3/91، 92 .

اذا جـرى المسـك ينـدى فى مفـارقهـم
راحـوا كـأنهـم مـرضـى مـن الكـرم
يشبهـون ملـوكـا فـى تجلتهـم
وطـول أنضيـة الأعنـاق والامـم

وعلى الرغم من اشارة القدماء لهجائه فان ما روي لنا منه يدل على أنه لم يكن بارعا في هذا الفن بدليل ما يقوله في ابن هلال بن احوز المازني (283) :

يقـول هـلال كلمـا جئـت زائـرا
ولا خيـر عنـد المـازنـى أعـاوده
ألا ليتنـى أمسـى وبينـى وبينـه
بعيـد منـاط المـاء غير فـدافـده
غـدا نصف حـول منـه ان قيـل لـى غـد
وبعـد غـد منـه كحـول أراصـده
ولـو أننـى خيـرت بيـن غـداتـه
وبيـن بـرازى ديلميـا أجـالـده
تعوضـت مـن سـاقى عشـريـن درهمـا
أتـانـى بهـا مـن غلـة السـوق ناقـده
ولـو قيـل مثـلا كنـز قـارون عنـده
وقيـل التمـس مـوعـوده لا أعـاوده
ومثلـك منقـوص اليـديـن رددتـه
الـى محتـد قـد كـان حينـا يجـاحـده

وهو هجاء يهبط درجات عن الهجاء الذي عرفناه في إيران عند زياد الأعجم والمغيرة بن حبناء، إذ يقول لصاحبه انه بخيل، ولو خيّر بين الغدو اليه وبين مبارزته رجلا من الديلم لفضل هذه المبارزة على أن يغاديه ،

(283) الاغانى دار الكتب 13/358 .

ولن يعود الى مدحه حتى ولو كان تحت يده كنوز قارون. ولما أراد أن يقسو عليه أو ظن هو ذلك على الأقل، وصفه بأنه منقوص اليدين وأن مثله قد رد الى أصله الذي ظل زمنا يجحده ولا يرضى أن يعترف به. وانظر بعد ذلك الى ما يقوله في الضبّى الذي شمت بمصرع إخوته (284):

يا أيها المبتغى شتمى لأشتمه
ان كنت أعمى فانى عنك غير عم
ما أرضعت مرضع سخلا (٢٨٥) أعق بها
فى الناس لا عرب منها ولا عجم
عوى ليكسبها شرا فقلت له
من يكسب الشر ثديى أمه يلم
ومن تعرض شتمى يلق معطسه
من النشوق الذى يشفى من اللمم

ولعل الشاعر كان من المجيدين في فن الغزل والنسيب لاننا رأيناهم يذكرون أن الأصمعي كان يستجيد أبياتا له في هذا الفن ويعدها من ظريف الكلام ورقيق الشعر وهو قوله (286) :

ثم استقل منعمات كالدمى
شمس (٢٨٧) العتاب قليلة الأحقاد
كذب المواعد ما يزال أخو الهوى
منهن بين مودة وبعاد
حتى ينال حبالهن معلقا
عقل الشريد وهن غير شراد

(284) الاغانى دار الكتب 13/359 .
(285) السخل : الضعيف الرذل .
(286) نفس المصدر 13/363 .
(287) شمس : نافرات .

والحـــب يصلـــح بعـــد هجـــر بيننــــــا
ويهيـــج معتبـــة بغـيـــر بـــعـــاد

واذا لم يقدر للشمردل أن يكون شاعرا هجاء ولا غزلا فإن ذلك لا يحط من قيمته الشعرية لأنه يعد أول شاعر من فحول الشعر العربي في إيران، عالج فن الرجز وأحسن فيه أيما إحسان. وإذا كنا قد رأيناه يتميز في فن المصيد بشعر الرثاء فاننا نجده في فن الرجز مجددا من حيث الموضوع، أو على أقل تقدير – يعد أحد المجددين في هذا الموضوع على فرض أن هناك من سبقه اليه، اذ نراه يصف في أراجيزه رحلات صيده التي كان يقوم بها، ويتحدث عن الصقر الذي كان يصطاد به فيطيل فيه الحديث. وأرجح أن يكون هذا اللون من الرجز فنا جديدا في الأدب الأموي لم يشتهر ولم يعرف أمره إلا في العصر العباسي على يدي أبي نواس وطبقته، وقد جاء هذا الفن الذي عالجه الشمردل ووصف فيه الصيد والطرد نتيجة طبيعية لما كانت تنزع اليه نفسه من ميل الى اللهو واللعب وقضاء الكثير من وقته في القنص والصيد بالجوارح. وذكر له أبو الفرج أرجوزة، في الصقر وصف فيها الشاعر سرعته في قنص فريسته كما وصف مخالبه وحدتها حتى لكأنها مدى جزار ضرجتها الدماء، يقول (288):

قـــد اغتـــدى والصبـــح فـــى حجـابـــه
والليـــل لـــم يـــأو الـــى مـــآبـــه
وقـــد بـــــدا أبلـــق مـــن منجـــابـــه
بتـــوجـــى صـــاد فـــى شبـــابـــه
وعـــرف الصـــوت الـــذى يـــدعـــى بـــه
ولمعـــة (٢٨٩) الملمـــع فـــى أثـــوابـــه

فالشاعر يحدثنا في هذه الأبيات أنه كان يغتدي والصبح ما يزال وراء

(288) الاغاني دار الكتب 13/361 .
(289) اللمعة الاشارة .

الحجاب بصقر توجي أبلق اللون مدرب على فنون الصيد حتى أصبح يدعوه باسمه فيستجيب لندائه كما كان يعرف الاشارة التي يلوح بها اليه. واعتقد أن مثل هذا اللون من الصقور لم يكن للعرب به علم من قبل ولعلهم عرفوه بعد أن فتحوا بلاد فارس "توج" التي نسب الشاعر اليها صقره هي قرية من قرى فارس (290)، ولا شك أنها كانت مشهورة بهذا النوع من الجوارح. ثم نرى الشاعر، بعد هذا، يحدثنا عن القانص الذي جاء به، فيقول (291) :

فقلت للقانص اذ أتى به
قبل طلوع الآل أو سرابه

ثم يأخذ في وصف الصقر وصفا رائعا يدل على طول خبرة ودقة ملاحظة :

ويحك ما أبصر اذ أتى به
من بطن ملحوب الى لبابه
قشعا ترى التبة من جنابه
فانقض كالجلمود اذ علا به
غضبان يوم فتية (٢٩٢) رمى به
فهن يلقين من اغتصابه
اذ لا يزال حربه يشقى به
منتزع الفؤاد من حجابه
جاد وقد انشب فى اهابه
مخالبا ينشبن فى انشابه
مثل مدى الجزار او حرابه
كأنما بالحلق من خضابه

---

(290) معجم البلدان 2/426 .

(291) الاغانى دار الكتب 13/361 ، 362 .

(292) يوم قنية : يوم الاقتناء .

عصفـــرة الـــفـــؤاد أو قضـــابـــــه
حـــوى ثمـــانيـــن علـــى حســـابـــــه

ونـراه، بعد ذلك، يحدثنا عن الليلة التي قضاها الشاعـر مع صحبه بين طهي وشي للخربان وذكور الأرانـب. ولست أشعر أن الشمـردل كان مبالغا في هـذا الحديث وما أحسب أنه ابتعد عن الواقع شيئا. وأظن أن أبا الفرج لم يثبت الأرجـوزة كاملـة لأن آخر بيت فيهـا :

فـــقـــام للطبـــخ ولاحتطـــابـــــه
أروع يهـتـــاج اذا هجـنـــا بـــــه

كما ترى ومثل هذا البيت، لا يشعرك بأنه خاتمـة لها. وللشمـردل أرجوزة ثانية نظمهـا في ذئب ألح على غنم كانت له فنهض اليه في احدى الليالي فرماه بسهم فقتلـه. وهي أقصر من الأرجوزة السابقـة، وتختلف عنهـا في سهـولـة ألفاظهـا ووضوح معـانيهـا وأنت حين تقرأها تشعر عندما تصـل الى نهايتهـا أن أبا الفرج أنشدها كاملـة وهي تجري على هذا النمط (293) :

هـــل خبـــر الســـرحـــان اذ يستخبـــر
عنـــى وقـــد نـــام الصحـــاب السمـــر
لمـــا رأيـــت الضـــأن منـــه تنفـــر
نهضـــت وسنـــان وطـــار المئـــزر
وراح منهـــا مـــرح مستبهـــر (٢٩٤)
كـــأنـــه اعصـــار ريـــح أغبـــر
فـــلـــم أزل أطـــرده ويعكـــر (٢٩٥)
حتـــى اذا استيقنـــت ان لا أعـــذر

---

(293) الاغاني دار الكتب 13/362 .
(294) المستبهر : المنبهر وهو الذى انقطع نفسه من السعى الشديد .
(295) عكـر : كـر مهاجما .

وأن عــقـــــر غنـمـــــى سيكــثـــــر
طـــار بكفـــى ، وفـــؤادى أوجـــــر
ثــمـــــت أهـــويـــت بـــه لا أزجـــــر
سهمـــا فـــولــــى عنــــه وهـــو يعثـــــر
وبـــــت ليلـــــى آمنـــــا أكــبـــــر

وأنت لا تجد فيها لفظا غريبا سوى كلمة "أوجـر" ومعناها الخوف. ومع ذلك فانهـا لا تختلف عن بقية ما نظمـه الشاعر من حيث الجزالة وقوة البناء، وهـذا كله يرجع إلى أسلوب الشاعر وطريقة نظمـه فهو لم يكـن يعتمـد على التشبيه أو التصوير كثيرا وانما نجده يصرف عنايته الى اختيار الألفاظ المصقولـة الموحية، كقوله "لبس الصباح وأسلمته ليلة" ومثل قوله: "نهضت وسنان وطار المئزر" وكقوله أيضـا (296) :

كــذب المواعــد مــا يـــزال أخـــو الهـــــوى
منهـــن بيــــن مـــــودة وبــعــــــاد
حتــــى ينــــال حبــالهــــن معلقــــا
عقـــل الشـــريـد وهـــن غيــر شـــراد

وهذا اللون من النظم يبدو بعيدا عن التكلف نتيجة لهذا الطبع القـوى الذي يتمتع به الشاعر حتى ليخيل اليك، في نـظمـه، أنه كان يجرى عن سليقـة دون أن يقصد قصدا الى بعض العبارات الشعرية التي تطالعك بين الحين والحين. وينبغي أن لا ننسى أن شاعرنا هذا، وغيره من شعراء العصر الأموي — بمـا فيهم شعـراء إيــران — ما زالـوا قريبي عـهد بحيـاة البداوة ولذلك احتفظ شعرهم بطابع الجزالة والقوة على الرغم من السهـولة التي تشيع في كثير منه. ويجب أن لا نحمـل الشمـردل على أنه كان يسعى الى الإغراب عندما نراه في بعض شعره يطالعنا بألفاظ بدوية فيها غرابة وانمـا

(296) الاغانى دار الكتب 363/13 .

هو مظهر من مظاهر هذه الحياة البدوية التي كان يعيشها الشاعر واستمرت معه فلم تفارقه وحملها معه الى إيران. ولذلك قد تجده في القصيدة الواحدة تختلف ألفاظه اختلافا كبيرا حتى لكأن هناك شاعرين اشتركا في نظمها فبينما تسمع له في قصيدة له مثل قوله :

لعمري لئن غالت أخي دار فرقة
وآب الينا سيفه ورواحله
وحلت به أثقالها الأرض وانتهى
بمثواه منها وهو عف مآكله
لقد ضمنت جلد القوى كان يتقى
به جانب الثغر المخوف زلازله

نجده في نفس القصيدة يقول :

وشعث يظنون الظنون سما بهم
لنأى الصوى يثنى الضعيف تهاوله
بخرق من الموماة قود رعانه
يكاد اذا أضحى تجول مواثله (٢٩٧)
تشبه حصراه القراقير يرتمى
بها ذو جداة يضرب البيد ساحله (٢٩٨)
اذا النشز فوق الآل ظل كأنه
قرا فرس يغشى الأجلة كاهله (٢٩٩)
وسدم سقى منه الخوامس بعدما
ضرحن الحصى حتى توقد جائله (٣٠٠)

---

(297) المواثل : من الرسوم ما ذهب اثره ، والخرق : القفر . والموماة : المفازة . الرعان : الحبال .
(298) الحصار ما يلقى على الظهر . والقراقير : السفن ، وذو جداه : البحر .
(299) النشز : المكان المرتفع . والقرا : الظهر . والاجلة : للفرس كالثوب .
(300) السدم : ما تغير من الماء لطول مكثه . وطرح : دفع .

ولا شك أنك لاحظت هذه الغرابة اللفظية في هذه الأبيات حتى لكأن الشاعر الذي قالها غير الشاعر الذي نظم الأبيات المتقدمة ولا يلبث في قصيدته هذه أن يرجع الى طريقته الأولى في جمعه بين الجزالة والسهولة والوضوح على عادة الشاعر البدوي الأصيل. واذا كان الشمردل لا يملك خيال أبي الهندي ولا قوة التصوير وضرب المثل على نحو ما شاهدناه عند زياد الأعجم، فان ما اختص به من صفاء الطبع واعتماده على ما يجول في صدره من شعور واحساس دون أن يتكلف في ذلك تكلفا أو يتعمل من أجاله تعملا، جعل شعره أثرا أدبيا عاليا يستسيغه السمع وترتاح له النفس. ومهما أطال الدارس في ترديد هذا الشعر فانه لا يشعر بملل أو سأم. وفي رأيي أن ذلك راجع الى أن الشاعر كان يستخلص معاني شعره — ولا سيما الرثاء — من روحه وقلبه ثم يقدمها في ألفاظ قوية موحية على عادة العربي الفصيح الذي لم يداخل طبعه لين أهل المدن ولا ترف أهل الحضر. وهذه الميزة لمستها في أغلب ما وصل الينا من شعره ولم يخل منها حتى شعره الذي بعث به الى أخيه قدامة حين أبى وكيع أن يستجيب لطلبه، يقول في هذه القصيدة (301) :

انــــى اليــــــك اذا كتـــبـــــت قصيـــــدة
لــم يــأتنـــــى بجـــوابهـــــا مــرجـــــوع
أيضيعهـــــا الجشمـــــى فيمـــــا بيننـــــا
أم هــــل اذا وصلـــــت اليــــــك تضيـــــع
ولقــــــد علمـــــت وأنـــــت عنـــى نــــــازح
فيمـــــا أتـــــى كبـــد الحمــــــار وكيـــــع

وهذه الأبيات لا تخرج عن أن تكون رسالة شعرية استرسل فيها الشاعر على سجيته وطبعه. وكل ما يهمه تقرير المعنى الذي استقر في قلبه. ويظهر لك هذا واضحا حين تقرأ لـه قولـه (302) :

(301) الاغانى دار الكتب 13/351 .
(302) الاغانى دار الكتب 13/360 .

انـــى وان كنــت لا أنســى مصــابهـــــم
لــم أدفــع المــوت عــن زيــق ولا حكــم
لا يبعـــدا فتيــا جــود ومكــرمــــة
لــرفــع ضيــم وقتــل الجــوع والقـــرم
ومــا بنـــاء وان شــدت دعــائمـــه
الا سيصبــح ، يــوما ، خــاوى الــدعــم

ففي مثل هذا الشعر تحس أنه يتبع المعنى الذي يراوده على نحو ما شعر به دون أن يضيف إليه لونا من ألوان الخيال، وحتى لما حاول أن يصبغ بعض أبياته ببعض الصور لم يزد على أن قال : "وقتل الجوع والقرم" ولو صح أن نوازنه ببعض شعراء إيـوان لوجدناه أقرب صلة بحياة البادية واني لأحسب أن حرصه على النظم، في الرجز هو أحد مظاهر هذا التعلق الشغف الشـديد.

الفصـــل الــرابـــع

الخصائص الفنيــة العــامة

الــرجـــــز :

كنا نتوقع أن يكون حظ الرَّجز عند الشعراء الايـرانيين كحظ فـن القصيـد، ان لم نره يفوقه كثرة وانتشارا ولكن العكس هو الذي حدث وإنه لمن الغريب في مجتمع كالمجتمع الخراساني الذي لا تكاد تهدأ فيه الحروب الخارجية والفتن القائمة من أجل العصبية، أن لا نجد من الشعراء الفحول، باستثناء الشمـردل، من وجه عنايته الى هذا الفن. ترى ما هو السبب الذي حدا بهؤلاء الشعراء أن يطـرحوا فن الرجز جانبا ويقبلوا على صوغ أشعارهم مقصدة ؟

إن الحروب الطاحنة والمعارك الشديدة القاسية لا أجد لها في رأيي شيئا يناسبهـا ويذكي نار الحماسة في نفوس أصحابهـا مثل الرجز لما فيه من التجاوب الموسيقي القوي، ولما في وزنه من سهولة تلائم حركات الأبطال السريعة واندفاعهم في ساحات القتال دون أن يشعروا بجهد وهم ينشدون. وفي رأيي أن الرجاز في المجتمع الايـرانـــي بدأوا يفقدون منزلتهم وأصبح فن الرجز ضعيف القيمة مما حمل الشعراء على النظم في القصيد. ولا نقصد بهذا القول أن الرجز امحى من إيــران امحاء وانما نريد أن نقول إن حظ هؤلاء الشعراء، الذين عاشوا في خراسان، منه كان ضئيلا. ومن أهم الشعراء الذين وصل الينا شيء من أرجازهم، الشمردل كما رأينا ذلك من قبل في ترجمتــه، أما من سواه فقد نظموا منه المقطوعة والأبيات المتفرقات في

الصيد والطرد، وأيضا فقد نظموا في الهجاء على نحو ما يالقانا عند عثمان ابن مسعود العبسي حين قاوله حضين ابن المنذر بمحضر قتيبة فغلبه وتسرع يهجوه ويهجو قتيبة معه بقوله (1) :

تفرى حضينا ، وحضين عائلة
يشتم عرضى هبلتك الهابلة
تبغى سقاطى ، بالقوم باهلة
قبيلة فى الأولين واغلة

ونرى وكيعا في ثورته على قتيبة ينظم أبياتا مختلفة في الفخر من مثل قوله (2) :

قد جربونى ثم جربونى
من غلوتين (٣) ومن المئين
حتى اذا شبت وشيبونى
خلوا عنانى وتنكبونى

ولوكيع أبيات أخرى من الرجز تدل على نفس أعرابية موغلة في أعرابيتها لا تستريح ولا تحب لغيرها أن يستريح، كقوله (4) :

لا خير فى أحزم جياد القرع (٥)
فى أى يوم لم أرع ولم ارع

---

(1) معجم الشعراء للمرزبانى ص 90 .
(2) الطبرى 5/282 .
(3) الغلوة : مقدار رمية .
(4) الطبرى 5 282 .
(5) القرع : له معان كثيرة لعل اقربها : ما يتراهن عليه المتسابقون .

وقـولـه (6) :

شـــدوا علـى سـرتـى لا تنقلـــف (٧)
يـــوم لهـــذان ويــــوم للصـــــدف
ولتميـــــم مثلهــــا أو تعــتــرف

ومثل شريح بن هاني الذي كان يرتجز في الموقعة التي قتل فيها بسجستان في زمـن الحجـاج، يقول (8) :

أصبحـــت ذا بـــث أقـاســـى الكبـــرا
قــد عشـــت بيــن المشــركيـــن أعصـــرا
ثمــت أدركـــت النـبـــى المنـــــذرا
وبـــعــــده صـــديقــــه وعـــمـــــرا
ويـــوم صهـــران ويـــوم تستـــــرا
والجمـــع فــــى صفينهـــم والنهـــــرا
وبـــالجـــمـــيـــرات والمشقــــــرا
هيهـــات مــا أطـــول هـــذا عمـــــرا

وهناك بعض مقطوعات قالها رجاز في مديح بعض من ولاة خراسان مثل يزيد ابن المهلب وسعيد الحرشي وأسد بن عبد الله القسري، من مثل قول بعضهم في سعيد الحرشي (9) :

(6) النقائض ص 361 .
(7) انقلفت : تفجرت اى انشقت او انثنت لكبرها .
(8) جمهرة الانساب لابن الكلبى ص 47 س 3 فما بعده .
(9) الطبرى 5/366 .

اذا سعيـــد ســـافــر فــى الأخمـــاس
فـــى رهـــج يـــأخـــذ بالأنفـــاس (١٠)
دارت علـــى التـــرك أمـــر الكـــأس
وطـــارت التـــرك علـــى الأحـــلاس
ولـــوا فـــرارا عطـــل القيـــاس

ونوه ابن السجف بانتصارات أسد بن عبد الله القسري على الترك في أرجوزة طريفة تجري على هذا النمط (11) :

لـــو ســـرت فى الأرض تقيـــس الارضـــا
تقيـــس منهـــا طـــولهـــا والعـــرضـــا
لـــم تلـــق خيـــرا مـــرة ونقضـــا
مـــن الأمـــيـــر أســـد وأمـــضـــى
أفضـــى اليـنـــا الخيـــر حيـــن أفضـــى
وجمـــع الشمـــل وكـــان رفـــضـــا
مـــا فـــاتـــه خـــاقـــان الا ركـــضـــا
قـــد فـــض مـــن جمـــوعـــه مـــا فضـــا

وهكذا نرى أن في بعض هذه الأرجاز ما يلقي ظلالا ، وان كانت ضعيفة ، على بعض الجوانب التاريخية والسياسية في بلاد إيـر ان. كما نجد في بعضها الاخر بداية ظهور فن من فنون الشعر العربي قد لا يكون معروفا من قبل، وهي أرجاز الصيد والطرديات. وكأنما قدر لهذه البيئة أن تسبق في هذا الفن أبا نواس وغيره من الشعراء العباسيين.

الصـــدق والاصـالـــة :

واذا تركنا الرجز الى الشعر، لاحظنا فيه عنصرين أساسيين هما : الأصالة والصدق مما جعله يتمثل حياة إيـر ان الحربية والسياسية والاجتماعية. وكان

(10) الرهج : الغبار
(11) الطبرى 452/5 .

أكثر الشعراء جنودا برزوا في حروب المهلب للخوارج، ومع غيره من الولاة الذين تعاقبوا على امارة خراسان. فكنت تراهم مع الجنود في حرب الفتوح يغشونها كما يغشاها أي مقاتل من المسلمين ويصطلون بنارها كما يصطلي كل صاحب شجاعة وبأس. وهم في كل هذا يرون حسن بلاء أمرائهم في مثل هذه الحروب وحسن أثرهم فيها كما يرون ما يحققه هؤلاء الأمراء، بفضل سياستهم وتدبيرهم، من كثرة الفيء ووفرة الغنيمة، وكل ذلك، لاشك، من أهم العوامل التي تبعث الشاعر على أن ينظم المدائح الشعرية، وتصل به بعد ذلك الى درجة الإجادة في وصف تلك الحروب وما كانوا يلاقون فيها من شدة وهول. ومن هذا اللون، ما وصف به كعب الأشقري إحدى المعارك التي حضرها وخاض غمارها الى جانب المهلب. يقول (12) :

اليهم وفيهم منتهى الحزم والندى
وللكرب فيهم والخصاصة قاسح

ترى علقا تغشى النفوس رشاشه
اذا انفرجت من بعدهن الجوانح

كأن القنا الخطى فينا وفيهم
أشاطين بئر هيجتها المواتح

هناك قذفنا بالرماح فمائل
هنالك فى جمع الفريقين رانح (١٣)

ودرنا كما دارت على قطبها الرحى
ودارت على هام الرجال الصفائح

وواضح أنه استطاع أن يعطينا وصفا رائعا لهذه المعركة وصورة كاملة غير منقوصة في ألفاظ جزلة قوية. وقد وفق في استخدام الألفاظ توفيقه

(12) الحيوان 6/428 .
(13) رانح : مغشى عليه ،

في صياغة تشبيهه فجاءت أبياتا غاية في جودة المعنى وجمال اللفظ . وما كان لكعب أن يوفق مثل هذا التوفيق لو لم يعايش هذه التجربة. وكل ما ساقه في هذه الأبيات، من وصف بديع ، انما هو في حقيقة الأمر تعبير صادق عن واقع شهدته عينه ولمسته يده، واستطاع بعد ذلك — بفضل موهبته الشعرية — أن يصوغ تجربة فنية يلتقي فيها صدق الواقع بصفاء الطبع ورقة الاحساس.

وتشبيهه القنا بالأشطان، حقا، قديم ولكنه أضاف اليه اضافة طريفة اذ قال: "هيجتها المواتح" لأن اشتجار الرماح وقت المزاحفة لا تكاد تجد له ما يشبهه غير الأشطان الكثيرة لبئر تدافع عليها الماتحون. وانظر، أيضا، الى البيت الأخير كيف جعل التفاف الجيش حول العدو بمثابة الرحى الدائرة على قطبها، وكما تدور هذه الرحى دارت تلك السيوف على هام أصحابها.

وانظر بعد ذلك الى ما يقوله ثابت قطنة يمدح به أسد بن عبد الله القسري بعد غزوته الموفقة لغورين (14) :

أرى أسدا فى الحرب ان نزلت به
وقارع أهل الحرب فاز وأوجبا
تناول أرض السبل خاقان ردءه
فحرق ما استعصى عليه وخربا
أتتك وفود الترك ما بين كابل
وغورين اذ لم يهربوا منك مهربا
فما يغمر الأعداء من ليث غابة
أبى ضاريات حر شوه فعقبا
أزب كأن الورس (١٥) فوق ذراعه
كريم المحيا قد أسن وجربا

(14) الطبرى 391/5 .
(15) الورس : نبات كالسمسم يصبغ به .

ألـم يـك فـى الحصـن المبـارك عصمـة
لجنـدك اذ هـاب الجبـان وأرهبـا
بنـى لـك عبـد اللـه حصنـا ورثتـه
قـديمـا اذا عـد القـديـم وأنجبـا

ولا شك أن براعة الشاعر تطالعك في كل بيت من أبيات هذه القصيدة، ويروعك منه اختياره لكلماتها النابضة بالمعاني الحية وهذا ما لا ريب فيه يرجع الى عامل العصبية من جهـة والى كفاءة أسد وحسن قيادته لجيوش العرب هناك مما جعل الشاعر يمثل في الشعر الايـراني الاستجابة الصادقة لأحداث عصره، دون تحمل منه أو تكلف واقرأ بعد ذلك قول أبى الجويرية عيسى ابن عاصمـة في رثاء الجنـيد (16) :

هلـك الجـود والجنيـد جميعـا
فعلـى الجـود والجنيـد السـلام
أصبحـا ثـاوبيـن فـى أرض مـرو
مـا تغنـت علـى الغصـون الحمـام
كنتمـا نـزهـة الكـرام فلمـا
مـت، مـات النـدى ومـات الكـرام

ولا شك أن هذه المقطوعة أعجبتك لما اشتملت عليه من حسن اللفظ وجودة المعنى ولا سيما حين تلاحظ كيف قرن الشاعر الجود بالجنيد وجعلهما "نـزهـة الكـرام" ولم يكن أبو الجويريـة في مثل هذا القول مبالغا ولا متكلفـا فإن الجنيد كان شهمـا كريمـا وقائدا شجاعـا.

الـروح الخطـابية

ومن السمات البارزة في الشعر الخراساني اللهجة الخطابية فإنك تجدهـا شائعة عند عامة الشعراء الفرسان، ولا سيما اذا ما تحدثوا عن المعارك

(16) الطبرى 427/5 .

والحروب التي كانوا يخوضونها، على نحو ما نجد عند نعمان بن عقبة العتكي، وكان من أصحاب المهلب (17) :

ليت الحواضن في الخدور شهدننا
فيرين من وغل الكتيبة أولا
وقروا فكنا في الوقار كمثلهم
اذ ليس تسمع غير قدم أو هلا (١٨)
وعدوا فأبرقنا لهم بسيوفنا
ضربا ترى منه السواعد تجتلى
تركوا الجماجم، والرماح تجيلها
في «كازرون» (١٩) كما تجيل الحنظلا

وواضح ما في هذه الابيات من قوة الشعور وحرارة العاطفه ومن هذا اللون من الشعر الذي تغلب عليه الصبغة الخطابية أيضا: قول كعب الأشقري (20) :

بدشت بارين يوم الشعب اذ لحقت
أسد بسفك دماء الناس قد دبروا
لاقوا فوارس ما يجلون ثغرهم
فيهم على من يقاسى حربهم صعر
المقدمون اذا ما خيلهم وردت
والطاعنون اذا ما ضيع الدبر

وأغلب الظن أن هذه لروح الخطابية التي تشيع في الشعر الخراساني يرجع سببها الى طبيعة الحياة التي يحياها العرب هناك. فقد كانت الحروب مسيطرة

---

(17) معجم البلدان 7/206 .
(18) هلا : كلمة زجر للخيل .
(19) مدينة بفارس بين البحر وشيراز ، وهى بلدة عامرة كبيرة اشتهرت بصناعة بعض الانواع من الثياب
(20) معجم البلدان 4/61 .

على نفوس عامتهم لا فرق بينهم فاذا ما أخلدوا الى السلم زمنا، أو قل خيّل إلينا أنهم أخلدوا، نجدهم يدخلون في حروب أخرى داخلية يختلط فيها الصراع القبلي بالأحقاد الدفينة والأطماع القائمة على حب السيطرة والتسلط، كل ذلك كيّف نفس الشاعر الخراساني على نحو جعل عواطفه جياشه لا تهدأ وكثيرا ما تصل به الى حد الانفعال الشديد حتى اذا ما خطر له أن ينظم شعرا، رأيناه فيه خطيبا متغنيا أكثر منه شاعرا منشدا (21):

وبدشت بارين شددنا شدة
مذكورة كانت تسمى الفيصلا
اذ لا ترى الا صريع كتيبة
لا يتقى قصد القنا والجندلا

ولعل من أبرز ما يمثل هذا اللون من الشعر، قول كعب الأشقري (22):

فهن يحن كل حمى عزيز
يحمين الحقائق والذمارا
طوالات المنون يصرن الا
اذا سار المهلب حيث سارا
فلولا الشيخ بالمصرين ينفى
عدوهم، لقد تركوا الديارا
ولكن قارع الأبطال حتى
أصابوا الأمن واجتنبوا الفرارا
اذا وهنوا وحل بهم عظيم
يدق العظم كان لهم جبارا
ومبهمة يحيد الناس عنها
تشب الموت، شد لها الازارا

---

(21) نفس المصدر 161/4 .
(22) الاغانى دار الكتب 297/14 .

شهـــــاب تنجلـــى الظلمـــاء عـنـــــه
يـــرى فـــى كـــل مبهمـــة مـنـــــــارا

وهذه القصيدة على طولها تجري على منوال واحد من الجزالة والسهولة اللفظية وكأنها حديث شعري متسلسل بعيد عن التكلف والتعقيد. والشاعر، هنا، أبعد ما يكون عن الإطناب والتفصيل في المعاني التي ساقها، وحتى في التشبيه الذي ورد في هذه القصيدة لم يرد، أو قل، لم تسمح له روحه الخطابية العفوية أن يذكر له أداته أووجه شبه.

العفـويـــة :

نلاحظ أن للعفوية – وهي صفة الكثير من الشعر الخرساني – أثرها الكبير الكبير في ذلك الشعر الذي وصل الينا. ولست أجدني مبالغا اذا قلت ان أغلب شعراء إيـران كانوا يسيرون على هدى هذه العفوية، فترى الواحد منهم لا يكاد يصرف همه الى النظم حتى تستجيب له القوافي طيعة سلسة لا تكلف فيها ولا تعمل، فزياد الأعجم لم يكن يسمع صوت الحمامة حتى خاطبها بشعر يعدها فيه بالرعاية والحفظ – كما سبق أن رأينا – وكعب الأشقري لم يكد يسمع ما قاله رسول الحجاج للمهلب حتى مثل بين يدي صاحبه ينشد قصيدة من أجود ما نظم لفظا ومعنى، ومثل ذلك حاجب الفيل لم يكد ينشد مديحه في يزيد بن المهلب ويتسلم جائزته حتى رأيناه يرتجل بين يديه بيتين آخرين إعجابا بهذا الكرم الذي غمره به، إذ يقول (23):

شـــم الغيـــث وانظـــر ويـــك ابـــن تبعجـــت
كـــلاه تجـدهـــا فـــى يـــد ابـــن المهلـــب
يـــداه يـــد يجـــزى بهـــا اللـــه من عصـــى
وفى يـــــده الأخـــرى حيـــاة المعصـــب

أما أبو الهندي فإننا نراه يخاطب الخمار شعرا، وذلك حين قال

(23) الاغانى دار الكتب 14/267 .

لــه (24) :

"طربت الى الصبوح فهات عجل". ومما يذكر أن يزيد بن المهلب طعن في بعض حروبه خارجيا فصرعه فوثب الخارجي بسيفه وهو يقول (25) :

وانــــا لقــــوم لا نعــــود خيلنـــــا
اذا مـــا التقينــــا أن تحيـــد وتنفـــرا
وننكــر يـــوم الــروع ألــوان خيلنـــا
من الـدم حتـى نحسـب الـورد أشقـــرا
وليـس بمعـــروف لنـــا أن نــردهـــا
صحـاحــا ولا مستنكـــرا أن تعقـــرا

ولم تحل هذه العفوية بين الشاعر الخراساني، في شعره، وبين قوة الديباجة وجزالة النظم، فانظر مثلا الى ما يقوله المغيرة بن حبناء (26) :

فـــان يــك عـــارا مــا لقيـــت فـــربمـــا
أتـــى المرء يـــوم الســـوء من حيث لا يـــدرى
ولا أرى ذا عـــيـــــش يـــــدوم ولا أرى
زمـــان الغنـــى الا قـــريبـــا من الفقـــر
ومن يفتقـــر يعلـــم مكـــان صـــديقـــه
ومن يحـــى لا يعـــدم بـــلاء مـــن الدهـــر
ولمـــا رأيـــت المـــال قـــد حيـــل دونـــه
وصـــدت وجـــوه دون ارجـــائهـــا البتـــر
جعلـــت حليـــف النفـــس عضبـــا ونثـــره
وأزرق مشحـــوذا كخـــافيـــة النســـر

وأحسب أن من يقرأ هذا الشعر، ولا يعلم قائله، لا يمكن أن يصدق أنه

---

(24) طبقات الشعراء ص 136 .
(25) شرح المقامات 2/286 .
(26) عيار الشعر ص 57 ، 58 .

كان يعيش بخراسان. وقد أعجب بهذا الشعر ابن طباطبا، وعده من الشعر الذي خرجت ألفاظه خروج النثر، سهولة وانتظاما فلا استكراه في قوافيه ولا تكلف في معانيه. ولا شك أن عفوية الشاعر وقوة طبعه هما العنصران الأساسيان اللذان بلغا به الى هذا المستوى الفني البديع، وإن كان يوجد الى جانب ذلك، الباعث الذي يدفع الشاعر الى نظم الشعر، فهناك اختلاف كبير بين شاعر متكسب – كما سبق أن أشرنا – وبين شاعر آخر يدفعه الى هذا النظم إيمان عميق بالعصبية والاعجاب الصادق ببعض من يمدحهم، وفي كلا الحالين– سواء كان هذا الشاعر مادحا أو مفتخرا – يشعر في أعماق نفسه أن له في هذا النظم حقا ونصيبا، كقول ثابت قطنة في سجنه، يمدح نصرا (27) :

نقارع الترك ما تنفك نائحة
منا ومنهم على ذى نجدة شار
أن كان ظنى بنصر صادقا أبدا
فيما أدبر من نقضى (٢٨) وامرارى
لا يصرف الجند حتى يستفىء بهم
نهبا عظيما ويحوى ملك جبار
وتعثر الخيل فى الأقياد آونة
يحوى النهاب الى طلاب أوتار
حتى يروها دوين السرج بارقة
فيها لواء كظل الأجدل الضارى
لا يمنع الثغر الا ذو محافظة
من الخضارم سباق لأوتار
انى وان كنت من جذم التى نضرت
منها الفروع وزندى الثاقب الوارى

---

(27) الطبرى 5/399 .
(28) النقض : ضده الابرام .

لذاكـر منـك فضـلا قـد سبقـت بـه
من كـان قبلـك يـا نصـر بـن سيـار

فثابت – كما ترى – يمدح نصرا ولكنه لا ينسى نفسه وقد تحدث عنه وغمره بالثناء كما تحدث أيضا عن نفسه مباهيا مفتخرا.

كثـرة المقطوعـات

ومن الظواهر في الشعر الايراني ، كثرة المقطوعات فيه، وربما كان الذي دفع اليها أنه لم تكن عندهم سعة من الوقت، بسبب الحروب المستمرة لكي يطيلوا في قصائدهم، على نحو ما يلقانا عند عتاب بن نهار بن توسعة حين رأيناه يفخر بشجاعته وسيفه، يقول (29) :

قدمـت صـدر السيـف ثـم تبعتـه
كـالفجـر مـد عمـوده المنجـابـا
فـى مظلـم الأرجـاء يـؤنسنـى بـه
سيـف وقلـب لـم يكـن وجـابـا

وكذلك حاجب الفيل حين قدم على يزيد بن المهلب مادحا ، فقال (30) :

كـم من كمـى فـى الهيـاج تـركتـه
يهـوى لفيـه مجـدلا مقـتـولا
جللـت مفـرق رأسـه ذا رونـق
عضـب المهـزة صـارمـا مصقـولا
قـدت الجيـاد وأنـت غـر يـافـع
حتـى اكتهلـت ولـم تـزل مـأمـولا
كـم قد حربـت وكـم جبـرت معـاشـرا
وكـم امتننـت وكـم شفيـت غليـلا

---

(29) معجم الشعراء ص 107 .
(30) الاغانى 14/266 .

وقول الاخر يمدح يزيد بن المهلب (31) :

والله ما ندرى اذا ما فاتنا
طلب اليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد
أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التى عودتنا
أولا فارشدنا الى من نذهب

فأنت ترى أن الشاعر لم يتجاوز في مديحه ثلاثة أبيات. ومثل هذا قوله أيضا في يزيد (32) :

ما لى أرى أبوابهم مهجورة
وكأن بابك مجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى
بيديك فاجتمعوا من الآفاق
انى رأيتك للمكارم عاشقا
والمكرمات قليلة العشاق

ووصل قصر المقطوعات أن كان الشاعر يمدح، أحيانا، أو يهجو بالبيتين أوالبيت الواحد. من ذلك ما يقوله عثمان بن صدقة وكان من شعراء خراسان عندما مدح مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم والي طخارستان، يقول (33) :

خيرنى مسلم مراكبه
فقلت حسبى من مركب حكما

---

(31) العقد الفريد 1/353 .
(32) نفس المصدر 1/353 .
(33) معجم الشعراء ص 91 .

هـــــذا فتـــى عـــامـــر وسيـــدهـــــا

كفـــى بمـــن ســـاد عـــامـــرا كـــرمـــا

وكذلك زياد الأعجم عندما جاء المهلب يخبره بأنه مدحه ببيت صغده مائة ألف درهم وهو يقول (34) :

فتـــى زاده السلطـــان فـــى الخيـــر رغبـــة

اذا غيـــر السلطـــان كـــل خليـــل

وعلى نحو ما تشيع هذه المقطوعات في مديح الشعراء تشيع في آهاجيهم، فمن ذلك ما يقوله نهار بن توسعة يهجو قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان بعد يزيد بن المهلب، يقول (35) :

كانـــت خـــرســـان أرضـــا اذ يزيـــد بهـــا

وكـــل بـــاب مـــن الخيـــرات مفتـــوح

فـــاستبـــدلـــت بعـــده جعـــدا أنـــاملـــه

كـــانمـــا وجهـــه بالخـــل منضـــوج

الجـــوع يهبـــط فى عميـــاء مظلمـــة

لا متـــع اللـــه أهـــل الجـــوح ما الجـــوح

ومثله ما يقوله الاخر حين شاهد هزيمة إحدى السريا وكان يقودها رجل يقال له مسعود (36) :

خـــابـــت ســـريـــة مسعـــود وما غنمـــت

الا أفـــانيـــن مـــن شـــد وتقـــريـــب

حلـــوا بـــأرض قفـــار لا أنيـــس بهـــا

وهـــن بالسفـــح أمثـــال اليعـــاسيـــب

---

(34) الاغانى دار الكتب 391/15 .

(35) كتاب البدء والتاريخ نشر بروكلمان . هوار 37/6 .

(36) الطبرى 400/5 .

كما نلاحظ ذلك عند الجرمي الذي هجا زيادا فقال (37):

دلفـت الـى صميمـك بالقـوافـى
عشيـة محفـل فهتمـت فـاكـا
وصـدق مـا أقـول عليـك قـوم
عـرفـت أبـاهـم ونفـوا أبـاكـا

واقتصر أحد الشعراء في هجاء الحرشي على بيت واحد وهو (38):

تبـدلنـا سعيـدا مـن سعيـد
لجـد السـوء والقـدر المتـاح

والشاعر، بدل أن يصف لنا حالة هذا الوالي وضعف رأيـه نثرا قررهـا شعـرا.

الصناعة فى الشعر الايرانى

وليس معنى ما قدمنا أن الشاعر، وهو ينظم مقطوعاته القصيرة، لم يكن يثقف شعره ويجوده، فقد كان اذا وجد الفرصة الى ذلك اغتنمها، وكان من الشعـراء من يحرص على التأني والتؤدة والتجويد والتحبير، يقول زيـاد الأعجم (39):

وقـافيـة حـذاء بـت أحـوكهـا
اذا مـا سهيـل فـى السمـاء تـلالا

وكان زياد متفرغا للشعر لأنه كان أعجمي اللسان ولم يكن مشغولا بحرب، وهو من هذه الناحية شاعر متكسب بأدق معنى لهذه الكلمة، ولذلك نراه يعنى بصقـل شعـره وإشاعة كل ما يمكن فيه من محاسن صوتية أو معنوية.

(37) شرح ديوان الحماسة للتبريزى 107/4 .
(38) الطبرى 360/5 .
(39) الاغانى دار الكتب 393/15 .

وهي تتمثل عنده في استعماله الجناس والطباق. ومما لا شك فيه أن وجود مثل هذه الصناعة اللفظية يدل على أن الشاعر العربي في إيران كان لا يبخل على نفسه وشعره في البحث عن الكلمة الموحية والمعنى المستطرف. فمن ذلك ما يقوله زياد الأعجم في رثاء المغيرة ابن المهلب (40):

فانع المغيرة للمغيرة اذ غدت
شعواء مجحرة لنبح النابح

والقارىء يستطيع أن يلاحظ، بسهولة، هذه الصنعة الشعرية في البيت وذلك حين جانس زياد بين المغيرة الذي هو ابن المهاب وبين الخيل المغيرة. ومثل هذه الصنعة أيضا ما نجده في هجائه لسويد بن أبي كاهل حين جاءه بنو يشكر يستنصرونه على زياد بعد أن هجاهم، فيقول (41):

وأنبئتهم يستصرخون ابن كاهل
وللؤم فيهم كاهل وسنام

فكانت كلمة كاهل الأولى هي القبيلة وأما الثانية فإنها اسم لأعلى الظهر مما يلي العنق كما هو معروف (42)، وانظر بعد هذا الى قول المغيرة ابن حبناء في قتيبة بن مسلم بعد أن قتل "نيزك وصولا" (43):

وتركت صولا حين صال مجدلا
يركبنه بدوابر وحوامي

فإن الصناعة في هذا البيت ظاهرة تتمثل في "صول" و "صال" ومعناه سطا (44). ونجد أطرافا من هذه الصناعة اللفظية عند ثابت قطنة في

(40) أمالي اليزيدى ص 4 وذيل الامالى ص 10 .
(41) الخزانة 2/548 ، شرح المقامات 1/374 .
(42) شرح المقامات 1/374 .
(43) الطبرى 5/241 .
(44) لسان العرب 13/411 .

رثائه ليزيد بن المهلب (45):

أمسلـــم تقـــدر عليـــك رمـــاحنــــــا
نـــذقـــك بهـــا قـــيء الأســـاود مسلمـــا

فمسلم الأولى قصد بها مسلمة بن عبد الملك، وأما "مسلما" الثانية فمعناها مخذول منقــاد (46). ومن هذه الشاكلة قول أبي الهندي في حديثه عن الخمر (47):

رضيـــع مـــدام فـــارق الـــراح روحـــه
فظـــل عليهـــا مستهـــل المـــدامـــع

والجناس واضح بين الراح التي هي الخمر وبين روح الشاعر ومثل ذلك أيضا مما نجده في شعر بشر بن المغيرة يلوم يزيد بن المهلب ويعتب عليه في منعه، يقول (48):

علـــى أى بـــاب أبتغـــى الاذن بعدمـــا
حجبـــت عـــن البـــاب الـــذى أنـــا حاجبـــه

والى جانب هذه الصناعة الشعرية توجد صناعة أخرى نلحظها في قول زياد الأعجم حين هجا المهلب (49):

لا خيـــــر فـــى كـــذب الجـــوا
د وحبـــــذا صـــــدق البخيـــــل

والحوك الشعري يبدو، هنا في مطابقة زياد بين كذب الجواد وبين صدق البخيل. ومثل ذلك ما يقوله أحد الشعراء في هجاء باهلة (50):

---

(45) الطبرى 5/349 .
(46) لسان العرب 15/184 .
(47) الكامل للمبرد . ط أولى . تحقيق زكى مبارك 2/755 ، العقد الفريد 6/342 .
(48) وفيات الاعيان 5/330 .
(49) عيون الاخبار 3/146 ، العقد الفريد 1/287 .
(50) وفيات الاعيان 5/333 .

حـــولان باهلـــة الأولـــى فـــى ملكهـــم
مـــات النـــدى فيهـــم وعـــاش المنكـــر

والطباق في البيت واضح، ومثله قول يزيد بن مفرغ (51):

فـــالـــريـــح تبكـــى شجـــوهـــا
والبـــرق يضحـــك فـــى الغمـــامـــة

وانظـر بعد ذلك الى قول المغيرة بن حبنـاء في مدحه لقتيبـة بـن مسلـم (52):

يسمـــو فتتضـــع الملـــوك اذا سمـــا
بقتيبـــة الحـــامـــى حمـــى الاســـلام

وفي هذا البيت صناعة غاب عليها الطبع حتى ليحسب الدارس أنهـا جاءت عفـو الخاطر وهو يقـول : "يسمـو فتتضع الملـوك". وانظـر الى قوله أيضـا : "الحامى حمـى الاسـلام". ومن هـذا البـاب مـا يقـولـه بعضهـم (53) :

قعـــدت بهـــم آبـــاؤهـــم وسمـــت بـــه
همـــم الملـــوك وســـورة الأبطـــال

فقـد طابق بيـن "قعـدت" وبيـن "سمـت".

وهكذا نرى الحياة الأدبية التي عاشتها إيـران في العصر الأموي حفلت بضروب من الصناعة اللفظية ولعلّي لست مبالغا اذا قلت إن عامة الشعر العربي بإيـران لا يخلو بين ثناياه من ضروب الصنعة، وهي نزعة تلمس أثرها عـند عامة فحول الشعر هناك، ولئن بدت واضحة في بعض النصوص الشعريـة – كما سبق أن رأينا – فانك قد تجدها دقيقـة خفيفـة تكمن في استعارة

---

(51) نفس المصدر 5/388 .
(52) الطبرى 5/240 .
(53) معجم الشعراء ص 344 .

أو تشبيه طريف أو في اختيار صيغة أو لفظ موح، كقول كعب الأشقري (54) :

ثنائي على حي العتيك بأنها
كرام مقاريها كرام نصابها
اذا عقدوا للجار حل بنجوة
عزيز مراقيها منيع هضابها
محلقة دون السماء كأنها
سحابة صيف زل عنها سحابها

فإن مثل هذا القول يجعلنا نرجح أن صاحبه قدبذل شيئا من الجهد في استخراج هذا التشبيه على هذه الصورة الفنية الكاملة. وقل مثل ذلك في صياغة الأبيات فإنه يتضح فيها جمال الصوت والموسيقى ، فإن الشاعر اعتمد في نظمها على اختيار بعض الصّيغ الخاصة كصيغتي عزيز ومنيع فكان لهما تجاوب موسيقي يستهوى السمع. ولعل استشهاد صاحب نهاية الأرب ببعض أبيات هذه القصيدة وجعلها من جيد الشعر الذي وصفت به المعاقل والحصون، دليل واضح على جودتها (55). ولا شك أن كعبا يعد من أبرز الشعراء الذين أعاروا شعرهم قدرا كبيرا من الصناعة. وإن كانت — كما قلنا— تبدو دقيقة وخفية في بعض الأحيان، وهذا مرجعه الى فصاحته وصقا طبعه مما جعل الشعر عنده سجية وطبيعة قبل أن يكون صناعة ومهنة. أما بالنسبة لزياد الأعجم فإنه كان يكثر من الصنعة وما أسهل أن يعثر عليها في تضاعيف شعره، وانظر مثلا الى قوله (56) :

وأرى المكارم يوم زيل بنعشه
زالت بفضل فضائل ومدائح

(54) الطبرى 5/186 ، 187 .
(55) نهاية الارب . ط الثالثة . مطبعة دار الكتب سنة 1929 ، 1/389 .
(56) أمالي اليزيدى . ص 1 فما بعدها .

رجفت لمصرعه البلاد فأصبحت
منا القلوب لذاك غير صحائح
يقص السهولة والحزونة اذ غدا
بزهاء أرعن مثل ليل جانح
فتيان عادية لدى مرسى الوغى
سنوا بسنة معلمين جحاجح
لبسوا السوابغ فى الحروب كأنها
غدر تحيز فى متون أباطح
والخيل تعثر فى الدماء وقد جرى
فوق النحور دماؤها بسرائح

إن القارىء لا يكاد يجاوز بيتا من هذه الأبيات دون أن يجد فيه صناعة من تشبيه أواستعارة كتشبيهه السوابغ بالغدران وجعله الخيل تعثر في الدماء. وما أضن زيادا كان يجري على طبيعته حين قال :

يقص السهولة والحزونة اذ غدا
بزهاء أرعن ، مثل ليل جانح

لأننا نعلم عجمته وقبح لفظه حتى أن أبا الفرج ليتعجب من أمره كيف يستطيع أن يصل الى ما وصل اليه في هذا الشعر وهو على هذه الحالة من اللكنة (57) ويقظة الشاعر العربي، في إيران ، وعنايته الفنية واللغوية لم تحل بينه وبين الوقوع في الخطأ واللحن، كقول زياد الأعجم (58):

اذا قلت قد أقبلت أدبرت
كمن ليس غاد ولا رائح

والصحيح أن يقول كمن ليس غاديا ولا رائحا على النصب لأن غاديا

(57) الاغانى دار الكتب 15/380 .
(58) الشعر والشعراء 1/398 .

خبر لليس: "ورائحا" معطوف على الخبر والمعطوف على المنصوب منصوب. ومثل قول ثابت قطنة (59):

عشائرنا التى تبغى علينا
تجربنا زكا عاما بعاما

وكان على ثابت قطنة أن يقول عاما بعام على الجر ولكنه نصب اضطرارا للقافية. وانظر بعد ذلك إلى قوله (60):

فعلى ان أبؤ بأخيك يوما
يزيدا أو أبوء بهم هشاما

والأولى، هنا، أن يقال فعلّى أن "أبوء" بنصب الفعل لا جزمه نظرا لسبقه بأن بدليل نصبه له من بعد، حين قال في الشطر الثاني "أو أبوء بهم هشاما". على أن هذا الجزم اضطر الشاعر اليه اضطرارا من أجل الوزن وهو تجاوز ربما حمل على القلة والشذوذ لا على الخطأ واللحن. ومهما يكن فإن الشعر العربي في إيران لهذه الحقبة من الزمن، كان شعرا فصيحا فيه كل مقومات الفصاحة والبلاغة، وكأن أصحابه لم يكونوا يعيشون غرباء في بيئة معظم سكانها من العجم وفي مجتمع إيراني تحيط بهم عجمته من كل جانب.

---

(59) الطبرى 5/348 .
(60) الطبرى 5/348 .

ـ الخـــاتمـة ـ

كانت خراسان والبلاد الايرانية وهي البلاد الشرقية بوجه عام مقاطعات أعجمية تتبع الحكم الفارسي، وتسكنها شعوب مختلفة، وما ان استقر بها الفاتحون على عهد عثمان حتى استطاعوا، في أقرب وقت، تثبيت أقدامهم بها ما عدا بلاد ما وراء النهر التي ظلت طوال العصر الأموي، ميدان حرب وقتال، بين جيوش العرب الفاتحين وبين الأتراك الذين كانوا يبسطون سلطانهم على هذه الجهات كلها.

وقد ألف العرب، بمرور الأيام، هذه البلاد على الرغم من بعدها وكثرة أخطارها، ورأيناهم يستوطنونها ويمارسون فيها نشاطهم الشعري الذي نعرفه لهم في العراق والجزيرة. ولا شك أن هذا يرجع الى الظروف التاريخية التي عاشتها تلك البلاد، اذ كان فتحها من جهة العراق وعن طريق البصرة، وكانت معظم البعوث تأتيها منها فكان الطابع العام لعرب إيران هو الطابع العراقي وكان أهم سمة اتسم بها هؤلاء الفاتحون، وطبعوا بها بيئاتهم الأعجمية الجديدة هي فن الشعر الذي وجدناه يمثل أوضاعهم السياسية والاجتماعية، والفكرية اذ جاء استجابة صادقة لتلك الأوضاع كلها فرأيناه يعايش حروب العرب وفتوحاتهم ويردد صدى وقائعهم وانتصارهم، وما كانوا يستشعرونه من قوة وسلطان، وما يراودهم من فتح وتوسيع لرقعة الاسلام. ولم يغفل الشعر الجانب السياسي في الحياة الإيرانية، فرأيناه يترك بصماته على تصرفات بعض الأمراء وعلى أخطاء بعض القواد، ولربما وجدناه يربط ذلك كله بالسياسة العليا المتعلقة بالخليفة نفسه. وعندما بدأ الضعف يدب في جسم الخلافة، وكثرت الفتن واستفحل داء العصبية وشاعت الدعوات المذهبية وبدت إمارات إيران تترنح تحت ضربات الأعداء من الخارج، والناقمين من الداخل، رأينا الشعر يسجل هذا كله

وتشيع في ثناياه روح اليأس والقنوط ، وعلى الرغم من أن المجتمع الايراني كان مجتمعا غير مستقر لم يعرف طول العصر الأموي، أمنا سوى فترات متقطعة مما لا يسمح للعرب أن يعيشوا حياة اللهو والترف، فإن هناك من سمح لنفسه بأن يتذوق هذا اللون من الحياة. ورأينا الشعر يرسم لنا صورة متكاملة لهذه الحياة الهازلة، الا أنه كان فقيرا في وصف الطبيعة وفن الغزل، فإننا لا نكاد نجد من الأول شيئا ويندر أن نجد شيئا من اللون الثاني. ومن المرجح أن حياة الحروب كان لها أكبر الأثر في انعدام هذين الفنين، وقد مضى الشعر الإيراني على نهج الشعر العربي وأغراضه الشعرية التقليدية مثل المديح، والرثاء، والحماسة، والفخر، والهجاء.

ولقد كانت إيران من أخصب البيئات الشعرية اذ ضمت عددا كبيرا من الشعراء الذين ينتمون الى القبائل المختلفة، والتي استوطنت هذه الجهات وهم اليمن وأحلافها، من جهة، وقبائل الضر من جهة أخرى. ورأينا الظروف المختلفة لتلك الامارت ، تكيف شعراءها على نحو جعل شعرهم دائما في خدمة العصبية القبلية، كما جعلهم يعنون بإذكاء الحماسة في نفوس المسلمين وقد مدحوا طويلا أمراءهم ووصفوا جيوشهم، منوهين بعظيم فتوحاتهم وبطولاتهم وافتخروا بقبائلهم افتخارا مدويا. ومن هنا تتضح لنا وظيفة الشاعر في هذه البيئة النائية إذ كان لسان قبيلته، وصوتا عاليا يردد صدى ما يتحقق على أيدي الأمراء والقواد من فتح، وما كانت تستبيحه جيوشهم من الحصون والقلاع. وكان لهذا اللّون من الحياة، أثره على الشعراء الايرانيين إذ جعلهم أبعد الناس عن شعر التكسب وأمسهم بالحياة التي يعيشن تقلباتها. وأكسبهم ذلك سرعة الاستجابة لما يجرى في بيئاتهم من أحداث مما جعلهم في كثير من الأحيان يتجنبون البناء التقليدي للقصيدة العربية.

ومن أهم الشعراء ثابت قطنة وكعب الأشقري، والمغيرة بن حبناء، وزياد الأعجم، وأبو الهندي، والشمردل بن شريك التميمي. وأعشى همذان. ولكل شاعر منهم ميزته وطابعه الذي اتسم به، فزياد الأعجم يشمل طابع الجودة عامة

شعره في المديح والهجاء إذ يجمع فيه بين السلاسة اللفظية وقدرة التصوير، مع دقة الصنعة، وحضور البديهة. أما المغيرة بن حبناء، وثابت قطنة، وكعب الأشقري فان طابع الفروسية يترك ظلاله على عامة شعرهم وهذا يرجع الى أنهم كانوا فرسانا يخوضون المعارك بسيوفهم، ونلاحظ أن المغيرة بن حبناء مع براعته وقوة طبعه في فن المديح والهجاء، عني بالحكم يبثها في ثنايا شعره ولا نجد شيئا من شعر الرثاء. ولعل هذا يعطينا صورة لبعض جوانبه النفسية القاسية التي جعلته لا يتردد في العنف بأخيه والطعن عليه. أما صاحبه ثابت قطنة فاننا نجده على عكسه إذ نراه وهو الأزدي لا يتردد في مدح بني تميم حين أحسنت الدفاع في إحدى المعارك. وكان ثابت شريفا في قومه يجلونه ويولونه الأعمال فيتحمل ويظهر فيها أثره وكان يحمل بين جنبيه روحا إسلامية، تقوده دوما الى الجهاد وتدفعه الى الاستماتة في مناهضة العدو الى أن سقط شهيدا في ميدان القتال. ولم يحل هذا الايمان بينه وبين العصبية فرأيناه يستشعرها استشعارا قويا ويعتز بقبيلته الأزد اعتزازه بنفسه ورأينا كل هذا ينعكس في حماسياته، ومناصرته ليزيد بن المهلّب في ثورته وكثرة ما دبّجه، بعد فشل الثورة، من قصائد الرثاء. ونجد كعبا الأشقري مثله يستشعر العصبية استشعارا قويا لكنه كان سريع التقلب، لا تدل مواقفه على أنه صاحب نظر وتقدير لما كان يجري من حوله وما أشبهه بأعشى همدان. ولذلك أفرط في التشنيع على قبيلته وعلى حليفاتها وجلب لها المعرة في مدحه لزعيم قيس وهو قتيبة بن مسلم. وتظهر مقدرة كعب الشعرية في فن المديح ووصف الوقائع والحروب، وتقل هذه المقدرة وتضعف في فن الهجاء اذ يعتبر أحد الشعراء المغلبين لتضعضعه أمام زياد الأعجم. وعلى الرغم من هذا الاختلاف الذي نلاحظه بين هؤلاء الشعراء الثلاثة فإن هناك أوجه شبه كثيرة تجمع بينهم نتيجة لتشابه ظروفهم في بلاد إيران لا سيما يوم كان المهلب يناهض الخوارج، وكانوا من حوله يناضلون بأسيافهم وألسنتهم.

ويلقانا الشمردل بن شريك وأبو الهندي وكلاهما كان يعيش حياة

شعرية غير التي يحياها الاخرون فالشمردل رأيناه بعد مقتل إخوته، ينصرف الى رثائهم والبكاء عليهم وهو من هذه الناحية يشبه ثابت قطنة الذي خص المهالبة بعد نكبتهم، بفرائد من قصائد الرثاء ولكنه يختلف عنه، إذ نجد بكاء ثابت على المهالبة فيه حمية الموتور الذي يتحرق لأخذ ثأره وشفاء غليله. أما الشمردل فإن ما قاله في إخوته ندبا ونحيبا صادر من قلب مزقته مصائب الدهر وفي هذا الشعور تكمن أصالته الشعرية. وقد عني الشمردل بشعر الطرد والقنص. وقد شذ أبو الهندي في شعره عن معظم شعراء عصره، وانعزل كل الانعزال عن أحداث هذا العصر، وعما كان يدور من حوله، من أخبار الوقائع والحروب اذ رأيناه يقصر شعره على وصف حياته الخاصة، حياة اللهو والمجون والفسق، لا يرعى دينا ولا حرمة، شأن كل متهتك فاجر، ولكن شعره كان من حيث الجودة والاتقان في فن الوصف و التشبيه، غاية في البراعة مما يدل على دقة ملاحظة وقوة تصوير.

وهكذا رأينا الشعر الإيراني في ظل الحكم الأموي ينمو ويتطور متكيفا بالظروف السياسية والاجتماعية التي اكتنفته.

وعلى الرغم من أنه لم يصل الينا الشعر الايراني كله، فما وصلنا منه يعطينا صورة واضحة لحياة العرب السياسية والاجتماعية، والطوابع الخطابية وما يعم كثيرا منه من العفوية وقلة الصنعة. وهذه أهم الخصائص الفنية التي سادت فيه.

وأرى واجبا علي، وأنا أختم هذا البحث، أن أتوجه بالشكر الي أستاذي الجليل الدكتور شوقي ضيف المشرف على الرسالة.

ولست أدعي في دراستي هذه، أنني ألممت بكافة الجوانب في حياة الشعر بإيران ولكنّي بذلت كل ما في طاقتي وجهدي وإن كنت أعلم أنها طاقة ضعيفة وجهد محدود.

ومن الله وحده أسال التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

فهرست المصادر والمراجع

1 ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للمقدسى ـ ليدن 1877 .

2 ـ الاخبار الطوال للدينورى . تحقيق عبد المنعم عامر . دار احياء الكتب العربية 1960 .

3 ـ الاشتقاق لابن دريد . تحقيق عبد السلام هارون طبعة الخانجى 1958 .

4 ـ الاعلاق النفيسة لابن رسته . طبعة ليدن 1891 .

5 ـ الاعلام للزركلى . طبعة ثانية .

6 ـ الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى ط دار الكتب ـ ساسى ـ بيروت .

7 ـ الأمالى لأبى على القالى ط ثانية دار الكتب 1926 .

8 ـ أمالى المرتضى ط أولى مطبعة السعادة 1907 .

9 ـ أمالى اليزيدى مطبعة جمعية دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن (الهند) 1938 (محمد بن العباس اليزيدى)

10 ـ البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسى نشر كلمان هوار . باريس ارنست لروسد 1899 .

11 ـ البلدان لليعقوبى . المطبعة الحيدرية بالنجف ط ثالثة سنة 1957 .

12 ـ بلدان الخلافة الشرقية لكى لسترنج ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد مطبعة الرابطة بغداد سنة 1954 .

13 ـ البيان والتبيين للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1950 .

14 ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان . دار الهلال .

15 ـ تاريخ آداب اللغة العربية لكارلو نالينو سنة 1954 .

16 ـ تاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان . ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار . دار المعارف .

17 ـ تاريخ الاسلام للذهبى . مطبعة السعادة سنة 1369 .

18 ـ تاريخ الدولة العربية لفلهوزن . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1958 .

19 ـ تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . مطبعة الاستقامة 1939

20 ـ التاريخ الكبير لابن عساكر . تحقيق عبد القادر أفندى بدران . مطبعة روضة الشـــام .

21 ـ جمهرة الأنساب لابن الكلبى مخطوطة مصورة ، محفوظة بـدار الكتب (ح) رقم 9959 .

22 ـ الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون . مطبعــة مصطفى البـابى الحلبـى .

23 ـ خزانة الادب للبغدادى ط بولاق سنة 1886 هـ .

24 ـ دائرة المعارف للبستانى .

25 ـ ديوان الطرماح طبعة ليدن سنة 1927 .

26 ـ ذيل الأمالى لأبى على القــالى .

27 ـ رغبة الآمل للمرصفى . مطبعة النهضة ط أولى سنة 1928 .

28 ـ سمط اللآلى لأبى عبيد البكرى الأونبى مطبعة لجنة التأليف سنة 1936.

29 ـ استيطان العرب فى خراسان للدكتور أحمد صالح العلى .

30 ـ شرح ديوان الحمــاسة للتبريزى . تحقيــق محمد محى الديــن مطبعــة حجــازى .

31 ـ شرح ديوان الفرزدق مطبعة الصاوى ط أولى سنة 1936 .

32 ـ شرح شواهد المغنى للسيوطى . تحقيق محمد محمــود المطبعة البهيــة بمصر .

33 ـ شرح المعلقات السبع للزوزنى مطبعة السعادة سنة 1925 .

34 ـ شرح المقامات للشريشى . بولاق ط ثانية سنة 1300 هـ .

35 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر نشر دار احيــاء الكتب العربية .

36 ـ طبقات الشعــراء لابن المعتــز . تحقيق عبد الستار أحمد فــراج . دار المعــارف .

37 ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى . تحقيق محمود محمــد شاكر ـ دار المعارف .

38 ـ العصر الاسلامى للدكتور شوقى ضيف . دار المعارف .

39 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

40 ـ عيار الشعر لابن طباطبا . تحقيق الدكتور طه الحاجرى ومحمد زغلول المكتبة التجارية سنة 1956 .

41 ـ عيون الاخبار لابن قتيبة ط أولى دار الكتب سنة 1925 .

42 ـ فتوح البلدان للبلاذرى . تحقيق صلاح الدين المنجد نشر مكتبة النهضة .

43 ـ فجر الاسلام لأحمد أمين ط سابعة . النهضة المصرية .

44 ـ فوات الوفيات للكتبى . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد نشر مكتبة النهضة سنة 1951 .

45 ـ القاموس الاسلامى نشر مكتبة النهضة سنة 1963 .

46 ـ الكامل لابن الأثير . المطبعة الازهرية ط أولى سنة 1301 هـ .

47 ـ الكامل للمبرد تحقيق زكى مبارك (ج 1 ـ 2) وأبى الاشبال أحمد محمد شاكر ج 3 . مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

48 ـ كتاب التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه للبكرى ط ثالثة مطبعة السعادة بمصر سنة 1954 .

49 ـ كشف الظنون لحاجى خليفة . المطبعة البهية سنة 1941 .

50 ـ لسان العرب لابن منظور . بولاق سنة 1503 هـ .

51 ـ المؤتلف والمختلف للآمدى تحقيق عبد الستار مصطفى دار احياء الكتب العربية سنة 1961 .

52 ـ المحبر لابن حبيب . تحقيق الدكتورة ايلزة . مطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة 1942 .

53 ـ مسالك الابصار فى ممالك الامصار للعمرى . تحقيق أحمد زكى باشا ط دار الكتب سنة 1924 .

54 ـ المسالك والممالك لابن حوقل طبعة ليدن سنة 1871 .

55 ـ المسالك والممالك لابن خرداذبة طبعة ليدن سنة 1303 هـ .

56 ـ المسالك والممالك للاصطخرى . تحقيق الدكتور محمد جابر الحينى نشر دار القلم سنة 1961 .

57 ـ المعارف لابن قتيبة .

58 ـ معجم الادباء . تحقيق مرجلبوث سنة 1927 .

59 ـ معجم البلدان لياقوت الحموى مطبعة السعادة ط أولى سنة 1906 .

60 ـ معجم الشعراء للمرزبانى . تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار احياء الكتب العربية .

61 ـ المقاصد النحوية للعينى ط بولاق سنة 1200 هـ .

62 ـ الملل والنحل للشهرستانى . تحقيق محمد فتح الله بدران ط أولى مطبعة الازهر .

63 ـ النقائض ط ليدن 1905 .

64 ـ نهاية الأرب فى فنون الادب للنويرى ط دار الكتب سنة 1925 .

65 ـ نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون . ط دار الكتب .

66 ـ وفيات الاعيان لابن خلكان . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة .



فهرس المطالع والقوافي

المطلع	القافية	عدد الابيات	الصفحة
ـ أ ـ			
ان الحواضن تلقاها مجففة	النجب	6	51
ابلغ ربيعة فى مرو واخوتهم	الغضب	6	58
ابلغ يزيد وخير القول اصدقه	الكذب	4	58
نفى نيزكا عن باذغيس ونيزك	اغتصابها	1	67
الا ذهب الغزو المقرب للغنى	المهلب	4	88
ثنائى على حى العتيك بانها	نصابها	5	96
بنو مازن قومى ومن يك فاخرا	يكـذب	2	97
ان لا اقم فيكم خطيبا فاننى	لخطيب	2	102
لو ان بكيلا هم قومه	العاقب	4	110
ان السواد الذى سربلت نعرفه	النوب	2	114
رايتك لما نلت مالا وعضنا	شغبـا	2	114
كل القبائل من بكر نعدهم	العـرب	2	116
تترك القوم اذا ما طربوا	وصخب	2	122
ان فى قصر ذى الخبا بدر تم	مصيبا	4	125
فلله عينا من راى كقضية	المهلب	4	134
جزى الله خيرا والجزاء بكفه	أحـرب	5	137
لو ان بكرا براه الله راحلة	الذنب	2	140
تقول سليمى الحنظلية لابنها	غريب	3	146
خذ من اخيك العفو واغفر ذنوبه	تعاتبه	4	160
ارى كل قوم يعرفون اباهم	يتذبذب	7	161
ان كنت تحفظ ما يليك فانما	ذئـاب	5	179
ان السواد الذى سربلت تعرفه	النـوب	2	180
شبث جدى وجدى مؤثر	المنتشب	3	189
واستبائى الزق من حانوته	الذنب	2	192
يترك القوم اذا ما طربوا	وصخب	8	194

ـ ن ـ



أسمـاء الاشخاص والاعـلام

ـ أ ـ

- ب -

- ث -

- ج -

- س -

- ش -

- ض -

- ط -

- ع -

– ن –

– هـ –

– و –

– ى –

الاجناس والقبائل والجماعات :

ـ أ ـ



الكتــب

الاماكن والمدن والبلدان :

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

– ن –

– هـ –

– و –

– ى –





فهرســت الموضوعــات

الفصــل الاول

العــرب فى خراسان والبلاد الايرانيــة

الفصــل الثانى

العــرب فى خراسان والبلاد الايرانيــة

الفصل الثالث

الشعراء

الفصل الرابع

الخصائص الفنية العامة

تم طبعــه بمطبعة
الاتحاد العــام التونسى للشغــل
ذو القعدة 1396 / نوفمبر 1976
تــونس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com